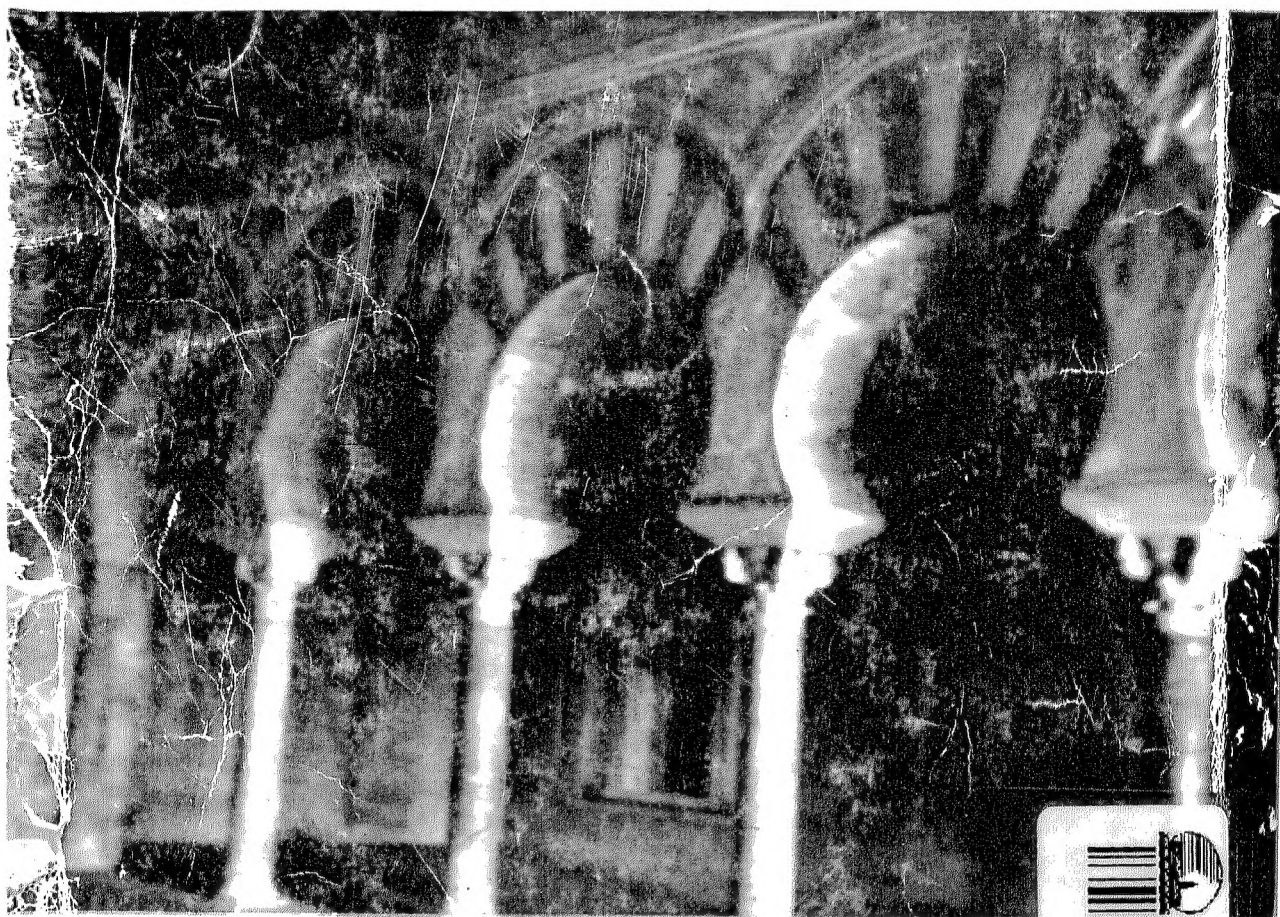


قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس

(دائرة تاريخية، عمرانية أثرية في القصر الاستراتيجي)



0021240

Bibliotheca Alexandrina

الزُّمَرُ وَالْمَقَامِي

2240

[illegible]

قرطبة حاضرة الخلافة
في الأندلس

قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس

(دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب، جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
ت ٣٩٤٧٤١، بوكيتي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

اقتصرت في المجلد الأول من كتاب « قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس » على دراسة الجوانب التاريخية والعمرانية من مدينة قرطبة بالإضافة إلى القسم الأعظم من الدراسة الأثرية وأعني بها المسجد الجامع بقرطبة ، أعظم آثارها قاطبة وأهمها على الإطلاق ، وكان في نيي أن أستوفي الدراسة الأثرية لولا أنني توسعت في بحث المشكلات المتعلقة بتاريخ بنیان هذا الجامع المكرم منذ إنشائه وتوصلت إلى حلول موقوتة لهذه المشكلات ولكنها حلول تستند على حقائق تاريخية وشواهد أثرية ، كما فصلت في دراسة بنیان الجامع من الوجهة الفنية بحيث شملت هذه الدراسة ما يقرب من ١٤٠ صفحة ، الأمر الذي اضطرني بعدما إلى التوقف عن الاسترسال في الدراسة الأثرية .

ثم رأيت أن أستكمل دراستي لقرطبة لكي تتسع لكل ما يتعلق بتراتها المادي والفكري وتتضح بذلك لدى القارئ العربي صورة واضحة المعالم لقاعدة الأندلس ومنارها الأعظم في عصورها الإسلامية المختلفة ، وراعت في دراستي لموضوعات هذا المجلد الثاني (الذي يتضمن الدراسة الجديدة) أن تتناسق وتتكامل في آن واحد مع ما أوردته من موضوعات في المجلد الأول ،

شُكَّان حديثي عن قصور الزمراء والعامرية وآثار قرطبة الأخرى من مآذن وحمامات وقناطر تكلمة ضرورية للدراسة الأثرية لقرطبة التي أفردت لها الباب الثالث . واختتمت هذا الباب بفصل عاجلت فيه أثر العمارة الخلافية بقرطبة في العمارة المسيحية وفي العمارة المسيحية على السواء .

أما الباب الرابع والأخير فقد خصصته لدراسة التراث الفني والفكري في قرطبة الإسلامية .

أرجو أن أكون قد نجحت في إبراز الدور الذي لعبته قرطبة في التاريخ الإسلامي بوجه عام وتاريخ الأندلس بوجه خاص ، والله الموفق .

المؤلف

الفصل التاسع

آثار قرطبة الاسلامية

- (١) آثار مدينة الزهراء .
- (٢) آثار قرطبة الأخرى .

آثار قرطبة الاسلامية

(١)

آثار مدينة الزهراء

أ - حفائر مدينة الزهراء :

كان يضم أشلاء الزهراء والتلال التي تكوَّنت على أطلالها منذ أن خربت ، سور يكاد يكون مستطيل الشكل ، يمتد من الشرق إلى الغرب ١٥١٨ متراً ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٧٤٥ متراً ، ويبدو اليوم جانب كبير من هذا السور مزدوجاً من الخارج ، ولكن بقية جوانبه ما تزال ترى مطمورة تحت التلال المتكومة . ويضم السور في نطاقه الداخلي أطلال قصور وأكواماً ما يزال بعضها يطوي في أحشائه بقايا كثيرة من منشآت المدينة التمسمة .

ولقد أثبتت الحفائر الأثرية التي أجريت في موقع الزهراء صدق ما وصفها به الشريف الإدريسي عندما أشار إلى أن القصور الخلافية كانت تقوم في القسم الأعلى من المدينة بينما كانت الدور المأهولة والأسواق تقع في القسم الأدنى منها

بحيث تفصل بين القسمين بساتين وروضات^(١) . وعلى الرغم من أن الحفائر الأثرية بدأت في القسم الأعلى الذي يضم قصور الخلافة ، ثم امتدت إلى القطاع الأوسط من القسم الشمالي ، فإنه ما تزال توجد إلى الشرق من هذا القطاع وإلى الغرب منه أجزاء كثيرة لم تكتشف بعد : ففي الشرق ما زلنا نشاهد أطلال أبنية ذات أروقة متوازية متعددة تحدها الأكوام الممتدة في صفوف متوازية ، كما أمكن تحديد موقع الجامع ، إذ نشاهد آثار بلاطاته الخمسة ظاهرة في القسم الأدنى المدفون من المدينة .

وفما يتعلق بآثار ما تم كشفه من القصور الخلافية ومرافقها ، كان من الصعب حقاً التمييز بين أبنية الخليفة عبد الرحمن الناصر وأبنية ابنه وخليفته الحكم المستنصر ، لأن الحكم كان يشرف في حياة أبيه على أعمال البنين ، ثم تولى إكمالها بعد وفاة أبيه ؛ فالاستمرار في البناء تحت إشراف شخص واحد جعل من المتعذر تحديد الزمن على وجه الدقة ما لم تكتشف نقوش كتابية تجلو هذا الغموض .

وكان أول ما اكتشفه فيلاسكت بوسكو من القصور الخلافية آثار بناء زعم أنه قصر الخلافة الذي أقامه الخليفة عبد الرحمن الناصر^(٢) ، ولكن ثبت فيما بعد أن ما اكتشفه لم يكن سوى قسماً من قصر الحكم المستنصر ، فقد عثر في أطلاله على تيجان أعمدة نقش عليها اسم الخليفة الحكم^(٣) . ثم تتابعت الحفائر العلمية على أيدي كبار علماء الآثار الأسبان أمثال دون فيلث هرنانديث Don Felix Hernández ودون رافاييل كاستخون Don Rafael Castejon ،

(١) ارجع إلى نص الإدريسي الوارد في ص ٢٤٦ من الجزء الأول .

R. Velásquez Bosco, Excavaciones en Medina Azahara, (٢)
Madrid, 1923.

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الأندلس ، ص ٨٣ .

فأسفرت عام ١٩٤٣ عن كشف آثار أحد قصور عبد الرحمن الناصر^(١) وتقع جنوبي القسم الملوي من المدينة ، وهي آثار غنية بالزخارف المحفورة في الحجر والرخام . ويرجع السبب في نسبتها الى عصر عبد الرحمن الناصر إلى العثور على اسم هذا الخليفة منقوشاً على تاجين صغيرين من آثار هذا القصر . وما زالت الحفائر الأثرية مستمرة الى يومنا هذا ، وما يزال المهندس فيلت هرنانديث يتابع بحوثه الأثرية وترميماته لقصر الناصر ، فأمكنه أن يعيد بناءه من الكتل الحجرية المحلية على صورته الأولى ، كما استطاع أن يكسو جدران قاعاته الداخلية من الشظايا الحجرية المتناثرة التي كانت مدفونة في أطلال الموقع ، بعد أن لصقها فيما بينها ، مراعيًا في ذلك تناسب الزخارف وتناسقها في القطع المختلفة .

وإلى نفس الخليفة عبد الرحمن الناصر يمكن أن ننسب الأبنية القائمة حول الأبنية الأربعة الكبرى الواقعة غربي السور الشمالي للمدينة ، في حين ينسب إلى الحكم المستنصر ، فيما يبدو لنا ، البناء القائم إلى الغرب من القطاع الذي أجريت فيه الحفائر ، وقريباً من سور المدينة والقاعة الشرقية المجاورة له^(٢) .

وعندما يدخل المرء مدينة الزهراء من خلال باب غرب مفتوح في السور الشمالي الذي يحيط بقصور الزهراء القائمة على سفح الجبل يشاهد على يمينه غرفة صغيرة مزودة بمرحاض جانبي ، كانت مخصصة للحراس القائمين بحراسة هذا الباب ، ومن هذا المدخل يجد المرء نفسه بين أحدورين أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار ، كانت تحتازهما مواكب الوافدين إلى الزهراء لمقابلة

(١) R. Castejon, Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara, Campana 1943, Madrid, 1944 — Gastejon, Nuevas excavaciones en Medina al-Zahra : Salon de Abd er-Rahman III, al-Andalus, 1945, pp. 147-154.

(٢) Torres Balbas, Arte hispano musulman, p. 446.

الخليفة وهم يتطون صهوات الخيل . ويهبط الأحودور الأيمن بين أطلال بنائين قليلي الاتساع يحيط بها عدد من الأفنية ، ويشغل الفناء الغربي مجلس مستطيل الشكل أرضيته مكسوة بالآجر ، ويكتنفه عند طرفيه مخدعان ، تفصلها عنه دعائم صغيرة كانت تقوم عليها عقود زالت اليوم من الوجود . ولم يُعثر في البناءين اللذين يهبط إليهما الأحودور على مداخل ، غير أنه من الممكن الوصول إلى طابقيها السفليين عن طريق درج . وينتهي الأحودور بعدد من الأبنية الصغيرة تتخللها أبناء صغيرة لعلها دويرات البرطلات ^(١) التي ورد ذكرها في المقتبس ، وكانت تقع قريباً من باب السدة أعظم أبواب قصر الزهراء ^(٢) ، أو دار الجند التي تضم مجالس جوفية ^(٣) ومجالس قبلية ^(٤) لنزول القواد ، وتقع هذه الأبنية الصغيرة على مستوى أدنى من مستوى الباب الخارجي للمدينة بنحو سبعة أمتار ، وتشتمل الدار الغربية منها على قرن ومرحاض . وقد كشف غربي هذه الدار وقريباً منها عن بهوين آخرين : الشمالي منها يستند على السور الخارجي ولا يفصله عن هذا السور سوى عدد من الغرف ، في حين يركب طرفه الجنوبي على الطرف الشمالي من البهو الآخر ، الذي يهبط مستواً إلى ١٦ متراً . وكان يحيط بهذا البهو الأدنى سقائف أو برطلات عرض الواحدة منها ٢,٥٠ متراً ، اتخذت أرضيتها من الحجر بحيث ترتفع نحو عشرين سنتيمتراً عن مستوى البهو ، وتكسو أرضية البهو لوحات كبيرة من الرخام خري اللون ، وكان كل سقيفة أو برطل منها يقوم على خمسة عقود ، يتراوح سعة العقد ما بين ٢,٩٢ متراً و ٣,١٥ متراً ، وتنبت هذه العقود من دعائم ضخمة ، يتراوح طول كل منها ما بين ٨٧ و ٩٥ سم ، وعرضه ما بين ٩٢ و ٩٥ سم ^(٥) .

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي . ص ٥٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٠ ، ٨٢ ، ١٩٧ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٦ .

(٤) نفسه ، ص ١٩٧ .

(٥) Torres Balbas, op. cit. p. 454

ب - قصر الخلافة (أو قصر عبد الرحمن الناصر)

وقد اكتشف على مستوى أدنى من هذه الأبنية ، وعلى مسافة تبعد نحو ١١٧ متراً من السور الشمالي للمدينة ، سور آخر سميك للغاية ، يمتد أيضاً من الشرق الى الغرب ، ولكنه لا يحاذيه تماماً ، لعله كان يؤلف السور الحاجز بين المدينة العليا والمدينة الوسطى أو الفصلان^(١) . وينكسر هذا السور عند جزئه الشرقي ثم يتجه إلى الشمال مؤلفاً الحد الشرقي للقصر ، ويقطع هذا السور السميكة ممر قائم على عقود منفوخة بارزة ، تعلوه قبوة نصف أسطوانية ، ولهذا الممر باب ينفتح في الجهة الجنوبية^(٢) ، وينقطع السور المذكور من الجهة الغربية بسبب توقف أعمال الحفر الأثري في هذه المنطقة . أما من الجهة الشرقية ، فينتهي السور بغرفة مستطيلة الشكل تليها قاعة مربعة الشكل أكبر قليلاً في المساحة ، وكلتاهما مهدمتان تماماً . وتؤدي القاعتان إلى برطل خرب عرضه سبعة أمتار يطل من الجنوب على خمسة فتحات كانت تشغلها أقواس قائمة على عمد . أما من الجهة الشمالية فكانت تنفتح ثلاث فتحات تفصلها فيما بينها دعامتان كبيرتان ، تشتمل الفتحة الوسطى على ثلاثة عقود صغيرة بينما تشتمل كل من الفتحتين المتطرفتين على عقدتين قوامين قائمين على ثلاثة عمد صغيرة أحدهما مركزي والآخران يتكآن على الدعامتين الجانبيتين . ومن خلال هذه العقود يصل الممر إلى مجلس فسيح يبلغ طوله ٢٥,٢٥ متراً وعرضه ١٧,٥٠ متراً ، وينقسم هذا المجلس إلى بلاطات ثلاث عمودية على الجدار الشمالي ، ويتكون البلاط الأوسط من صفين من العقود المتجاورة يبلغ عدد عقود كل صف منها ستة تقوم على سبعة أعمدة . ويحف بهذه البلاطات الثلاث من كل من الجهتين الشرقية والغربية بلاط جانبي يصله بالمجلس

(١) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٥١ . وينفتح فيه باب يعرف بباب الفصلان .

(٢) لعله الباب المعروف بباب الأقباء أول أبواب القصر الخلافي (ارجع إلى القرني ، ج ١

ص ٣٦٤ ، وقارن ذلك بإبن حيان ص ١٩٧) .

المذكور باب معقود على منكبين ، ويرتكز كل من المنكبين على عضادة من الرخام الأبيض نقشت عليها زخارف نباتية بلغت الغاية في الروعة والجمال .

وقد تم كشف هذا المجلس في سنة ١٩٤٤ ، ومنذ هذا التاريخ يتولى المهندس فيلث هرنانديث مهمة ترميم هذا المجلس وإعادةه إلى صورته الأولى^(١) . ونستدل من الروائع الزخرفية المتبقية منه على صدق ما وصفه به المؤرخون^(٢) ، فأرضيته مكسوة بلوحات من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها ما يقرب من المتر ، ويؤزر الجدران لوحات رخامية مماثلة ، يتراوح ارتفاع الواحدة منها بين ٦٨ سم و ٧٥ سم ، ويمتد فوق هذا الإزار الرخامي إفريز فاصل مدهون باللون الأحمر ، بأعلاها كسوة حجرية تفرعها توريقات محفورة في الحجر تبلغ تشكيلاتها الزخرفية الغاية في الرقة والتناسق ، ويبلغ سمك هذه الكسوة الزخرفية ٤ سم ، وتلتصق بالجدار عن طريق ملاط من الجص ، وكانت الكسوة المذكورة تصل في الارتفاع إلى مستوى العمود والدعائم أي ما يقرب من ٢,٢٥ متراً . أما الجدار الشمالي للمجلس فكان مقطوعاً كله بزخارف من التوريقات حول عقد أصم ، ولكن للأسف لم يتبق من هذه الكسوة الزخرفية سوى الأجزاء الدنيا المهشمة . أما الجدران الجانبية فقد كانت تغطيها لوحات مماثلة من الحجر تزدان بزخارف محفورة ، وتحفظ مناكب المعقود ببقايا زخارف قوامها شبكات مربعة ومسددة حمراء اللون .

وقد عثر على بقايا سنجات عقد المدخل إلى البلاط الأوسط بين الأطلال ، وكلها مغطاة بزخرفة من التوريقات محفورة في الكتل الحجرية التي تتألف منها السنجات بخلاف الكسوات التي تغطي الجدران . كذلك عثر في الأطلال

(١) Castejon, Nuevas excavaciones, pp. 147 - 154, Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 82 - 90, Torres Balbas, la mezquita de Cordoba y Madinat al-zahra, p. 149 .

(٥) راجع ما سبق ص ٢٤٠ وما يليها من الجزء الأول .

والأنقاض المتراكمة على قواعد وتيجان أعمدة وسواري مهشمة من الرخام ، بعضها يميل إلى الزرقة وهو نوع من الرخام اختصت به جبال قرطبة ، وبعضها وردي اللون من قبرة ، هذا بالإضافة إلى منابت عقود وسنجات بعضها أملس أحمر اللون وبعضها يزدان بزخارف محفورة تشبه إلى حد كبير زخارف الزيادة الحكيمية في المسجد الجامع بقرطبة .

ويبدو أن هذا المجلس قد تعرض لحريق ، تتجلى آثاره في طبقة الرامد السميكة والفحوم والأحجار المكسدة التي نلحها في الأنقاض المكسدة على أرضية المجلس ، وفي جميع أراضي المجالس التي تم الكشف عنها .

وكان سقف هذا المجلس والمجالس الأخرى من أعواد الصنوبر (جوائز وسماوات) ، فقد احتفظت بعض المواضع الأخرى يجدران أكثر ارتفاعاً تبدو فيها بوضوح الجوفات التي كانت تثبت فيها الجوائز ، وكانت الأسطح منشورية الشكل مغطاة بالقراميد المقعرة التي يميل لونها إلى الصفرة ، وكانت مياه الأمطار تتجمع بين الأسقف المائلة في قنوات تصب في ميازيب عثر على واحد منها ، وهو أشبه بالكابولي المزود باللفائف . أما قواعد الأعمدة وتيجانها والدعائم الرخامية فتزدان بنقوش كتابية بارزة ، من أقدمها نقش نطالع فيه اسم عبد الرحمن الناصر ، واسم فتاه شنيف ، وعبارة نصها عمل سعد ، سنة ٣٤٢ هـ^(١) . ويضيف العالم الأثري الإسباني الأستاذ جومث مورينو إلى هذه الأسماء اسم مظفر قرأه على تاج كورنثي الطراز وتاريخ سنة ٣٤٥ هـ ، كما يذكر أن هناك دعامة تحمل تاريخ سنة ٣٤٤ هـ مسجل عليها اسمان لرخامين أو نقاشين هما على التعاقب بدر ونصر ، واسم ثالث غير واضح ثم أسماء فتح وأفلح وطارق ومحمد بن سعد وسعيد الأحمر ورشيق ، وكلهم من فتيان الخليفة

Ocana Jimenez, Inscripciones arabes descubiertos en (١)
Madinat al - Zahra en 1944, al - Andalus, vol. X, 1945, pp. 154-159

وخدمه (١) . وقد سبق أن طالعنا أسماء بدر ونصر وطارق وفتح في النقش الكتابي بالأطر الواقعة بين مساند جوفة المحراب يجمع قرطبة (٢) . كذلك عثر على بقايا اللوحة التأسيسية لمجلس عبد الرحمن الناصر (المجلس الشرقي) وهي من الحجر الجيري نقش عليها النص بخط كوفي مزهر ، وفيها نطالع اسم عبد الرحمن الناصر وتاريخ البناء سنة ٣٤٥ .

بج - قصور الحكم المستنصر

تحدثنا فيما سبق (موضوع حفائر الزهراء) عن بنائين كبيرين يلتصقان بالسور الشمالي لمدينة الزهراء وكلاهما من عصر الحكم المستنصر ، كما تحدثنا عن الأحودور الأيمن الذي يصل إلى عدد من الأبنية يرجع تاريخها إلى عصر عبد الرحمن الناصر ، أما الأحودور الأيسر فيستمر مسافة قصيرة متكئاً على الجدار الداخلي من السور ، ثم يعبر من خلال باب ، ويعود بعدئذ إلى الانقسام إلى فرعين : فرع يستمر متصلاً بالسور ويمر بستة أبواب تفتح ثلاثاً ثلاثاً في اتجاه مضاد ، والثاني يجتاز ثلاث منحنيات تتخللها أربعة أبواب وينتهي بسقيفة شمالية (أو برطل) عرضها ١٨ و ٥ متراً. تطل على بهو فسيح مربع الشكل تقريباً يبلغ طوله ٩٠ و ٥٢ متراً وعرضه ٣٠ و ٤٩ متراً . ويمتد فيما بين هذا البهو والسور إلى الشرق من الأحودور بناء يقع على مسافة تبعد نحو ٧٠ متراً إلى الشمال من المجلس الذي وصفناه فيما سبق وأشارنا إلى أنه من بناء الخليفة عبد الرحمن الناصر . ويزيد مستوى ارتفاع أرضية البناء المذكور عن مستوى ارتفاع أرضية مجلس الناصر بما يقرب من عشرة أمتار ، ويتألف من سقيفة أو برطل عرضها ٩٠ و ٦ متراً لعلها كانت تطل على البهو بخمسة عقود ، ومن دهليز

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniac. p. 84 والترجمة العربية لهذا الكتاب

ص ١٠٣ .

(٢) راجع ص ٤٠١ من الجزء الأول .

يؤدي الى قاعة كبرى ، ثم بناء صغير يقوم غرباً يشتمل على ثلاثة أبواب صغيرة وغرف محيطة به ، وتفتح السقيفة أو البرطل على مجلس فسيح يبلغ طوله ٣٨,٨٨ متراً وعرضه ٢٠ متراً بواسطة خمسة أبواب أعمدتها ملتصقة بمعضادات الأبواب . وكانت لهذه الأبواب مصاريع خشبية ما تزال قواعدها التي تدور عليها قائمة في مواضعها . وينقسم المجلس إلى خمس بلاطات عمودية على الجدار الشمالي ، يبلغ اتساع البلاط الأوسط منها ٧,٤٦ متراً في حين يبلغ اتساع كل من البلاطات الأخرى ٦,٨٢ متراً، ويتصل البلاطان المتطرفان منها بما يليهما عن طريق ثلاثة عقود تقوم على أربعة أعمدة في كل جانب من الشمال والجنوب . ويؤزر جدران هذا المجلس إزار ارتفاعه ٥٨ سم ، مدهون باللون الأحمر . أما الجدران فيبلغ سمكها ١,٠٦ متراً ، ويرجح الاستاذ توريس بلباس - استناداً على نتيجة البحث الأثري في بقايا الجدران الذي أسفر على أنها كانت أصلاً عارية من الزخارف - أن هذا المجلس كان مخصصاً لأعمال إدارية^(١).

كذلك يرجع الى عصر الحكم البناء الذي بدأت الحفائر الأثرية تكشف عنه في سنة ١٩١١ بأقصى الطرف الغربي من الزهراء ، إذ عثر فيه على قاجي عمودين منقوش عليهما اسم الحكم المستنصر ، يشبهان إلى حد كبير تيجان أعمدة أخرى تحمل تاريخ سنة ٣٦٤ هـ . ولم يحفظ من أطلال هذا البناء إلا قسمه الشمالي الذي يكاد يلاصق سور المدينة الشمالي المزدوج^(٢) . ويفصل القصر عن السور المذكور ممر ضيق تعترضه أبواب ، يفضى إلى غرف موزعة بانتظام . ومعظم أرضيات الغرف المذكورة مكسوة بقراميد الآجر المرصع بالأحجار وقطع الآجر الحمراء ، في أشكال هندسية بلغت حداً كبيراً من الإتقان والروعة^(٣) .

(١) Torres Balbas, Arte His. Mus., p. 459 . والظاهر أنه كانت مخصصة لأحد الدواوين .

(٢) Gomez Moreno, op. cit. ، وراجع الترجمة العربية ، ص ١٨١ .

(٣) Torres Balbas, la Mezquita de Cordoba y Madina Al-Zahra, (٣) p. 148 .

ولقد أسفرت الأبحاث الأثرية في أطلال هذا القصر عن كشف بقايا عقود زخرفية من نوع حدود الفرس ، وبنيات ، وأشرطة مقوَّسة ، وسنجات حجرية حُفرت فيها جميعاً زخارف من التوريقات قوامها ورقة الأكشس وسعف النخيل (١) ، كما عثر على قطع حجرية تزدان بزخارف هندسية وطرز من النقوش الكتابية ، يحمل بعضها اسم الحكم . ويرجح الأستاذ جومث مورينو أن هذا القصر خصص لسكنى هشام المؤيد الذي حُجر عليه المنصور ابن أبي عامر ، ويعتمد في ذلك على أن هذا القصر يقع في موقع ناء من المدينة ، بعيداً عن بقية قصور الخلافة ، وفي موضع يصعب الوصول إليه (٢) .

* * *

ويمكننا أن نستنتج مما أسفر عنه البحث الأثري في الزهراء ، أن قصور هذه المدينة تتبع نظامين : الأول نظام الدار التي تقوم حول فراغ مركزي يتمثل في الصحن الذي تتوزع حوله جميع الغرف والقاعات ، والثاني نظام القصر الذي يتألف من بلاطات أو أروقة متوازية ، وتفصلها فيما بينها صفوف من العقود القائمة على أعمدة ، على النحو الذي نلاحظه في بلاطات جامع قرطبة والجامع الأقصى في بيت المقدس وعدد كبير من المساجد المغربية والأندلسية . والنظام الأول متأثر بنظام المسجد (٣) ، أما النظام الثاني فيعتقد الأستاذ لامبير أنه متأثر بنظام الكنائس ذات التخطيط البازيليكي (٤) .

(١) يتفق أسلوب هذه الزخارف مع أسلوب الزخرفة في زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة (راجع التفاصيل في جومث مورينو ، ص ١٨٦) .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

(٣) راجع في ذلك : أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢ ، العصر الأيوبي ، ص ١٦٧ - ١٩٢ .

(٤) Elie Lambert, les Mosquées de type andalou, al-Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1946, p. 275.

(٢)

آثار قرطبة الأخرى

١ - منية العامرية

قبل أن يشرع فيلاسكث بوسكو في إجراء حفريات الأثرية في سنة ١٩١٠ ، استطاع أن ينفذ التراب عن أطلال أخرى تقع على سفح جبل قرطبة على بعد تسعة كيلومترات غربي قرطبة وثلاثة فقط الى الغرب من مدينة الزهراء ، في ضيعة تعرف باسم فونتانا دي لاجورجوسا ، وفي موضع يطلق عليه اليوم اسم موروكيل . إلا أن صاحب الضيعة قام للأسف بهدم هذه الأطلال كلها تقريباً في سنة ١٩٢٦ ليقيم على أسسها داراً جديدة . وكان فيلاسكث قد ظن بادئ ذي بدء أن آثار هذه المنية هي نفس آثار مدينة الزهراء ، ولكنه نسبها بعد ذلك الى العامرية التي ابتناها ابن أبي عامر قبل شروعه في تأسيس الزهراء في سنة ٣٦٨ ، وحوطها بالجنان والبساتين ، ثم أدار عليها سوراً منيعاً .

وكان قصر العامرية يتكون من قاعات ثلاث متوازية ، يحيط بها من الشرق والغرب غرف مربعة تتوزع ثلاثة في كل من الجهتين ، وفي الشمال الشرقي يقوم بناء آخر ملاصق لهذا البناء ينقسم بدوره الى غرف صغيرة لعلها كانت مرافق أو ملحقات بالقصر ، وكان يتصل بهذه الغرف بركة كبيرة طولها ٤٩,٧٠ متراً ، وعرضها ٢٨ متراً ، وعمقها ٣ أمتار ، أقيمت كلها من الحجر (١) .

Velasquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiyya; pp. 18 - 33, (١)
(والترجمة العربية ص ١٩٤) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, pp. 166, 171
Torres Balbas, Arte Hispano Musulman, pp. 594 - 597 .
وراجع وصف المنية العامرية في ص ٢١٤ بالجزء الأول من هذا الكتاب .

ب - المآذن الباقية

تبع نهاية حركة الاسترداد الاسبانية وسقوط دولة الإسلام بالأندلس توزيع سكاني جديد رافقه توزيع للهبات المقارية شملت العدد الأعظم من المساجد والحمامات والقصور والخوانيت وغير ذلك من المنشآت الاسلامية ، وأدى ذلك إلى تدمير العديد من هذه الآثار ذات الطابع الاسلامي والإقبال على بناء منشآت جديدة تتميز بأساليب تتناسب مع طابع العصر .

وعلى هذا النحو شملت حركة التدمير معظم المساجد ، أما المساجد التي لم تتعرض لهذه الحركة فقد تحولت إلى كنائس محلية ، خربت مآذنها أو تحولت الى أبراج للنواقيس ، وهدمت بيوت الصلاة فيها وأقيمت في مواضعها كنائس من الطراز الروماني أو القوطي .

ولحسن الحظ تبقت بقرطبة ثلاثة أبراج لكنائس كانت في الأصل مآذن لمساجد (١) ، أولها مثذنة مسجد هدمه القشتاليون وأقاموا على أساسه كنيسة تعرف اليوم بكنيسة دير سانتا كلارا . هذه المآذنة مربعة القاعدة ، يبلغ طول كل جانب منها ٧٠ و٤٠ متراً ، ويتوسطها من الداخل نواة مركزية مربعة الشكل كذلك أشبه بالدعامة ، يدور حولها فيما بينها وبين جدار المثذنة درج ،

(١) فيما يختص بالمآذن الباقية بقرطبة ارجع الى المراجع الآتية :

Torres Balbas, la primitiva mezquita mayor de sevilla, al-Andalus vol. XI, fasc. 2, 1946, pp. 425 - 436 .

عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٤٠٩ - المساجد والقصور في الأندلس ، ص ٤٨ . وبالإضافة إلى ما ذكرناه من أسماء المساجد (الجزء الأول ، ص ١٨٠) لدينا من أسماء المساجد القرطبية ما يلي : مسجد الأسوار بن عقبة ويقع في الزقاق الكبير بقرطبة - ومسجد أبي هيثم بالربض الغربي (المقتبس لابن حيان ، نشر الدكتور مكي ، ص ١٩٣) - ومسجد حامد الزجالي (نفس المصدر ، ص ١٧٥) - ومسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة (طوق الحمامة ، ص ٢١٢ وابن جلجل ، ص ٩٤) - ومسجد أبي علاقة (ابن الفرسي ، ترجمة رقم ٦٦٨ ، ص ٢٢٣) - ومسجد الحرثاني بقرطبة (ابن جلجل ، ص ٩٤) - ومسجد طاهر (ابن جلجل ، ص ٩٧ ، ١٠٨) .

يرتقي بواسطته الصاعدون الى سطح المئذنة . والبناء من الحجر يتناوب في صفوفه كتلة موضوعة طولاً وكتلتان أو ثلاثة من جوانبها ، وأوجه المئذنة ملساء ، تنفتح فيها بعض المنافذ الضيقة لإدخال الضوء ، وتنتهي من أعلى بشرفات . ويعلو مدخل المأذنة عقد مفرطح مخفف للضغط ، بأدناه عتب من سنجات ^(١) . ويستدل الأستاذ توريس بلباس من طريقة البناء على أن تاريخ هذه المئذنة يرجع إلى أواخر القرن العاشر الميلادي أو أوائل القرن الحادي عشر ^(٢) ، وإن كانت تشبه كثيراً من حيث طريقة البناء ومن حيث النواة المربعة مئذنة جامع القرويين بفاس التي تم تشييدها في ربيع الآخر سنة ٣٤٥هـ على يدي الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي عامل الخليفة عبد الرحمن الناصر علي فاس ^(٣) ، ومع ذلك فإن الأستاذ جومث مورينو يقارنها ببرج سان خوسيه الذي كان يوماً ما مئذنة لجامع المرابطين بقصبة غرناطة ^(٤) ، ويرجع تاريخها إلى أواخر القرن العاشر ^(٥) .

وعلى الرغم من اختلاف العلماء حول تأريخ بناء هذه المئذنة ، فمن المعتقد أنها تنتمي إلى فترة الازدهار العمراني في قرطبة زمن الخلافة ، فهي الفترة التي اكتظت فيها قرطبة بالمساجد الصغيرة إلى حد أن عددها بلغ نحو ١٨٣٦ وفقاً لما ذكره ابن غالب نقلاً عن ابن حيان أو ٣٠٠٠ وفقاً لرواية ابن عذارى ^(٦) ، بينما لا تشير المصادر العربية إلى مساجد أخرى أسست زمن الفتنة أو في عصر الطوائف أو في عصر دولتي المرابطين والموحدين ، بل ليس

(١) Gomez Moreno, *Ars Hispaniae*, p. 174 والترجمة العربية ص ٢٠٥، ٢٠٤

(٢) Torres Balbas, *Arte Hisp. Mus.* pp. 605 - 606

(٣) الجزناتي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٩٢٢ ص ٣٧ ، ٣٨

المغرب الكبير ، ج ٢ : المغرب الإسلامي ، ص ٧٥٦ ، ٧٥٧

(٤) Gomez Moreno, *op. cit.* p. 174 والترجمة العربية ، ص ٢٠٥

(٥) نفس المرجع ، ص ٨٥

(٦) راجع الجدول المنشور ص ١٨٤ في الجزء الأول من هذا الكتاب

هناك ما يشير إلى حركة إنشاء مساجد بعد الفتنة ، فقد أثرت الفتنة على عمران قرطبة ، وطحنت رحاها ، فانكش هذا العمران بنقص عدد سكانها وتخريب معظم ديارها (١) ، ولا يجوز والحال كذلك أن يفكر ولاية قرطبة في العصر الاسلامي المتأخر في بنيان مزيد من المساجد في مدينة فقدت مكانتها كحاضرة للأندلس ، وانحسر عمرانها بخروج الكثير من أهلها عنها .

وأياً ما كان تاريخ بناء المئذنة المذكورة ، فأغلب الظن أنه كان يعلو برجها الأدنى الذي وصل إلينا ، برج مربع القاعدة أصغر حجماً ، ينتهي من أعلى بقبة تتوجها تقاحات مركبة في سفود بارز على النظام الذي كانت عليه تقاحات مئذنة قرطبة .

وبقرطبة مئذنة أخرى أقدم عهداً يمكننا أن نرجع تاريخ بنائها إلى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، هي البرج القائم الآن في كنيسة سان خوان ، وقد تحولت هذه المئذنة إلى برج للنواقيس بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين ، شأنها في ذلك شأن غيرها من مساجد الأندلس . ومئذنة « سان خوان » إذا جاز لنا أن نسميها بهذا الاسم بناء متواضع مربع الشكل ، يبلغ طول ضلعها ٣,٧٠ متراً ، وارتفاعها من مستوى سطح الأرض حتى السطح الذي كان يقوم عليه بيت المؤذنين أو القبة العليا ثمانية أمتار . وتخطيط المئذنة من الداخل مستدير ، إذ تتوسطها نواة مركزية أسطوانية يدور حولها درج لولبي . أما من الخارج فجدرانها من صفوف حجرية من نوع رديء تآكلت طبقة السطحية بفعل الرطوبة ، ونظام البناء فيها يقوم على نظام « الآدية والشناوي » أي على طريقة تعاقب الكتل الحجرية التي يتكون منها البناء طولاً وعرضاً بمعنى أن تتناوب كتلة توضع من وجهها طولاً مع كتلة أو كتلتين وفي بعض الأحيان ثلاثة توضع عرضاً من جوانبها . وتتماز هذه المئذنة الصغيرة بأن كل وجه من أوجهها الأربعة يزدان بفتحة رشيقة مزدوجة تمثل

(١) راجع الصفحات ١٠٨ - ١١٨ من الجزء الأول .

عقدين توأمين على هيئة حدود الفرس أي تجاوزت نصف الدائرة ، اقتصرت
 سنجاتها على ثلثها الأعلى ، والسنجات في هذه العقود ثلاثة : سنجة وسطى من
 الحجر تؤلف مفتاح العقد و سنجان تتألف كل منها من ثلاثة قوالب من الحجر
 الأحمر تطوقان السنجة الوسطى من اليمين واليسار . ويستند كل عقدين توأمين
 في الوسط على عمود مركزي في كل من الواجهات الأربعة ، ولكن لم يتبق
 للأسف من هذه الأعمدة إلا عمود واحد رشيق يحمل تاجاً من الطراز الكورنثي
 هو التاج الوحيد الذي تبقى في المئذنة بواجهتها القبليّة ، وينتمي هذا التاج إلى
 مجموعة تيجان الأعمدة الأربعة التي يقوم عليها عقد المحراب بالمسجد الجامع
 بقرطبة ، وتنسب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وزخارفها تقوم على أساس
 الفروع النباتية المزدوجة . أما الفتحات المعقودة بأوجه المئذنة فكلها صماء
 مغلقة ما عدا فتحة الواجهة القبليّة فهي نافذة ^(١) .

والفتحات المعقودة بالمئذنة لا تحوطها اليوم طرر أو تربيعات مستطيلة
 الشكل ، وربما كان يطوقها في الأصل طرر بارزة على النحو الذي نراه في
 جميع الآثار القرطبية ، ثم تساقطت بمرور الزمن وبفعل عوامل الجو وتأثير
 الرطوبة . وكان يعلو العقود التوأمية في كل من الواجهتين الشماليّتين بئكة
 صغيرة (أي صف من العقود المتصلة) بارزة تتألف من سبعة عقود صغيرة على
 شكل حدود الفرس تقوم على ثمانية أعمدة من الرخام قوطية المظهر يبدو أنها
 اتخذت من أبنية قديمة ، وللأسف لم يتبق في الوقت الحاضر من هاتين البائكتين
 إلا آثار تدل على أنها كانت تعلو بدن المئذنة . ويبدو أن مئذنة «سان خوان»
 كانت تنتهي من أعلى جدرانها بشرفات مسننة من نوع شرفات مئذنة سانتا
 كلارا ^(٢) ، ولكن لم يبق لها أي أثر في يومنا هذا . وتصميم المئذنة بوجه
 عام يشبه تصميم المئذنة الثالثة بقرطبة أعني بها برج كنيسة سانتياجو ، كما
 يشبه إلى حد كبير تصميم مئذنة جامع ابن عدبس الذي أسسه القاضي عمر

(١) جومث موريانو ، ص ٥٨ ، *Torres Balbàs, Arte Hisp. Mus.*
 pp. 402 - 403.

(٢) نفس المرجع .

ابن عدبس في إشبيلية في سنة ٢١٤ هـ في إمارة عبد الرحمن الأوسط ، ثم تحولت المئذنة إلى برج لكنيسة سان سلفادور ، هذا التشابه الكبير بين التصميمين ، بالإضافة إلى التشابه الواضح بين التاج الكورنثي المتبقي بمئذنة سان خوان مع نظائره في محراب جامع قرطبة يعد قرينة ترجح الاعتقاد بان تاريخ بنيان مئذنة سان خوان يرجع إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري .

أما المئذنة الثالثة الباقية بقرطبة فهي المئذنة التي تحولت إلى برج النواقيس بكنيسة سانتياجو بالجانب الشرقي من قرطبة . وتتميز هذه المئذنة بقاعدتها المربعة من الخارج ونواتها الأسطوانية في الداخل وبالدرج الحلزوني الذي يدور بينها ^(١) .

ج - الحمامات

تعتبر الحمامات العامة من أهم المنشآت المدنية في المدينة الإسلامية لكثرتها وتعددتها من جهة ، ولارتباطها الوثيق بالطهارة المتأصلة بعمق في الإسلام من جهة أخرى ، وقد تميزت قرطبة بوجه خاص بكثرة حماماتها حتى قيل أن عددها بلغ ٣٠٠ حمام ، وقيل أن هذا الرقم كان خاصاً بحمامات النساء ^(٢) ، وذكر ابن حيان أن عدد حمامات قرطبة بعد أن تناهت في الاتساع في عصر المنصور بن أبي عامر بلغ ٩٠٠ حمام ^(٣) . ويذكر المقرئ في موضع آخر أن عددها بلغ في قرطبة ٩١١ حماماً ^(٤) . وفي موضع ثالث ٧٠٠ حمام ^(٥) . أما ابن غالب الأندلسي فيذكر نقلاً عن ابن حيان أن عدد حماماتها المبرزة للناس سبعمائة حمام ونيف

(١) . Torres Balbas, op . cit. pp. 402, 403 .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٦ (طبعة بيروت) .

(٣) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٧٩ (طبعة محي الدين عبد الحميد) .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٨ .

وذلك عند انتهاء كالمها (١) . وقد أطلق اسم أحد حمامات قرطبة على ريبض يعرف باسم ريبض حمام الإليبري (٢) (أو اللبدي في المقتبس) (٣) .

ولم يبق من الحمامات الكثيرة التي كان يحتفظ بها العمران القرطبي سوى آثار حمامين : الأول صغير المساحة ، عثر عليه في سنة ١٩٠٣ في جوف الأرض في المنطقة المعروفة بساحة الشهداء Compo de los Martires داخل نطاق القصر الخلافي بقرطبة . وكانت غرفة المدخل مزودة بجوذين للاستحمام وتسقفها قبوة متعارضة ، وبلي هذه الغرفة غرفتان تعلوهما قبوتان نصف أسطوانيتين مزودتان بمضاوي نجمية الشكل من ثمانية رؤوس . والغرفة التالية تنتهي في كل من طرفيها بعقدين منفوخين توأمين يرتكزان على دعامتين من الآجر مشنقي الشكل ، وكان اتساع كل من الغرف الثلاثة أقل من مترين . وبينما كانت الجدران من صفوف حجرية منتظمة الشكل ، كانت الأرضيات مكسوة ببلوحات الرخام . وتتصل الغرفة الأخيرة - عن طريق درج - بقاعة فسيحة مربعة الشكل يبلغ طول كل جانب منها ٨ أمتار ، ويحيط بهذه القاعة ممر تحدده أربع دعائم ركنية من الحجارة تلتصق بها وتوزع بينها أعمدة يبلغ عددها ٢٨ عموداً . ويعلو هذه القاعة قبوة مخروطة بمضاوي على شكل نجوم وزخارف أخرى ، دهنت جميعها بزخارف حمراء اللون قوامها توريقات على أرضية بيضاء . ويحتفظ متحف الآثار الأهلي بمدريد ببعض آثار الزخارف التي تم الكشف عنها داخل الحمام ، منها عقد زخرفي ثلاثي الفصوص من الجص ، ومنها منابت لعقدين زخرفيين آخرين ، كما عثر على قطع من الحجارة مزينة بزخارف على شكل شرفات صغيرة مسننة على أرضية حمراء ، وقطع جصية عليها كتابة كوفية . ويغلب على الظن أن هذا الحمام - من أسلوبه الزخرفي - يرجع إلى عصر الحكم المستنصر (٤) .

(١) ابن غالب الأندلسي ، قطعة من فرحة الأنفس ، ص ٢٧ .

(٢) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، ص ١٠٣ - المغربي ج ٢ ص ١٣ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق الدكتور الحجبي ، ص ٤٦ .

(٤) Torres Balbas, op. cit. p. 617

وتقع بقايا الحمام الآخر بالقرب من المسجد الجامع ، إلى الجنوب الشرقي منه ، وهي لا تعدو بلاطين مقبيين بقبوتين نصف أسطوانيتين تتخللهما مضامى نجمية الشكل ، طول أحدهما ١٠,٤٠ متراً وعرضه ٣,٥٠ متراً ، وطول البلاط الثاني ١٣,٧٠ متراً وعرضه ٤,٥٠ متراً. ويتوزع هذان البلاطان في البيتين رقمي ١٦،١٨ بشارع كارا . ويمكننا إرجاع تاريخ بناء هذا الحمام من واقع نظام البناء بالجدران والقبوات ومن شكل الكتل الحجرية وأحجامها إلى عصر عبد الرحمن الناصر . وقد تعرض هذا الحمام لبعض التغيرات في نظام بنائه وفي عقودة في العصر المسيحي^(١) .

د - القناطر في الطريق ما بين قرطبة والزهراء

تتميز الأندلس بكثرة أنهارها التي تشق مدنها مثل وادي تاجه ووادي آنه والوادي الكبير ووادي لكه ووادي سليط، لهذا كان طبيعياً أن يهتم أمراء الأندلس بإقامة القناطر على هذه الوديان^(٢) . وفيما يتعلق بقرطبة ، فقد كان يصلها بمدينة الزهراء طريق مرصوف واستلزم الأمر أن يزود هذا الطريق بقناطر عندما تعترضه جداول ونهيرات لتسهيل العبور عليها ، وقد تبقت من هذه القناطر اليوم قنطرتان وآثار قناطر أربعة أخرى . أما القنطرة الأولى الباقية فتتألف من ثلاثة أقواس ترتفع على نهر كانتارناس Cantarranas ، وأما الثانية فأكبر قليلاً من الأولى ، وتعلو وادي ياطه Guadiato وعرة هاتين القنطرتين منفوخة متجاوزة تقتصر سنجاتها على الثلث الأعلى وتتميز هذه السنجات بطولها ، ونظام البناء في الجدران والأكتاف التي تحمل العقود يتبع

Ibid, p. 618 (١)

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المهارة المدنية في الأندلس ، دائرة معارف الشعب عدد ٦٤ .

ص ١٤٨ - ١٤٩ .

نظام « الآدية والشناوي » أي تتناوب فيه كتل الحجارة طولاً وعرضاً بمعنى أن توضع كتلة من وجهها وكتلتين من جانبيها على التعاقب (١) .

أما قنطرة قرطبة التي سبق أن تحدثنا عنها (٢) فيبلغ طولها ٢٢٣ متراً ، وتقوم على ١٦ عقداً تحملها ١٧ ركيزة ضخمة نصف اسطوانية تتوجها من أعلى كسوة نصف مخروطية (٣) . ويغطي القنطرة اليوم كسوة من الملاط كسيت به سنة ١٩١٢ أخفى معالمها الأثرية التي سجلتها الصور القديمة والدراسات التي أجراها الأستاذ جومث مورينو وتوصل فيها إلى رؤية نظام البناء فيها قبل أن تكسي بالملاط . ويذكر الأستاذان جومث مورينو وتوريس بلباس أن الجزء الذي يقع قريباً من برج القلعة الحرة كان أقل أجزاء القنطرة تعرضاً للأضرار الناشئة من مدود النهر ، ولذلك فما يزال يحتفظ بعقوده الرومانية القديمة فيما بين العقدين الثاني والثالث مع جزء من هذا المقد الأخير (٤) .

هـ - الأسوار

قنع المسلمون منذ الفتح بالأسوار الرومانية التي كانت تحيط بمدينة قرطبة ، وكانت هذه الأسوار مفتوحة من الجهة الغربية كما سبق أن أشرنا إليه في القسم التاريخي (٥) . وكان لا بد للسمح بن مالك الحولاني والي الأندلس من قبل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أن يفكر جدياً في ترميم هذا السور

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 75 ، والترجمة العربية ص ٨٥ .

(٢) راجع ما كتبناه عنها في الجزء الأول صفحات ١٩٧ - ٢٠١ .

(٣) Enciclopedia Espasa Calpe, Art. Cordoba, p. 566 .

(٤) Gomez Moreno , Ars Hispaniae, p. 21 ، والترجمة العربية ص ١٩ .

(٥) راجع صفحات ٢٤ - ٢٧ من الجزء الأول .

حتى لا تصبح قرطبة - الحاضرة - مدينة مفتوحة للداخلين إليها ، ولكن تنفيذ هذه الفكرة لم يكن ليتم دون أن تعترضه يومئذ مشكلة رئيسية كانت لازماً عليه حلها وأعني بها مشكلة ترميم قنطرة قرطبة التي تربط المدينة بربضها القبلي الواقع على الضفة اليسرى من الوادي ، وكان إصلاحها أمراً حيوياً قد يكون أولى بالاهتمام من المشروع الأول ، لتيسير الاتصال بين قرطبة ونواحيها القبلية . والظاهر أن كلا المشروعين كان يتوقف تنفيذه على توفير كميات من صخور البنيان التي يستلزم إحضارها نوعاً من الاستقرار السلمي أو الحضاري وهو ما لم يكن يعرفه الفاتحون حتى ذلك الحين ، إذ انصرفوا إلى تنظيم الفتح ، وإلى التطلع نحو مزيد من الجهاد فيما وراء جبال البرقات . وهكذا لم يكن يتوفر لدى السماح بتدبير الأحجار اللازمة للمشروعين معاً ، وأصبح يتعين عليه أن يرمم إما القنطرة من حجر السور أو السور من حجر القنطرة إلى أن يتنبأ له فيما بعد أن يستقطع الأحجار اللازمة لأعمال الترميم ، وأشار عليه الخليفة عمر بن عبد العزيز بأن يرمم القنطرة - التي كانت وسيلة حيوية للاتصال بين قرطبة وشقندة - بحجارة السور الغربي المتخرب . فرمم السماح قنطرة قرطبة ، ثم شرع في جبر ما تثل من السور باللبن - مؤقتاً - ولكن هذه البنية الجديدة كانت تبدو ضعيفة بالمقارنة بالأسوار الرومانية المبنية من الحجر ، ولم يلبث القطاع الذي بناه السماح بسور قرطبة أن تهدم من جديد ، كما تفتحت المدينة من الجهة الشرقية بعد أن امتد العمران إلى هذه الناحية ، وكان طبيعياً أن تهدم الأسوار بسبب التوسع العمراني ، ولتسهيل الاتصال بين جانبي قرطبة الشرقي والغربي ، أما ما تخلف من أحجار السور المتهدم فقد استخدمها أهل قرطبة في بناء منشآتهم المدنية والدينية وتحولت مواضع الأسوار المتهدمة إلى شوارع فسيحة .

وظلت مدينة قرطبة مدينة مفتوحة إلى أن نجح الأمير عبد الرحمن الداخل في إحياء دولة بني أمية بالأندلس ، واضطر - بسبب الفتن والثورات

المضطربة في أنحاء الأندلس - إلى ترميم سور قرطبة على أساس السور الروماني القديم، وتم ذلك في سنة ١٥٠ هـ، وفي ذلك يقول صاحب كتاب فتح الأندلس: « وفي سنة خمسين ومائة أمر الإمام ابن معاوية ببناء سور قرطبة ، فبنى ما كان جبر منه بالبن ، إذ بنيت القنطرة من صخره ، فكل بناءؤه حسب ما أمر به » (١) . وأغلب الظن أنه بناء بالحجارة كالشأن في منشأته الأخرى بقرطبة (٢) ، وكما فعل عبد الرحمن الأوسط بعد ذلك عندما عهد إلى عبد الله ابن سنان أحد موالى بني أمية بالشام ببناء سور إشبيلية بالحجر (٣) وذلك بعد أن أشار عليه عبد الملك بن حبيب أثر محنة أهل إشبيلية بغزوة النورمان بأن بنيان سور إشبيلية أوكد عليه من بنيان الزيادة في جامع قرطبة (٤) فبناه سنة ٢٣٠ .

وكان سور قرطبة يتخذ شكل متوازي أضلاع منتظم تقريباً ، قطاعه الجنوبي يمتد بمحذاء الضفة اليمنى من الوادي الكبير مسافة تبلغ نحو ٨٠٠ متراً إلى يمين القنطرة ويسارها ، وكان قطاعه الغربي يمتد نحو الشمال الغربي مسافة تصل الى ١٢٠٠ م ، ثم ينحرف السور الغربي بعد ذلك في اتجاه الشرق ثم يعود الى الإثناء نحو الجنوب ، وكان محيطه لا يتجاوز على هذا

(١) فتح الأندلس (لؤلف مجهول) نشره دون خواكين جنثالث ، الجزائر ١٨٨٩ ص ١٩ كذلك يتفق أبو الفداء وابن خلدون على هذا التاريخ (انظر المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ ج ٣ ، ص ٩ - ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ص ١٢١ - المقري ، ج ١ ص ٣١٣) أما التويري فيرجع أعمال عبد الرحمن الداخل الى سنة ١٤٩ .

(٢) وصف ابن حوقل سور قرطبة فذكر أنه من حجارة فيقول : « وهي مستديرة حصينة السور وسورها من حجر » (ابن حوقل ص ١٠٨) .

(٣) ابن القوطية ، ص ٦٥ - البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب « المسالك والممالك » تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١١٢ - المحيري ، الروض العطار ، ص ٢٠ .

(٤) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الدكتور الحجي ، ص ٢٤٤ .

النحو ٤ كيلومترات بحيث استطاع ابن حوقل السير حوله في قدر ساعة (١)، والمقصود بمحيط قرطبة في هذه الحالة محيط المدينة الوسطى أو القصبة لأن قرطبة اتسعت في عصر الخلافة إتساعاً كبيراً وتألفت حولها أرباض بلغت ٢١ ربضاً وفقاً لإحصاءات المؤرخين العرب ، كانت جميعها غير مسورة ، فلما هاجت الفتنة البربرية ، وأصبح الناس لا يأمنون على أموالهم وأرواحهم ، أمر المهدي بن عبد الجبار ووضح العامري بإنشاء سور وخندق يحيط بالأرباض جميعاً (٢) ، وأصبحت المدينة بأرباضها تمتد من الشرق الى الغرب مسافة تقرب من ٣ أميال (٣) ، ومن الجنوب الى الشمال ميلاً واحداً ، وأصبح محيط أسوار قرطبة بأرباضها في زمن البكري ٣٠ ألف ذراع (٤) أي ما يقرب من ١٥ كيلو متراً .

وقد أشرنا فيما سبق الى أبواب المدينة والى أسمائها المختلفة (٥) ، كما أشرنا الى أعمال الخليفة عبد الرحمن الناصر لتدعيم النظام الدفاعي بقرطبة ، فذكرنا أنه ابتني في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣) لهذه الأبواب أبواباً داخلية توازيها حتى يتمكن البوابون من تثقيفها ، وإحكام إغلاقها ومضاعفة الحراسة لها ، وكان ذلك ابتكاراً معمارياً في فن البناء الحربي في عصر الخلافة (٦) .

وظل سور قرطبة وأرباضها موضع اهتمام الأمراء والولاة حتى أعاد

(١) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٣ ص ٩٩ - ابن غالب ، ص ٢٧ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٣٥ - المقرئ ، ج ٢ ص ١٤ ،

(٣) الإدريسي ، ص ٢٠٨ .

(٤) البكري ، المصدر السابق ، ص ١٠٠ . ويذكر العذري أن دور قرطبة ٣٣ ألف ذراع (العذري ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، ص ١٢٢) . أما ابن غالب فجعل ذراع محيط قرطبة بأرباضها ٢٣ ميلاً (ابن غالب ، ص ٢٧) .

(٥) راجع الجزء الأول ، ص ١٧٢ - ١٧٤ .

(٦) راجع صفحة ١٧١ من الجزء الأول .

المرابطون - في عهد علي بن يوسف - بناء سور الشرقية (١) ، وذلك عندما تعرضت الأندلس لغزوة الفونسو المحارب سنة ٥١٩ التي اخترق فيها كل بلاد الأندلس حتى غرناطة وسواحل البحر المتوسط (٢) . وفي عصر دولة الموحدين تجدد بناء سور قرطبة ، واستخدم في عمارته الطابية ، وهو تراب مختلط بالكس والنورة وقطع الحجارة ، وأقيم أمام السور حزام براني أو ستارة أمامية من النوع الذي نشاهده في سور إشبيلية . وقد تبقت من سور قرطبة بقية متناثرة لها طابع فن بناء الأسوار في عصر المرابطين والموحدين ، منها قطاع من السور الروماني القديم يمتد غربي المدينة فيما يلي باب العطارين الحالي ، كما تبقى بجذاء النهر قطاع من السور المرابطي الذي كان يحيط بالشرقية ويقع إلى الشمال الشرقي من قرطبة ، ويمتاز بأبراجه المستطيلة الضخمة المتقاربة .

(١) Torres Balbàs, el arte de al-Andalus bajo los Almoràvides, en al - Andalus, vol. XVII, 1952, p. 413.

(٢) راجع في ذلك : تاريخ مدينة الرية الإسلامية ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٩١ ، وط الأخص الحاشية رقم ١ - العمارة الحربية بالأندلس ، مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ، ص ١٥٦ .

الفصل العاشر

تأثير العمارة الخلافية بقرطبة في فنون العمارة المسيحية والاسلامية

- (١) تفلغل التأثيرات القرطبية في الغرب المسيحي والشرق الاسلامي
- (٢) مظاهر التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية المسيحية
 - أ - التأثيرات القرطبية في الكنائس المستعربة الإسبانية
 - ب - أثر القبوات والقباب القرطبية ذات الضلوع البارزة والمتقاطعة في نظام التقبيب في إسبانيا المسيحية وفرنسا
 - ج - أثر الزخارف المعمارية القرطبية في فن الزخرفة المعمارية الفرنسية
- (٣) مدى التأثيرات القرطبية في العمارة الاسلامية

تأثير العمارة الخلافية بقرطبة في فنون العمارة المسيحية والاسلامية

(١)

تغلغل التأثيرات القرطبية في الغرب المسيحي والشرق الاسلامي

بلغت قرطبة في عصر الخلافة الأموية أوج عظمتها ، وتسمنت ذروة ازدهارها الفني وتألقها الحضاري في حين كانت أوروبا ما تزال غائقة في أعماق التأخر والانحطاط ، وقد سعت الدول الكبرى في العالم يومئذ الى مهادنة قرطبة والتقرب الى خلفائها والتزلف لهم ، فقصدوا السفراء والملوك ، وقالت عليها السفارات والوفادات الى حد أصبحت مواكب استقبال السفراء في قصري قرطبة والزهاء من الأمور التقليدية التي ألفها الناس ، وصار خروج طبقات الجند والحرس في التعبئة بالعدة الكاملة ، وظهور فرسان العبيد الرماة وقد لبسوا الأقبية البيض متقلنسي المقارييف الوبر ، متنكبي القسي والكنانات الزغرية ، ووقوف الفرسان المدرعين حاملي القنوت الناصلة ، والفرسان أصحاب الجواشن وبأيديهم الطبرزينات والأجرزة والدماغات والأعمدة ، كل ذلك وغيره مما كان يجري عرضه أيام وصول السفراء والرسل صار أمراً شائعاً في قرطبة ، مألوفاً لدى أهلها .

وهكذا ذاعت شهرة قرطبة في أنحاء العالم ، وانتجما الناس من المشرق والمغرب بحيث أصبحت دار الهجرة للعلم^(١) ومركز الرحلة لأولي الفهم ، واعتبرت أعظم مدن الأندلس والمغرب عمراناً ، وثالثة مدن العالم الوسيط كبر مساحة ، واتساع عمران ، وكثرة سكان . وكان من الطبيعي أن تتركز فيها خلاصة حضارة الأندلس ، وتصبح مركز إشعاع لهذه الحضارة في أوروبا المسيحية وفي المغرب الإسلامي والمشرق على السواء ، بحيث تمكنت التقاليد الفنية القرطبية التي تأصلت زمن الخلافة الأموية أن تنتشر في العالم الإسلامي إلى المغرب ومصر والشام ، وفي الغرب المسيحي فتصل إلى إسبانيا المسيحية وجنوبي فرنسا .

ويتمثل مصدر الإشعاع الفني الخلافي بقرطبة في مسجدها الجامع الذي كان موضع تعظيم أهل الأندلس والمركز الديني الأول في البلاد ، فيه كان يحتفل المسلمون بالمناسبات الدينية والسياسية الهامة ، مثل الاحتفال بليلة القدر^(٢) والاحتفال بليلة الإمراء والمعراج ، واحتفال الخلفاء بتلقي البيعة ، وقد أوضحنا كيف أدى تعظيم أهل الأندلس لجامع قرطبة إلى أن أصبح المثل الأعلى لمساجد المغرب والأندلس ، فقلد المرابطون تصميمه في جامع قلمسان^(٣) ، واتخذ الموحدون تخطيطه أنموذجاً لجوامعهم^(٤) ، وحوكيت قبابه القائمة على الضلوع المتقاطعة ، في قباب طليطلة وغيرها من مدن الأندلس^(٥) ، وأصبح

(١) ابن الشباط ، قطعة في وصف الأندلس وصقلية من كتاب صلة السط وسمه الموط ، تحقيق الدكتور مختار العبادي ، ص ١٤٢ .

(٢) راجع في ذلك وصف الكاتب أبي ابراهيم محمد بن صاحب الصلاة الوليبي لجامع قرطبة عندما حضر لشاهدة الاحتفال بليلة القدر (المقري ج ٢ ص ٩٠ - ٩٢) .

(٣) المغرب الكبير ، ج ٢ : العصر الإسلامي ص ٧٥٠ .

(٤) المساجد والقصور في الأندلس ، ص ٦٣ - المغرب الكبير ، ص ٨٥٥ .

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٤٠٢ - مسجد المسلمين بطليطلة مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ص ١٩٥٨ ، ومقالي بمتوان : ما لا يعرفه المسلمون عن حواضر الأندلس : طليطلة ، مجلة الفكر الإسلامي ، العدد الخامس ، آذار ١٩٨٠ ، بيروت ص ٣٨ - ٥٢ .

فن العمارة والزخرفة الخلافي المتمثل في جامع قرطبة يؤلف مدرسة فنية تلقت فنون الغرب المسيحي والاسلامي دروسها عليها ؛ وكما كان هذا الجامع ممظماً عند المسلمين ، فقد كان المسيحيون يعتبرونه أروع أمثلة العمارة الاسلامية ، وأكبر جامعة غربية في العصور الوسطى ، وكان القسيسون والأساقفة يعظمونه ، لكنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم ، عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، ^(١) ، ولذلك السبب رغب الفونسو السادس ملك قشتالة وليون بعد أن داخله الغرور بقوته وتلقب بامبراطور اسبانيا كلها *Imprateur Totius Hispaniae* ، وبلقب « الامبراطور ذو الملتين » ، ^(٢) ، أن يرسل زوجته « القمطيجة » أي الكونتيسة إلى جامع قرطبة - وكانت حاملاً - لتلد فيه لمّا أشار عليه القسيسون بذلك ^(٣) .

وهناك عامل آخر لتعليل تغلغل التأثيرات الفنية القرطبية في العمارة المسيحية والاسلامية هو هجرة عدد كبير من أهل قرطبة إلى العالم الاسلامي منذ أيام الفتنة التي انتهت بسقوط الخلافة ودثور المدينة وتأخرها حتى استيلاء القشتاليين عليها ، وهذا السبب يفسر انتقال التأثيرات الفنية القرطبية الى المغرب الاسلامي وإلى مصر والشام . أما بالنسبة لانتقال نظم العمارة القرطبية الى إسبانيا المسيحية ، فقد تم ذلك إما عن طريق تسلل جماعات من النصارى المستعربين (المعاهدة) فراراً من سياسة الاضطهاد التي جرى عليها المتأخرون من حكام المرابطين والموحدين ، إلى المناطق الإسبانية المسيحية واختلاطهم بسكان هذه المناطق مما أعان على تحقيق نوع من التزاوج والتواصل الحضاري بين التقاليد التي حملوها معهم والتقاليد المحلية ، أو لأن التفوق الثقافي والفني

(١) الحبري ، ص ٨٤ - المغربي ، ج ٦ ص ٨٩ .

(٢) ابن الكردوبوس ، تاريخ الأندلس ، تحقيق الدكتور أحمد غنار المبادي ، ص ٨٨

وحاشية رقم ٣ .

(٣) الحبري ، ص ٨٤ .

للحضارة الخلافية بقرطبة أعان على انتشار المجتمع المنحدر في شمالي أيبيريا ، وأعني به مجتمع الممالك الإسبانية المسيحية ، من يؤسه الذي كان ينوء به ، فأمكن على هذا النحو تطعيم الفن المسيحي المستعرب ببعض عناصر الفن القرطبي ، وساعد على ذلك ضعف إمكانيات الفن الإسباني ونفاذ طاقاته بعد أن اختل جسم المجتمع المسيحي في أوروبا الغربية إثر الكارثة السياسية والثقافية التي أثارها دمار الامبراطورية الرومانية ، وهكذا كان هذا الاختلال باعثاً على انتشار نفوذ الفن الاسلامي حتى إذا ما تحللت الروح المستعربة وتلاشت بمضي الزمن ، راح العنصر الأندلسي يؤثر في المجالات الفنية بإسبانيا المنحدرة من النفوذ السياسي للإسلام تحت اسم التندجين^(١) . أما انتقال التأثيرات الفنية القرطبية الى الأوفرني وغسقونية وأقطنانية بجنوبي فرنسا فقد تحقق عن طريقين : أحدهما اشتراك الفرنجة في حروب "الاسترداد المسيحي" الإسباني ضد المسلمين في الأندلس ، ورؤيتهم للآثار الإسبانية ذات الطابع الخلافي سواء أكانت مستعربة أم مدجنة ، ومحاولتهم تقليدها في بلادهم بعد ذلك . فلقد كانت إسبانيا في القرن الحادي عشر في خاطر الأساقفة الكلونيين دائماً ، إذ كانوا يعتبرونها المركز الأمامي للمسيحية أمام العالم الاسلامي ، والحاجز المهدد الذي يجب الدفاع عنه . ولم يلبث الرهبان الكلونيون أن اشتبكوا في الحملات الصليبية الموجهة الى قلب الأندلس ، وخاضوا الممارك مع القشتاليين ضد المسلمين . وأما الطريق الثاني الذي نفذت منه التأثيرات الخلافية الى فرنسا فهو طريق الحج الى شنت ياقب Santiago de Compostela وقد عمل أساقفة كلوني على تنظيم هذا الطريق ، فأقاموا على طول بطرق الفرنسية المؤدية الى شنت ياقب أديرة كلونية لتكون منازل للحجاج . وكان من آثار ذلك أن أقام الرهبان الفرنسيون حجاج شنت ياقب كنائس لهم بفرنسا طعموها ببعض عناصر من الفن الاسلامي الذي شاهدوه متداخلاً في

(٤) جومث مورينو ، ص ٤٢١ .

الكنائس المستعربة. ومن هؤلاء جوتسكال أسقف بوى Puy الذي حج إلى اسبانيا في منتصف القرن الرابع الهجري وبنى كنيسة سان ميشيل في بلدة بوى إثر عودته ، والأسقف بيير الثاني المعروف بميركير الذي رار كنيسة شنت ياقب وكنيسة سان إيسيدرو بليون^(١) .

(٢)

مظاهر التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية المسيحية

أ - التأثيرات القرطبية في الكنائس المستعربة الاسبانية

لم يتبق من كنائس المستعربين في الأندلس أو في المناطق التي ظلت خاضعة لسلطان المسلمين حتى القرن السابع الهجري إلا آثار ضئيلة لا تكفي لمعرفة ما كانت عليه هذه الكنائس في العصر الاسلامي . ومن آثار الكنائس المستعربة بقايا كنيسة ببشتر التي أقامها عمر بن حفصون إمام ثوار الأندلس وقدوتهم في عصر الطوائف الأول^(٢) في الفترة ما بين عامي ٢٨٥ هـ و ٣٠٥ هـ (٨٩٨ - ٩١٧ م) وذلك بعد تنصره^(٣) ، ومنها كنيسة سانتا ماريا دي ملكي بطليطة Santa Maria de Melque التي أقيمت في أواخر القرن التاسع أو طليعة القرن العاشر الميلادي^(٤) . وتتميز هاتان الكنيستان باستخدام العقد

(١) السيد عبد العزيز سالم ، أثر العمارة الأندلسية في العمارة المسيحية ، كتاب الشعب رقم ٦٤ ص ١٧٢ .

(٢) راجع كتابنا : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٥٣ وما يليها .

(٣) Camp y Cazorla, Arquitectura califal y Mozarabe, en Cartillas de Arquitectura española, No IV, Madrid, 1929, p. 24.

(٤) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٢٣٤ .

المنفوخ أو المسجوز الذي يتخذ شكل حدوة الفرس وهو عقد ظهر وساد استخدامه في المسجد الجامع بقرطبة وفي فن العمارة الأموية في الزهراء والزاهرة وإشبيلية وظليطة والمرية وتطيلة .

أما الكنائس المستعربة في الممالك الإسبانية المسيحية فكان عددها أكبر نسبياً وإن كان ما وصل إلينا منها يعد قليلاً لتمرصها لأعمال التدمير والتخريب التي صهبت حملات المنصور محمد بن أبي عامر وابنه المظفر عبد الملك . ولقد بلغ التأثير القرطبي درجة كبيرة في كنائس أستورية ، وتمثل هذه التأثيرات في شيوع استخدام العقد المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة والطرر المربعة التي تحيط به ، والنوافذ المزدوجة ذات العقود التوأمة . ألا أن تأثير الفن الخلافي بلغ ذروته في كنائس جليقية مثل كنيسة سانتياجو دي بنيالبا (بليون) Santiago de Penalba حيث نشهد العقد المنفوخ الذي تجاوز نصف الدائرة إلى حد أن استدارته بلغت اتساع ثلثي المحيط ، وحيث نرى الطرر المستطيلة تحيط بالعقد ، والنوافذ المزدوجة ذات العقود التوأمة . وكانت مملكة ليون أكثر ممالك إسبانيا المسيحية تقبلاً للعناصر المستعربة وتشبعاً بتأثير الفن الخلافي القرطبي ، ففيها أقام الرهبان القرطبيون منشآتهم التي سجلوا فيها الطابع المستعرب . وشهدت العمارة الليونية إبان القرن العاشر الميلادي فيضاً من التأثيرات القرطبية تتمثل بوجه خاص في بازيليكية سان ميغل دي اسكالادا بليون San Miguel de Escalada التي أسسها القس الفونسو مع بعض رهبان هاجروا من قرطبة في سنة ٩١٣ . وتتكون البازيليكية المذكورة من ثلاثة أروقة تفصلها فيما بينها صفوف من العقود المتصلة ، من النوع المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة ، تقوم على عمد على النحو الذي نشاهده في بلاطات المساجد قرطبية الطابع . ويشغل مقدم الكنيسة ثلاثة مصليات عقودها منفوخة . ويعملو حنية الكنيسة من الخارج برطل أو ظلة بارزة تحملها كوابيل ذات لفائف تشبه الكوابيل القرطبية ^(١) .

(١) Camps y Cazorla, op. cit. p. 26 - جومت مورينو، ص ٤٣٩ وما يليها.

كذلك تتمثل التأثيرات القرطبية أروع تمثيل في كنيسة سان ميّان دي لاكوجونيا San Millan de la Cogolla ببلدة لاريوخا la Rioja التي أقيمت في سنة ٩٨٤ م^(١)، وكنيسة سان ثبريان دي ماثوتي San Cebrian de Mazote التي أسسها القس القرطبي خوان في سنة ٩٢١ ، وكنيسة سان باودييل دي برلانجا San Baudel de Berlanga في سورية بقشتالة ، التي أقيمت في العقد الثاني من القرن الحادي عشر ، وتتميز بقبوتها القائمة على الضلوع البارزة المتقاطعة على النحو الذي شاهدناه في جامع قرطبة^(٢) .

ونلاحظ أن بناي هذه الكنائس استخدموا العقود المنفوخة المتجاوزة لنصف الدائرة من النوع القرطبي إستخداماً عاماً ، وقد تتسع هذه العقود في كنيسة سان ميغل دي اسكالادا بنسبة تبلغ ثلاثة أرباع المحيط . ونلاحظ أن بكنيسة سان سلفادور دي فلديديوس San Salvador de Valdedios نافذة لها متكأ فرغت فيه زخارف هندسية جصية متشابكة تشبه كل الشبه إحدى متكآت جامع قرطبة . ويتجلى في كنيسة سان ثبريان دي ماثوتي عقد خلافي الطابع يتعاقب في سنجاته اللون الأبيض والأحمر . وفي كنيسة سانتاماريا دي لينيا Santa Maria de Lebena التي أقيمت في سنة ٩٣٠ م ظلة تقوم على كوابيل ذات لفائف تحتشد فيها الزخارف ، ويتوسط كل كابولي منها شريط مزين بتوريق متموج وأحياناً بزخرفة هندسية ، على النحو الذي نشاهده في كوابيل جامع قرطبة منذ عصر عبد الرحمن الناصر^(٣) . ومن

(١) Gomez Moreno, Iglesias Mazarabes, Madrid 1919, pp. 203 - 205 .

وهذه الكنيسة قبوة يتقاطع في وسطها أربعة ضلوع بارزة على شكل عقود نصف دائرية ، ولكنها تختلف عن الحل الذي توخاه مهندس جامع قرطبة (راجع جومث مورينو ، ص ٤٥٨) .

(٢) جومث مورينو ، الفن الاسلامي ص ٤٦١

Camps y Cazorla, op. cit. p. 29 .

(٣) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 358 والترجمة العربية لهذا الكتاب

ص ٤٥٨ - Camps y Cazorla op. cit. p 28

الطريف أيضاً في باب التأثيرات القرطبية أن تخطيط حنية كنيسة سانتياجو دي بنيالبا يتخذ شكل عقد منفوخ أشبه بحدوة الفرس لا يفترق كثيراً عن عقد المحراب بالمسجد الجامع بقرطبة .

ب - أثر القبوات والقباب القرطبية ذات الضلوع البارزة والمتقاطعة في نظام التقييب في إسبانيا المسيحية وفرنسا

رأينا في دراستنا السابقة ^(١) أن جامع قرطبة يضم أقدم أمثلة للقباب ذات الضلوع المتقاطعة ^(٢) ، وأن هذه القباب أقدم من قباب كنيسة أشبسط الأرمنية وقبوات الجامع الكبير بأصفهان ، وأثرنا إلى التقارب الواضح بين قباب جامع قرطبة القائمة على الضلوع البارزة وقبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس حيث تظهر بين فصوص القبة المتشعبة من المركز ضلوع قليلة البروز لم تصل بعد إلى المرحلة التي تنفصل فيها عن غطاء القبة ^(٣) . ثم تطور هذا النوع من القباب فيما بعد بطليطلة إلى قبوات حلت فيها الرغبة في استنباط أفكار زخرفية نابعة من الفكرة المعمارية من تقاطع الضلوع محل الفكرة المعمارية الأصلية التي 'يعبر عنها تقاطع الضلوع في القباب القرطبية' ، ويتمثل هذا التطور في نظام التقييب من الفكرة الهندسية المعمارية إلى التشكيلات الزخرفية في قبوات مسجد باب مردوم بطليطلة الذي يعرف باسم كنيسة الكريستودي لالوث ، وفيها يقوم نظام التقييب على تقاطع العقود البارزة أو

(١) راجع الصفحات من ٣٤٨ إلى ٣٩٣ بالجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) Lambert, l'Architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède, dans Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925, pp. 142 - 147 — Lambert, les coupôles des grandes Mosquées de Tunisie et d'Espagne, aux IXe et Xe siècles, Hespéris, t. XXII, fasc. II, 1936—Torres Balbàs, Arte Hispano musulman, pp. 521-524.

(٣) Lambert, les Coupôles des grandes mosquées de Tunisie

et d'Espagne, p. 215 . . . وارجع إلى الصفحة رقم ٣٩٣ بالجزء الأول .

الضلوع في صور مختلفة، منها ما يمثل شكلاً رباعياً منحرفاً ذا أقطار متقاطعة تكسبه شكل قبوتين من الطراز القوطي واحدة بداخل الأخرى ، ومنها قبة ضلوعها المتقاطعة تتخذ نفس التشكيل الزخرفي النائي من تقاطع القبة المحرمة الكبرى بجامع قرطبة ^(١) . كذلك يتمثل الاتجاه الزخرفي في تقاطع الضلوع بالقبة التي تعلو الأسطوان الأوسط من مسجد الدباغين المعروف في الوثائق الطليطلية بمسجد المسلمين ، ونظام هذه القبة قوامه أربعة عقود نصف دائرية متقاطعة فيما بينها : إثنان رأسياً وإثنان أفقياً ، ويشغل كل مربع من المربعات التسعة الناشئة من هذا التقاطع قبيبات صغيرة يتقاطع فيها قوسان صغيران في شكل صليبي ، وهو تطور غريب لقبوات مسجد الباب المردوم : فبدلاً من وجود تسع قبوات يعلو كل منها أسطواناً من أساطين المسجد، اجتمعت القبوات التسع في قبة واحدة تغطي الأسطوان الأوسط من مسجد المسلمين، في حين غطيت الأساطين الأخرى بقبوات نصف أسطوانية ذات أربعة مقاطع رأسية . وتمثل هذه القبة مرحلة جديدة من مراحل تطور القبة ذات الضلوع المتقاطعة : من الفكرة المعمارية البحتة التي رأيناها في جامع قرطبة ، الى الفكرة الهندسية الزخرفية التي تتمثل بصورة واضحة في قبوات مسجد الباب المردوم . ثم من نظام التقيبب القوطي بمرحلة رابعة استهدفت الناحية الزخرفية الخالصة ، وتتمثل في قبة مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة التي لم تصل إلينا ^(٢) ، وفي قبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان وهي قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة تختلف عن قباب قرطبة في أنها تقوم على جوفات ركنية مقربصة وينبت من القاعدة المربعة للقبة ١٢ عقداً كبيراً بارزاً تتقاطع فيما بينها تاركة في الوسط قبيبة مقربصة ، وتزدان

(١) راجع الجزء الأول ، ص ٣٩٢ .

(٢) J. Galiay, el Castillo de la Aljaferia, 1906, p. 20 -

المساجد والقصور في الأندلس ، ص ٩٦ - المأثرة المدنية بالأندلس، كتاب الشعب عدد ٦٤

الفراغات الناشئة من تقاطع الضلوع بتوريقات مفرغة في الجص^(١) ، وأخيراً في القبة التي تعلو إحدى قاعات المنزل رقم ٣ الواقع بدهو البنود من أهـاء قصر الموحدين بإشبيلية ، وتقوم على اثني عشر عقداً تتقاطع فيما بينها على نسق قبة المحراب بجامع تلمسان^(٢) .

ثم طرأ تحول نهائي في نظام القنات ذات الضلوع عندما ظهرت القنات المقربصة التي تبرز فيها ضلوع زخرفية متقاطعة بين الجوفات والدلايات المثلثة والمخروطية التي تشكل المقربصات ، ويتجلى ذلك في القنوة المقربصة القائمة اليوم بالمدخل الشرقي من صحن جامع القصبة الكبير بإشبيلية^(٣) .

ولقد انتقلت فكرة تقاطع العقود البارزة بالقنات إلى نظام التقيب في الكنائس المسيحية ذات الأسلوب الروماني فيما بين القرنين العاشر والثاني عشر ، وطفى نظام التقيب القرطبي على نظام التقيب المصائب في هذه الكنائس ، فنراه واضحاً في المران بقشتالة ، وفي قبوة مصلى توريـس دل ريو بنبرة (Navara) وبرج دير موساك وبوابة كاتدرائية سان برتران دي كومنج وأولورون ومستشفى سان بليز بفرنسا . أما القنوة التي تسقف الغرفة العليا ببرج دير موساك فقد أقيمت فيما بين عامي ١١١٥ م ، ١١٢٠ م ، وتقوم على اثني عشر عقداً بارزاً تنبت من إثني عشر عموداً ملتصقة بالجدران ، وتتقاطع هذه العقود فيما بينها حول فتحة وسطى . وأما مستشفى سان بليز المعروف بمستشفى الرحة فقد أقيمت في منطقة جبال البرانس ، في ممر سومبور الذي يقع في الطريق الذي يسلكه الحجاج الفرنسيون إلى شنت

(١) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954, p. 197 - المغرب الكبير ج ٢ : العصر الاسلامي ، ص ٧٥١ .

(٢) المارة المدنية بالأنـلس ، ص ١٣٤ .

(٣) المغرب الكبير ، ص ٨٥٦ .

ياقب Santiago de Compostela في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر ، وهي بناء يغلب عليه الطابع الشرقي إذ أن رواقها الأوسط يزيد ارتفاعه عن الرواقين الجانبيين ، وتعلوه عند منتصفه قبة ترتكز على قاعدة مربعة ، بأركانها جوفات مقربصة لتحويل القاعدة المربعة الى عنق مشعن ترتكز عليه قاعدة القبة ، وتتوسط جوانب القاعدة المربعة مساند حجرية يتلقى كل منها منبقي عقدتين من العقود الثمانية البارزة التي تؤلف هيكل القبة ، وتشابك هذه العقود فيما بينها مكونة شكلاً نجمياً يتوسطه فراغ مركزي على النحو الذي نشاهده في القبتين المجاورتين لقبة المحراب بجامع قرطبة ، وإحدى قباب مسجد الباب المردوم بطليطلة^(١) ، وتشبه هذه القبة قبة أخرى بكنيسة سانت كروا بأولورون قوامها هيكل من الضلع المتقاطعة يؤلف شكلاً نجمياً كبير الشبه بالشكل النجمي الذي نشاهده في قبة سان بليز ، وكل الفارق بين القبتين لا يزيد على أن ضلع قبة أولورون لا تترك فراغاً مركزياً . ولا يختلف بناء هاتين القبتين على قباب قرطبة وطليطلة إلا في أنها مبنية من الحجر بقصد معماري بحت .

ويمكننا أن نضيف إلى القبتين المذكورتين قبوة ثالثة هي قبوة مصلى طليطلة في الكاتدرائية العتيقة بشلمنقة ، وهي قبوة تذكرنا بقبوة صومعة جامع الكتبية بمراكش ، وقبوة بهو البنود بقصر الموحدين بإشبيلية ، وقبوة دير لاس إويلجاس بمدينة برغش^(٢) (Las Huelgas de Burgos) .

(١) Elie Lambert, L'hôpital Saint Blaise et son église hispano-mauresque, al-Andalus, 1940, fasc. I, pp. 179 - 187.

(٢) Emile Mâle, Art et artistes du Moyen âge, Paris 1947, pp. 73 - 74. ويتجلى أثر الفن القرطبي في كثير من العناصر المماثلة بهذه الكنيسة ، كالشبكات المخرمة في التوافذ بدلاً من الشمسيات الزجاجية الملونة ، والمقد المقصوص متعدد المقصوص فوق حنية الكنيسة .

(٣) Jasé Camon Aznar, la boveda gotica morisca de la Capilla de Talavera, en la Catedral Vieja de Salamanca, al-Andalus, vol. V, fasc. I, 1940, p. 176.

ومن بين القباب التي ترجع إلى القرنين العاشر والحادي عشر ، والتي تشبه في نظامها قباب جامع قرطبة وطليلة ما كان تخطيط عقود البارزة أكثر بساطة من تخطيط عقود القباب بقرطبة ، بحيث يميل إلى التخطيط الذي رسمته التصيليات القوطية الفرنسية فيما بعد ، إذ أن العقود البارزة في بعض هذه القباب التي تندرج في قائمة القباب الأندلسية تتقاطع في مركزها دون أن تترك فراغاً مركزياً ، وقد رأينا أمثلة من هذا النوع من قباب الضلوع ذات التخطيط المصلب في أولورون وفي كنيسة سان ميان دي لاكوجويا ، وسان بوديل دي برلانجا San Baudel de Berlanga في قشتالة وهناك أمثلة أخرى في قبوة فيراكروث بشقوبية Segovia ، وقبوتي كنيسة سان خوان دي دويره بولاية سوريّة الإسبانية ، وقباب كاتدرائية خاكا بوشقة Huesca (١) ، والبرج القديم بكاتدرائية أبيت Oviedo المعروف ببرج سان سلفادور ، وبرج سان مرقين دي أريفالو بآبلة Avila (٢) .

ولعل هذه الأمثلة جميعاً اتبعت نفس نظام إحدى قبوات مسجد الباب المردوم أو قبوة مسجد المسلمين بطليلة (٣) ، ولا يمكننا في حالة هذه القبوات أن نفترض تأثرها بالقبوات القوطية الفرنسية ، لأنها تقليد لنماذج قرطبية أو طليطلية ، ويؤيد ذلك وجود قبوات ذات ضلوع متقاطعة في منطقة غسقونية ولنجدوك وأقطنانية وأنجو ونورمندي ، ولكنها لا تمت للتصيليات القوطية إلا بصلة بعيدة ، لأنها سبقت التصيليات القوطية في الظهور

(١) Torres Balbas, la progenie hispano-musulman de las primeras bóvedas nervadas francesas, al-Andalus, vol. III, 1935, pp. 398 - 410 .

(٢) Gomez Moreno, et arte romanico espanol, Madrid 1943, p. 70.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، مسجد المسلمين بطليلة، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية،

بمهد طويل ، ومن ثم فلا يمكن أن نفسر ظهورها على أنها مجرد تقليد خاطئ ، للقبوات القوطية في ايل دي فرانس ، كما لا يمكن اعتبارها مجرد تقليد للقباب القرطبية الاسلامية ، ولكنها تتخذ حلاً وسطاً بين النظام القرطبي والنظام القوطي الأمر الذي يدعونا الى الاعتقاد بأنها اقتبست من القباب الطليطلية التي فقدت المدلول المعماري وغلب عليها الطابع الزخرفي الهندسي ، وبذلك يكون فنائو فرنسا قد أخذوا من أساليب العمارة الاسلامية بقرطبة ما يتفق مع رغباتهم وأهوائهم ، ولم ينقلوها صورة مطابقة للأصل (١) .

ولا يهمننا الدور الزخرفي الغالب الذي لعبته القباب القرطبية ذات الضلوع بقدر ما يهمننا ما أدته من خدمات جليلة في إلهام المهندسين الفرنسيين لهذا الحل المعماري الفريد الذي تمثله القبوات القوطية . ومع ذلك فإن التصليبات القوطية التي نشاهدتها في أرواح الكنائس والكاتدرائيات الفرنسية لم تظهر هكذا فجأة دون مقدمات ، وإنما سبقتها محاولات متعددة في نورماندي ومناطق أخرى من فرنسا نخص بالذكر منها سانتونج وپواتو (٢) . ولكن التصليبات القوطية لم تأخذ مظهرها النهائي إلا عندما اتحدت فكرة الضلوع القرطبية مع فكرة القبة المتعارضة ، وذلك بدعم خطوط التلاحم البارزة في هذه القبة الأخيرة وإبرازها في شكل ضلوع متقاطعة على شكل الصليب ، ثم استخدم هذا الابتكار لتغطية مسطحات واسعة في الكنائس عوضاً عن أماكن ضيقة محدودة .

ج - أثر الزخارف المعمارية القرطبية في فن الزخرفة المعمارية الفرنسية

لم تقتصر التأثيرات القرطبية في العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا على

(١) Lambert, les Voûtes nervées hispano musulmanes du XI^e siècle et leur influence. possible sur l'art chrétien, Hespéris, 1929.

(٢) Torres Balbas, la progenie, p. 406.

القبوات ذات الضلوع البارزة التي أدت إلى استلهاهم فكرة القبوات القوطية المصلبة ، وإنما تجاوزتها في فرنسا إلى العناصر الزخرفية أيضاً : ففي كنيسة فوتردام دي بوردو كليرمو التي تعتبر أقدم كنائس مقاطعة أوفرتني Auvergne بفرنسا استخدمت الكوابيل قرطبية الطابع ، ومن العجيب أن تتأثر كوابيل كليرمو مع كوابيل جامع قرطبة في حين تختلف عن كوابيل الكنائس المستعربة مثل كنيسة سانتياجو دي بنيالبا ، وسان ميغيل دي ثيلانوفيا ، وسان ميآن دي لاجويوا^(١) ، مما يدل دلالة واضحة على أن الفنان الفرنسي أخذ مباشرة من جامع قرطبة .

وقد انتشر في فرنسا عنصر هام من عناصر العمارة الخلافية بقرطبة هو العقد ثلاثي الفصوص أكثر من انتشاره في قرطبة نفسها ، وكان مركز انتشاره في بلدة بوي Puy وتتجلى هذه الظاهرة في واجهة كاتدرائية فوتردام دي بوي ، بل إننا نشهد في هذه الواجهة العقود متعددة الفصوص أو المقصوصة ، والعقود المنفوخة التي تتناوب في سنجاتها الألوان ، الأمر الذي يدل على وجود تأثير مباشر من جامع قرطبة . والواقع أن ظهور هذه العقود القرطبية مع تناوب الألوان وظاهرة تقليد الكتابة الكوفية في طرة الباب لم يكن وليد الصدفة ، ولكنه دليل حاسم على أن الفنان الفرنسي استهدف تقليد نظائرها في جامع قرطبة .

ولا يقف الأثر الاسلامي القرطبي على هذه الواجهة ، وإنما نراه ممثلاً في برج الكاتدرائية الذي يزدان بفتحات عقودها متعددة الفصوص على غرار عقود صومعة جامع قرطبة . ونشاهد هذه العقود المفصصة أيضاً في سيركلوني بيورجوني ، كما نراها في برج كنيسة لا شاريتيه سيرلوار ، وتشبه العقود في

(١) Emile Mâle, Art et Artistes, p. 55.

ويزدان الإفريز بين الكوابيل في كليرمو بزخارف من قبيبات مفصصة أشبه شيء بزهود ذات ثنائي ورقات ، تماثل نظائرها في قبة المحراب بجامع قرطبة . وهذا النوع من الكوابيل فشاهده أيضاً في بيريجيه ببرج قرون الذي يرجع إلى القرن الحادي عشر .

هذين الأثرين عقود المجاز بكنيس سانتاماريا لابلانكا بطليطلة وهو إحدى روائع الفن المدجن^(١) .

وقد بحث أستاذي الدكتور أحمد فكري في أصل العقود المفصصة والمقصوفة ، وذكر لها أمثلة عديدة بفرنسا ، على الواجهات وفي العقود وفي القباب وفي قرم التيجان وعلى الأبواب^(٢) ، كما قام بدراسة العقود التي يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود ، التي لا يقتصر وجودها على عقود الفناء والواجهة بكاتدرائية نوتردام دي بوى ، بل نشاهدها أيضاً في عقود المبنى المثلث المجاور للكاتدرائية ، وفي مقصورة سان ميشيل داجويل ، وفي واجهة كنيسة موناستيه ، وريوتار ، وبولنيك سيرلوار ، وفي كاتدرائية فالنس ، وفي عقود البرج الروماني بفين التي كانت تربطها ببوى جادة قديمة^(٣) .



مدى التأثيرات القرطبية في العمارة الاسلامية

أ - في المغرب الأقصى

توثقت الصلات الفنية بين الأندلس وبلاد المغرب طوال العصر الاسلامي ، وعلى الأخص في عهد الحكم الرضي الذي قضى على ثورة أهل الرض بقرطبة

(١) يغلب على الظن أنه بني في القرن الثالث عشر الميلادي (راجع العمارة الدبلية بالأندلس ، كتاب الشعب رقم ٦٤ ، ص ١٢٠) .

(٢) Ahmad Fikri, l'art roman du Puy et les influences islamiques, Paris, 1935, pp. 203 - 221.

(٣) Ibid. p. 233.

سنة ٢٠٢ هـ ونفاهم من الأندلس فلاذوا بفاس^(١) ثم ازدادت هذه الصلات وثيقة منذ أواخر عصر الخلافة الأموية بالأندلس ، وبدأت التأثيرات الأندلسية تتسلل من الأندلس الى المغرب الأقصى ، واشتد تيارها في عصر دولتي المرابطين والموحدين حتى شملت كل بلاد المغرب . وكان طبعاً أن تتدفق هذه التأثيرات القرطبية التي يمكن أن نسميها أيضاً الخلافة والأندلسية على المغرب الأقصى في العصر الأموي بعد أن سعى خلفاء قرطبة منذ عبد الرحمن الناصر الى مد نفوذهم السياسي الى أرض المغرب مستهدفين من وراء ذلك محاربة النفوذ الفاطمي على التراب المغربي نفسه ، فعبد الرحمن الناصر هو الذي أمر ببناء صومعة جامع القرويين بفاس^(٢) في شهر ربيع الأول سنة ٣٤٥ هـ من أخماس غنائم الروم ، وجعل في أعلاها قبة صغيرة وضع في دورانها تقافيج موهبة بالذهب في زج من حديد « على نحو ما فعله مهندسوه في مثدنة جامع قرطبة الجديدة التي أمر الناصر بإنشائها في موضعها الحالي قبل بناء مثدنة القرويين بخمس سنوات ، كما أن الناصر هو أيضاً الذي أمر بإنشاء صومعة الأندلسيين بفاس في جمادى الأولى سنة ٣٤٥ هـ^(٣) .

ولكن تأثيرات الفنون القرطبية ، التي تطورت في عصر الطوائف الى ما يعرف بالفنون الأندلسية^(٤) ، بدأت تفقد على المغرب منذ أن تأثر المرابطون

(١) فيما يتعلق بنزول أهل ديبس قرطبة بأغمت راجع : البكري ، ص ١٥٥ . وفيما يتعلق بنزول الأندلسيين أهل الرض القرطبي بفاس راجع للمؤلف : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٢٤ ، وتاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٧٠ ، وتاريخ مدينة الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، ص ١٣٠ .

(٢) الجزناوي ، كتاب : زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق الاستاذ ألفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ص ٣٦ - 8 Terrasse, La mosquée des Andalous à Fès, p. 8

(٣) نفس المصدر ، ص ٨١ .

(٤) كان للفن الخلاقي بقرطبة الفضل الأعظم في تشكيل الفن الزخرفي الأندلسي ، وإمداده بمادته الحيوية ومقوماته الأساسية في عصر ملوك الطوائف وما تلاه من عصور حتى سقوط غرناطة ، ولم تتوقف قرطبة إلا أن هذه العمود عن تغذية هذه الفنون بتيار دافق من تأثيراتها حتى -

برقة الحياة الأندلسية ، وانغمسوا في الترف الذي اتسمت به الأندلس ، وشجع أمراؤهم شعراء الأندلس وأدباءها على الوفود الى المغرب ، « فانقطع الى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة من أهل كل علم فحولوه حتى أشبهت حضرة حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وقرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار (١) » . وأخذ أمراء المرابطين منذ أيام يوسف بن تاشفين يستقدمون من الأندلس رجال الفن والبناء ويشركونهم في الأعمال الفنية في المغرب ، فقد ذكر الادريسي أن علي بن يوسف عندما عزم على بناء قنطرة على وادي تنسيفت استقدم من الأندلس الخبراء في بناء القناطر (٢) . ويذكر الأستاذ تراس أن

= استكملت هذه الفنون نموها ونضارتها في عصر الطوائف الذي بلغ فيه فن الزخرفة الغاية في الإسراف في التعميد ، والفن في حشد الزخارف ، والتوسل بالأقواس المتقاطعة التي تظهر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة الى حد من التعميد يستحيل معه على المرء أن يتقصى امتداد خطوط الأقواس إذ هي تتشابك وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة أخاذة. ونفس في فنون الزخرفة الأندلسية في هذا العصر (سواء في سرقطة أم في طليطلة وغرناطة ومالقة والمرية وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس) تحرواً مما كان يغلب عليها من جمود ، كما نشهد حرية في الأداء ورشاقة في الحركة وميلاً الى التموج والانتواء والتداخل والتشابك الى حد يعجز عنه الوصف . ولم تنقطع قرطبة - التي كانت معينا من المادة الفنية لا يتضب - عن مد فنون المرابطين والموحدين بعد ذلك بكل ما من شأنه أن يخفف من جفوة الفن المغربي وزمده حتى تحولت هذه الفنون في العصر الموحيدي إلى فنون أندلسية ، غنية بزخارفها التي تتمثل فيها وصل إلينا من أمثلة (في جامع إشبيلية والكتيبة براكش) . ثم واصلت هذه الفنون تطورها الطبيعي حتى بلغت في عصر بني نصر (بتشجيع من السلاطين واستجابة طبيعية للأحاسيس والمشاعر الإنسانية في هذا العصر عندما أدرك أهل الأندلس النهاية المحتومة والمصير التمس الذي ينتظرهم في الغد ، فعمدوا إلى الإقبال على المتع الحسية ، والتجهوا إلى الإستمتاع بالقيم الجمالية) غاية ما يمكن أن تصل إليه ، ثم قدر لها أن تهجر هذا الوطن إلى المغرب تاركة آثاراً تضم أروع ما أبدعه الفن الأندلسي ، وتراثاً ضخماً محفوظاً في قصور الحمراء وغيرها من الآثار التي أصبحت مادة أساسية لفنون الزخرفة المدججة .

(١) الراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العرياف ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) الادريسي ، ص ٦٩ .

قلعة تاسغيموت المغربية أقيمت في سنة ١١٢٥ في عهد علي بن يوسف بتوجيهات رجل أندلسي يقال له الفلكي ، هاجر الى مراكش ^(١) ، وتتجلى تأثيرات الفن القرطبي بصورة واضحة في زخارف قبلة الباروديين بمدينة مراكش ^(٢) . ويعتبر عصر الموحدين العصر الذي توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس الى حد التزاوج ، وفيه انتقلت التأثيرات الأندلسية الى المغرب الأقصى وظهرت في الأبنية التي أقامها خلفاء الموحدين هناك مثل جامع حسان بالرباط وجامع الكتبية بمراكش وجامع القصبه بالرباط . ويذكر ابن سعيد المغربي « أن حضرة مراكش هي بغداد المغرب ، وهي أعظم ما في بر العدو ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم وذلك مشهور معلوم إلى الآن » ^(٣) . ولا نشك في أن عدداً كبيراً من هؤلاء الصناع والمهندسين كانوا قرطبيي الأصل أو تلقوا أصول حرفتهم في قرطبة ، لأن هذه المدينة على الرغم مما آلت اليه من تدهور بعد سقوط الخلافة الأموية ظلت تحتفظ بتفوقها الفني في الأندلس ، وقد برز من مهندسي الموحدين مهندسان أندلسيان لعبا دوراً هاماً في تطوير فن البناء المغربي في عصر الموحدين ، هما : الحاج يعيش المالقي ، وأحمد بن باسة .

أما الحاج يعيش المالقي فهو أندلسي من مالقة ، أرسله الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي مع المهندس الأندلسي أحمد بن باسة في سنة ٥٥٥ هـ (١١٢٠ م) للإشراف على أعمال البناء بجبل الفتح (جبل طارق) ، وهناك شرع المهندسون في بناء حصن الجبل في ٩ ربيع الأول سنة ٥٥٥ ، وكمل

(١) Terrasse, l'art hispano mauresque, pp. 256, 227

(٢) Boris Maslow, la Qubba Barudiyyin à Marrakuch, al - Andalus, 1948, fasc. I, pp. 180 - 185 — Marçais, L'architecture Musulmane d'Occident, p. 200.

وراجع أيضاً المغرب الكبير ، ص ٧٥٢ .

(٣) القرني ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٤٧ .

بناؤه في أقل من ثمانية أشهر ، كما أقام الحاج يemiş طاحونة هواء في أعلى الجبل (١) . والحاج يemiş هو أيضاً صاحب المقصورة المشهورة الملحقة بجامع مراكش (٢) ، وهي عمل ينم عن فن أصيل وحيل هندسية وبراعة أعجبت كل من شاهده ، فقد كانت المقصورة تدور بحركات خفية ترفع وتهبط بعد ساعات الصلاة ، ولا يرى منها إلا الجزء الأدنى من المحراب . ولا تزال في أرضية الكتبية بمراكش - في الموضع الذي كان يفصل هذا الجزء عن باقي أجزاء المسجد - آثار قطعتين من الخشب بينهما فراغ كاف عميق يتسع لجدران المقصورة حين تهبط فيه . ولا يشك الأستاذ تراس في أن الحاج يعيش المالقي هو الذي شيد جامع الكتبية بمراكش وجامع تمال . كذلك يرجع إليه الفضل الأعظم في الكشف عن جسر المياه الروماني بإشبيلية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وكان يحمل المياه قديماً من الوادي قرب قلعة جابر ، ثم انقطع منذ زمن قديم ، ففتبعه يemiş في الطريق إلى قرمونة حتى قلعة جابر ، وجدد بنيانه (٣) . ولقد تبقى اليوم في مدينة سلا الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي بابان بدار الصناعة التي أنشأها بين عامي ٦٥٠ ، ٦٦٠ هـ (١٢٦٠ / ١٢٧٠ م) مدجن من أهل لإشبيلية هاجر في هذا العصر إلى سلا ، واسمه أبو عبدالله محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن الحاج الإشبيلي (٤) الذي أنشأ أيضاً الدولا ب (الساقية) القائم في مدينة فاس جديد وذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر في عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني . أما أحمد بن باسة فنعقد أنه قرطبي الأصل ، إذ ورد اسمه في أحد فصول المقتبس لأبي مروان

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المن بالامامة ، ص ١٤٢ .

(٢) الحلل الموشية ، تونس ١٣٢٩ ص ١٠٨ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٤) يقلب على الظن أنه ينتسب إلى الحاج يعيش المالقي ، ويقول ابن الخطيب في الاحاطة حين يتعرض لذكر محمد الحاج الإشبيلي أن هذا المهندس يجيد الحيل الهندسية ، وكذلك الآلة الحربية الجافية وقد أقام بفاس الدولا الكبير . (السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ج ٣ ص ٢٢) .

ابن حيان باعتباره المسؤول الأول عن تدمير آثار بني أمية بقرطبة وبيع أنقاضها^(١)، ولقد قام أحمد بن باسة بتجديد قصور قرطبة في سنة ٥٥٥ هـ^(٢)، ثم أمره الخليفة أبو يعقوب يوسف بإدارة أعمال البناء في جامع إشبيلية^(٣) في عام ٥٦٧ هـ، وشرع ابن باسة في بناء قصور البحيرة خارج باب جهور من إشبيلية في هذه السنة، كما شرع في سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) في بناء صومعة جامع إشبيلية الكبير بعد أن ردم أساسها الذي تملؤه المياه بالأحجار والجيار، وبلغته لتأمين استقرار الأساس^(٤).

ولقد اشتد تيار التأثيرات الأندلسية في عمائر المغرب بعد انهزام الموحدين في موقعة العقاب في سنة ٦٠٩ هـ، فبعد عدد كبير من أهل الأندلس إلى بر العدو مهاجرين إلى المغرب، ولم يمض أربع وعشرون سنة حتى كانت قرطبة قد سقطت في أيدي القشتاليين وهاجر من أهلها عدد كبير إلى بر العدو، وتتابعت الهجرات إلى المغرب بعد ذلك، ولقد أشار ابن مرزوق في كتابه المسند إلى بعض الصناعات الأندلسية التي راجت في بلاد المغرب لتوافر البنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرختامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين^(٥). ويؤكد الاستاذ بنعبد الله أن الأثر الأندلسي

(١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، قسم ١، مجلد ٢، ص ١١١ - ١١٢. وراجع الجزء الأول من كتابي قرطبة ص ١١٦ وما يليها.

(٢) ابن صاحب الصلاة، ص ٢٠٦.

(٣) ابن صاحب الصلاة، ص ٤٦٧ - Toiles Balbas, Arquitectos - andaluces de las épocas almoravide y almohade, al - Andalus, 1946, p. 217.

ولعل ابن باسة أو ابن باسه المذكور ينسب أيضاً إلى أسرة الباصة بطليطلة التي ينسب إليها اليان بن أبي الحسن بن الباصة في أواخر القرن الثاني عشر (راجع :

Palencia (A. Gonzalez) los Mozarabes de Toledo, vol. I, Madrid, 1926).

(٤) ابن صاحب الصلاة، ص ٤٨٢.

(٥) Lévi-Provençal, un nouveau texte d'histoire mérinide: le Musnad d'Ibn Marzuk, Hespéris, t. V, année 1925, p. 38

واضح في هذه الصنائع ، فالزليجي الفاسي ، وهو نوع من الترصيع الخزفي ، أصله من الأندلس ، كما أن أغلب فنون التطريز والترقيم المغربي من أصل أندلسي^(١) . وفي هجرة أهل الأندلس إلى المغرب الأقصى يقول ابن غالب : « ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدو مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه ، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها ، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرض الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات... وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها . فأما أهل الأدب ، فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة . ولا يستعمل بلدي ما وجه أندلسي » ، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد وقطعوا معاشهم وأدخلوا أعمالهم وصيروهم أتباعاً لهم ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم ويصير الذكر لهم »^(٢) .

ب - في تونس

أما تونس فقد انتقل إليها كثير من أهل شرق الأندلس وأقاموا في كنف السلطان أبي زكريا يحيى الحفصي (٦٢٠ - ٦٤٧ هـ) وذلك بعد أن استولى خايمي الأول ملك أرغون على بلنسية في سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) ، وجزيرة شقر في سنة ٦٣٩ هـ ، ومرسية سنة ٦٤١ هـ ، وشاطبة في سنة ٦٤٥ هـ^(٣) . ويعبر ابن خلدون عن ذلك أصدق تعبير في قوله : « فأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحيدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به

(١) عبد العزيز بن عبد الله ، مظاهر الحضارة المغربية ، ج ٢ ، ١٩٥٨ ص ٩٣ - ٩٥ .

(٢) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، مدينة مرسية موطن الشيخ الزاهد أبو العباس الرومي ، الجزء

الثالث من دراسات أثرية وتاريخية ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ ص ١٨ - ٢١ .

عواندها ، بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس . وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساق النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الأندلس . ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية ، فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً معظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عواندها ...^(١) . وفي موضع آخر يشير إلى تأثير عمران تونس بحضارة الأندلس بسبب أن « أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة وزسخ فيها من ذلك أحوال وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد ، إلا أن الصبغة إذا استحكت فقليل ما تحول إلا بزوال محلها . وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك وإن كانت هذه كلها اليوم (أي في زمن ابن خلدون) خراباً أو في حكم الحراب »^(٢) . ولقد كان من أثر نزول أهل الأندلس بحضرة تونس زمن السلطان الحفصي أبي زكريا أن ازدهرت الحضارة التونسية ازدهاراً لم تعرفه من قبل إلا في عهد الأغالبة ، ففي عهد المستنصر بالله الحفصي (٦٤٧ - ٦٧٥) « اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصاً الأندلس من شاعر مفلح ، وكاتب بليغ ، وعالم نحرير ، وملك أروع ، وشجاع أهيى ، متفشين ظل ملكه ، متناغين في اللياذ به ... وفي أيامه عظمت حضارة تونس ، وكثر ترف ساكنها ، وتأنق الناس في اللباس والمراكب والمباني والماعون والأبنية ، فاستجادوها ، وتناغوا في اتخاذها وانتعاشها إلى أن بلغت غايتها »^(٣) . ومن مظاهر تأثير الحضارة التونسية بالحضارة الأندلسية عن طريق مهاجري الأندلس ، رسوخ التقاليد الأندلسية في القراءات والخط ، وفي ذلك يقول ابن خلدون أيضاً :

(١) ابن خلدون ، المقدمة أو الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون ، طبعة دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٦٦٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٧١٧ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٦ ص ٦٧٥ ، ٦٧٦ .

« وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند ثلاثي ملك العرب بها ومن خالفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية، فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفى عليه... وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس،^(١) ويقول أيضاً: « وأما أهل إفريقية فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك »^(٢).

وفي هذه المعاني يقول ابن سعيد المغربي: « ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التي كانت في مراکش بسلطان إفريقية أبي زكريا يحيى ابن أبي محمد بن أبي حفص، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس، وعرفاء صنّاعه من الأندلس، وتماثله التي يبني عليها فإنما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ». وكان ابن سعيد يدرك تمام الإدراك بمدنى الأثر الأندلسي في بلاط تونس، لأنه خدم الأمير أبا عبد الله المستنصر، خليفة أبي زكريا يحيى، وكان بلاطه يزخر بالأندلسيين الذين هاجروا إلى جوارحه^(٣).

وهناك موجة أندلسية أخرى وفدت إلى تونس والجزائر في سنتي ١٠١٦ هـ، ١٠١٧ هـ نتيجة لسياسة تنصير المسلمين المدجنين بالإكراه وتعريض من يتهم من

(١) نفس المصدر، ج ١ ص ٧٥٠.

(٢) ابن خلدون، ج ١ ص ١٠٣٩، ١٠٤٠.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات الأندلسية في تونس، دائرة معارف الشعب، عدد

٦٤ ص ١٦٧.

الموريسكيين ، أي المنتصرة ، بممارسة فروض الاسلام لأقصى العقوبات كالحرق مثلاً ، مما حمل العدد الأعظم من المسلمين الأندلسيين الى الخروج من وطنهم والالتجاء الى المغرب . وفي هذا المعنى يذكر المقرئ أن النصارى الإسبان شددوا في البحث عن المسلمين ، حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيتض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان لإخراج النصارى إليهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة . وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الحالية وبلادها . وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر ، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جراراً ، وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذا الحال . ووصل جماعة الى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا على ما وُصف به (١) . وأورد السلاوي نصاً نقله عن صاحب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية جاء فيه : « وفي سنة ست عشرة وألف قدمت الأهم الجالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية واغتبط بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم » (٢) . وفي هذا المعنى نفسه يقول مؤرخ تونسي معاصر هو الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب : « ثم إن عثمان داي أقطع مهاجري الأندلس ما اختاروا من الأراضي ، ووزع على محتاجيهم الأموال والنفقات ، فانتشروا في أكناف البلاد يشيدون القرى ،

(١) المقرئ ، ج ٦ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٢) السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ٦ ، ص ١١ .

وينشئون المزارع والبساتين حتى استأنفت تونس عمرانها . فمن المدنف التي أسسوها : سليمان ، وقرنبالية ، والجديدة ، وزغوان ، وطبرية ، ومجاز الباب ، وتستور ، وقلعة الأندلس . وعلاوة على ذلك فقد استوطن منهم جانب وافر حاضرة تونس ، واتخذوا بها حارات عرفت بهم مثل حومة الأندلس ، وزقاق الأندلس ، وأنشئوا أسواقاً للصناعات التي جلبوها معهم كصناعة الشاشية ونسج الحرير ونقش الرخام والجبس والزليجي ، وقد نقل أهل البلاد عنهم أصول تلك الحرف حتى أتقنوها ^(١) . وقد استخدم اسطى مراد مهاجري الأندلس وعمر بهم مرسى غار الملح (قرب بنزرت) في سنة ١٠٤٧ هـ ، وأنشأ بها قلعة دفاعية ^(٢) .

ج - في الجزائر

أخذت التأثيرات المعمارية القرطبية تتدفق على المغرب الأوسط (الجزائر) منذ قيام يوسف بن تاشفين باستئصال ملوك الطوائف في الأندلس في أعقاب الزلافة ، وتتمثل هذه التأثيرات القرطبية بوجه خاص في محراب المسجد الجامع بتلمسان الذي يشبه محراب جامع قرطبة شبهاً كبيراً : فاللوحتان الرخاميتان اللتان تكسوان إزار واجهة المحراب بقرطبة قلداً تقليدياً واضحاً بالنسبة لمحراب جامع تلمسان ، كما قلدت في جامع تلمسان أيضاً طرز الكتابة التي تملأ طرر محراب قرطبة ، هذا بالإضافة الى البائكة الزخرفية من العقود ثلاثية الفصوص التي تعلو عقد محراب جامع قرطبة في نفس الموضع من واجهة محراب جامع تلمسان ^(٣) . ولا يقف تأثير قرطبة في جامع تلمسان الى هذا الحد ، فسقف المسجد خشبي مسطح يعلوه سطح منشوري الشكل أو مسنم على

(١) حسن حسني عبد الوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، تونس ١٣٧٣ هـ ، ص ١٣٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٦ .

(٣) Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident, p. 241

النحو المتبع في جامع قرطبة ، والبلاطة الوسطى تزيد في الاتساع عن البلاطات الأخرى ، ويقطع سطحها قبتان ، يملوهما جوسقان من الخارج ، واحدة منها تقع بأعلى الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى ، أي في نفس الموضع تقريباً الذي تقوم عليه القبة المحرمة الكبرى المسماة بقبة فيلا فيثيوسا بجامع قرطبة ، أما القبة الثانية فتتقدم المحراب ، وهي قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة ، تذكرنا بقباب المسجد الجامع بقرطبة مع بعض الثراء في الزخرفة نتيجة طبيعية لتطور فن الزخرفة الأندلسي في عصر المرابطين . والظاهر أن مهندس جامع تلمسان تأثر في بناء هذا الجامع بجامع قرطبة ، فجاء تخطيط جامع تلمسان مائلاً لتخطيط جامع قرطبة بجميع ما أضيف إليه من زيادات ، بل إن مهندس جامع تلمسان مبالغة منه في تقليد جامع قرطبة ، قلد صفوف الدعائم التي تفصل بين مسجد عبد الرحمن الأوسط وزيادة الحكم المستنصر (١) .

ولم تتوقف التأثيرات الفنية الأندلسية عن التدفق على المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي حتى منتصف القرن الرابع عشر ، وكانت تربط ميناء وهران بميناء المرية روابط وثيقة ، ولقد طلب أبو حمو الأول (٧٠٧ - ٧١٨ هـ) وابنه أبو تاشفين (٧١٨ - ٧٣٧) من السلطان أبي الوليد اسماعيل سلطان غرناطة (٧١٣ - ٧٢٥) أن يبعث إليه عدداً من صناع الأندلس وفنانيه لبناء القصور بحاضرتهم تلمسان ، وشرع هؤلاء في بناء هذه القصور في عهد أبي حمو ، وتم بناؤها في عهد خلفه أبي تاشفين ، وأمهرت تلمسان وقتئذ بالقصور والدور والحدائق والجنان التي لم يكن مثلها بعد ذلك ، نذكر منها دار الملك ودار السرور ودار أبي فهر .

(١) Lambert, les mosquées de type andalou, p. 285 . وارجع إلى المغرب الكبير ، الجزء الثاني : العصر الاسلامي ، ص ٢٥١ ، وطالع ما جاء في الجزء الأول من هذا الكتاب (قرطبة) صفحة ٣٦١ - ٣٦٢ .

ويتجلى تأثير فن البناء الأندلسي في الفنون الجزائرية في 'عمارة المساجد' ،
ويعد مسجد سيدي بل حسن الذي أقامه السلطان المريني أبو سعيد عثمان
صورة مماثلة لمسجد قصر الحمراء ، بل أن واجهة مسجد العباد بتلمسان تعبر
أصدق تعبير عن عمق تأثير العمارة الأندلسية في أبنية الجزائر في عهد السلطان
أبي الحسن المريني علي بن عثمان (الذي انتزع تلمسان في سنة ٧٣٧ من ابن
أبي تاشفين سلطان بني عبد الواد) ، إذ أن زخارف التوريقات والزخارف
الهندسية التي تكسو الجدران جميعاً موزعة في تقسيمات رائعة مماثلة لزخارف
قصر الحمراء بقرطبة ، كذلك يمكننا مقارنة مثذنة المنصورة المجاورة لتلمسان
بمثذنة جامع إشبيلية لتشابه تقاسيمها الزخرفية ، وتفاصيلها المعمارية ، وتشبيكاتها
القائغة على تقاطع العقود (١) .

د - في مصر

بدأت التأثيرات الفنية القرطبية تتوافد على مصر منذ أن تمكن فريق من
البحريين الأندلسيين من السيطرة على الاسكندرية في سنة ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) ،
وظلوا يتولونها زهاء عشر سنوات حتى أرغمهم عبدالله بن طاهر على الخروج
منها إلى جزيرة إقريطش (٢) . ومنذ العصر الفاطمي زاد اتصال أهل الأندلس
بمصر ، وأصبح ميناء الاسكندرية محطاً رئيسياً للسفن القادمة من المغرب
والأندلس إلى مصر والشام ، تحمل علماء يرغبون في مزيد من المعرفة على
أيدي المشاركة ، أو حجاجاً يسعون إلى زيارة الأراضي المقدسة وأداء فريضة
الحج ، أو تجاراً مهمهم ملأ أيديهم من المكاسب التجارية . ثم ازدادت حركة
الهجرة من الأندلس إلى المشرق بعد الأحداث التالية :

(١) راجع بحثي عن التأثيرات الأندلسية في الجزائر ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ،

ص ١٦٧ .

(٢) راجع التفاصيل في كتابي : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٣٨ - ١٤٣ ؛ تاريخ البحرية
الاسلامية في المغرب والاندلس ص ٧٥ - ٨٠ ؛ تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ،
ص ٤١ .

١ - قيام الفتنة وسقوط الخلافة الأموية بقرطبة . ٢ - استيلاء الفونسو السادس على طليطلة في سنة ٤٧٨ هـ . ٣ - هزيمة العقاب التي مني بها الموحدون في سنة ٦٠٩ هـ .

وعلى هذا النحو نزل مصر كثير من الوافدين من أهل الأندلس على الأخص من علمائها، نخص بالذكر منهم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، وأبو عبد الله محمد بن لب الشاطبي، وأبو محمد عبد المنعم عمر المالقي، وأبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية .

ويعتبر عصر المماليك العصر الذي تسربت فيه التأثيرات الأندلسية الى مصر، إما عن طريق التجار الذين تربطهم بمصر علاقات تجارية عبرت عنها الماعهات التجارية المعقودة بين أرغون وقشتالة وبين مصر^(١) أو عن طريق المهاجرين الأندلسيين الذين خرجوا من الأندلس على أثر استيلاء النصارى على مدنها . وقد يكون من بين هؤلاء الأندلسيين جماعة من أرباب الحرف والفن استخدمهم سلاطين مصر ونوابهم في أعمال البناء والزخرفة والصناعات . وتتجلى هذه التأثيرات القرطبية والأندلسية في العقود المنفوخة المتجاوزة والعقود التوأمية في الواجبات والمآذن^(٢)، كما تتجلى في القبوات المقربصة^(٣) . ولكنها تظهر في جامع ابن طولون صريحة كما لو كانت منقولة نقلاً مباشراً من

(١) انظر الماعهات بين اسبانيا المسيحية ومصر في : Maximiliano Alarcon , los documentos arabes del archivo de la corona de Aragon, pp. 335, 344, 372

وراجع أيضاً : أحمد دراج ، المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٧٠ - ٧٣ ، ٩٧ - ٩٨ ، ١١٠ - ١١٢ وملاحق ١٠٠٩ ، ١٢٠ .

(٢) نشأهما في نوافذ قبة فاطمة خاتون ، وفي ضريح سنجر الجارلي ، وفي ضريح زين الدين يوسف وضريح المنصور قلاوون وفي جامع ألباي اليوسفي .

(٣) انظر مقال : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة ، عدد ١٢ ، سنة ١٩٥٧ ص ٨٨ - ١٠٠ .

قرطبة ، وتمثل هذه التأثيرات في العقود المنفوخين الذين يحملان القنطرة الموصلة بين مسجد ابن طولون ومثذنته ، وفي عقد المدخل الى المئذنة ، وفي العقود المتجاوزة الخلافة . وبأدنى مثذنة ابن طولون تحت القنطرة الموصلة بين المئذنة والمسجد كوابيل تماثل نظائرها في واجهة الصحن بجامع قرطبة^(١) . ومن المعتقد أن هذه العناصر المعمارية أندلسية الأصل قد تداخلت في بناء مثذنة جامع ابن طولون على أبا الم السلطان المملوكي حسام الدين لاشين المنصوري .

كذلك ظهر في بعض المساجد المملوكية نوع معقد من القبوات ، قسمت فيه القبوة الى تقاسيم هندسية متعددة ، تتشعب خطوطها من كل ركن من أركان القبوة بحيث تترك فراغاً مركزياً يشغله صليب تتوسطه قبيبة زخرفية مطبقة من النوع المفصص الذي يشبه قباب قرطبة . ويعزو الأستاذ هوتكير أصل هذا النظام الى تأثير سوري^(٢) ولكنه نسي أن الشكل الصليبي الذي يشغل القسم المركزي من القبة يرجع الى تقاليد أندلسية ، فقد ظهر في قباب قرطبة مع الضلوع المتقاطعة التي تؤلف الهيكل البنائي للقباب ، كما تطور بعد ذلك إلى صور زخرفية في طليطة وسرقطة وقلسان بحيث فقدت الضلوع المتقاطعة في قبوات مسجد الباب المردوم ، ومسجد المسلمين بطليطة ، وفي قبة المحراب بجامع قلسان وظائفها المعمارية . ثم ظهرت المقرصات في عهد

(١) Torres Balbas, Intercambios artísticos entre Egipto y el Occidente musulman, al - Andalus, vol. III, 1935, pp. 411 - 424
السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٦ .

(٢) Hauteceur et Wiet, les mosquées du Caire, t. I, 1932, p. 277

المرابطين والموحدين ، وانصهرت مع الضلوع المتقاطعة في القبة كما هو الحال في قباب جامع تنال والكتيبة بمراكش ، ويتجلى هذا النوع من القبوات في قبة مدخل الجاي اليوسفي ومدرسة المؤيد شيخ^(١) بالقاهرة .

(١) بعض التأثيرات الأندلسية ، ص ٩٩ .

القسم الرابع

التراث الفني والعلمي

الفصل الحادي عشر : فن الغناء والموسيقى

الفصل الثاني عشر : الفنون والصناعات

الفصل الثالث عشر : الحركة العلمية

الفصل الحادي عشر

فن الغناء والموسيقى

- (١) تطور فن الغناء والموسيقى من الجاهلية حتى عصر الدولة العباسية
- (٢) قرطبة المركز الرئيسي لفن الغناء والموسيقى في الأندلس في عصر الدولة الاموية
- (٣) مراكز الغناء والموسيقى في الأندلس بعد سقوط الخلافة الاموية
- (٤) فن الغناء والموسيقى في عصر المرابطين والموحدين وبنو نصر

فن الغناء والموسيقى

(١)

تطور فن الغناء والموسيقى من الجاهلية حتى عصر الدولة العباسية

العرب من الشعوب التي أسهمت بنصيب وافر في تقدم فن الغناء والموسيقى في تاريخ الحضارات العالمية، فالحجاز كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب على حد قول ابن عبد ربه ^(١)، والحيرة قبل الاسلام كانت ما تزال تحتفظ بقدر كبير من الثقافة السامية كلدانية وآشورية وما استجد عليها من ثقافة فارسية وقحطانية ويهودية، وكان لتفاعل هذه الحضارات وتواصلها في الحيرة أعظم الأثر في ازدهار هذا المركز الحضاري عالياً وفنياً وأدبياً، واشتهرت الحيرة بالغناء الحيري كما ذاعت شهرة آلاتها الموسيقية كالعود الحيري والمزمار والدف ^(٢). والقساسنة عاشوا في ديارهم ما بين الجولان واليرموك عيشة تجمع بين التبدي والتحضر، وقد وصف حسان ابن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم أحد أمراءهم فقال: «ولقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن إليه إياس بن قبيصة»، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من

(١) ابن عبد ربه، كتاب العقد الفريد، القاهرة ١٩٤٩، ج ٦ ص ٤.

(٢) يوسف رزق غنيمية، الحيرة المدينة والملكة العربية، بغداد، ١٩٣٦، ص ٩٠ -

فاصر الدين الأسد، القيان والغناء في العصر الجاهلي، بيروت، ١٩٦٠، ص ٤٨، ٤٩.

مكة وغيرها^(١). وفي اليمن وحضرموت انتشر الغناء والقيان انتشاراً يعبر عنه شعر الأعشى وامرئ القيس، وفي البادية عرف عرب الجاهلية ألواناً من الغناء منها الحداء الذي يصحب الإبل في قوافل الصحراء لتغذية السير، ومنها أناشيد الركبان، ونواح الثاقلات، وأراجيز الحروب، ومُكاء الحجاج، وغناء الكرائن (أي القيان المغنيات) من عهد عاد^(٢). وقسموا الغناء إلى ثلاثة أنواع:

١ - النصب غناء الركبان .

٢ - القينات والسناد وهو الثقيل الترجيع الكثير النغمات .

٣ - الهزج وهو الخفيف الذي يرقص عليه ويصحبه عادة النقر بالدف والنفخ بالمزمار^(٣) .

ولقد وصلنا عدد من أسماء المغنين الجاهليين ، نذكر منهم عدي بن ربيعة شاعر تغلب الذي لقب بمهل من أجل صوته ، وأعشى قيس الذي عرف بسناجة العرب إما لأنه كان يغني أشعاره مع العزف على الصنج^(٤) أو لجودة شعره وما يحدثه في الآذان من رنين يوحى لسامعه أنه يفشد على جرس الصنج^(٥) ، أو لسهولة شعره على الغناء^(٦) . وشاع استخدام عدد من الآلات الموسيقية في العصر الجاهلي بمضها وتريه وأخرى للقرع وثالثة للنفخ . فمن الآلات الوترية العود وقد عرف بأسماء مختلفة منها المزهر والكران والبربط

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مجلد ١٦، القسم الأول، طبعة بيروت ١٩٥٦ ص ٢٦ - أحمد أمين ، فجر الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٢١ .

(٢) شوقي ضيف ، الشعر والغناء في المدينة ومكة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٥٥ - نا والدين الأسد ، القيان والغناء في العصر الجاهلي ، ص ٢٩ - ٣٢ .

(٣) ابن عبد ربه ، ج ٦ ص ٢٧ - ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ - عبدالعزيز عتيق ، ابن أبي عتيق ، منشورات جامعة بيروت العربية ، ص ٨٩ (تحت الطبع) .

(٤) فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٢٨ وما يليها .

(٥) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٧ .

(٦) عبد الرحمن الحجي ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٥ .

والموتر^(١) ، ومن هذه الآلات أيضاً الجناك الفارسي والمعزفة والرباب والطنبور والمربع^(٢) . ومن آلات القرع : الدف والطبيل والصنج والجلجل^(٣) ، ومن آلات النفخ : الناي والمزمار والقصابة والصّور والناقور^(٤) ، وتعتبر الجلجل والصنوج والدف والكرج^(٥) من آلات الأنغام الراقصة وتستخدمها الراقصات لتوقيع الأصوات على الحركات .

ولما ظهر الإسلام أباح من الغناء والموسيقى ما يستخدم للتعبير عن المشاعر البريئة ، وحظر كل غناء فيه تبذل وجاهلية وتخنث^(٦) ، ولكن أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما - تشددا مع الملّين وقيان الحانات^(٧) ، وأسها بهذا التشدد فيما أشيع عن كراهية الاسلام للغناء والموسيقى ، وإن كان النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يحرمه ولم ينه عنه ولم يحّد في سماع الغناء والموسيقى ما يتعارض مع الاسلام . ثم أدت سياسة التساهل واللين التي اتبعها الخليفة الراشد عثمان بعد تشدد الشيخين وتضييقها على المسلمين ، وإسرافه في إدارار القطائع والأرزاق والأعطيات إلى شيوع لون من الترف والرفه يذكر بما كان شائعاً في

(١) ابن عبد ربه ، ج ٦ ص ٢٧ .

(٢) فارمر ، ص ٢٦ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) نفسه .

(٥) يتكون من تماثيل خيل مسرّجة من الخشب تعلق بأطراف أقبية تلبسها النساء ، يحاكن بها امتطاء الخيل فيكرونها ويفرون ويتناقفون في الولائم والأعراس والأعياد وبجالس الفراغ واللهو (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٦٦) .

(٦) راجع في ذلك الأمثلة الواردة في : فارمر ، ص ٥١ - شوقي ضيف ، الشعر والغناء

ص ٥٨ - الحجي ، ص ١٨ .

(٧) أورد المؤرخون أمثلة كثيرة لهذا التشدد والصرامة ، فقد استخدم عمر الدرة لضرب جوازي يضرّن الدقوف ويغنّين (ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، لندن ١٨٨٥ ص ٤٣ - شوقي ضيف ، ص ٦٣) وذكر الطبري أن المهاجر بن أمية أحد قادة الردة أمر بقطع أيدي مغنيتين غنّت إحداها بشم النبي والأخرى تغنّت بهجاء المسلمين ، ونزع ثنية الأولى حتى تعجز عن الغناء والعزف (الطبري ، طبعة بيروت ، ج ٣ ص ٢٧٧) ؛

الحواضر الحجازية في الجاهلية ، وأغرى تدفق الأموال والرقائق على المدينة الناس بالاستمتاع بالحياة والتخلي عن الزهد والإقبال على اقتناء القيان وأمهـر المغنين ، وكان ذلك من المآخذ التي أخذت على عثمان وتسببت في قيام الفتنة التي أطاحت به ^(١) . وكان من الطبيعي أن يتطور فن الغناء والموسيقى في أعقاب عصر الفتوحات الأول ، فبعد أن اكتظت المدينة بـمجاهير الأسرى والسبي ، وقدفقت على المسلمين كنوز كسرى وهرقل لم يتردد الناس في التخلي عن خشونتهم والإقبال على الترف ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ ، وافترق المغنون من الفرس والروم ، فوقموا إلى الحجاز ، وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جميعاً بالعبدان والطنابير والمعازف والمزامير ، وسمع العرب تلحينهم للأصوات ، ولحنوا عليهم أشعارهم » ^(٢) . وظهر في المدينة في هذه الفترة نوع من الغناء يعرف بالغناء المتقن والغناء الموقع ، ونعني به الهزج والسناد ^(٣) ، فظهرت عزة الميلاء المغنية ^(٤) التي اقتنت بالمدينة داراً كان يقصدها رواد الغناء من أهل المدينة لسماعها ، كما ظهرت جميلة التي يروى أنها ظهرت للحج في موكب يقص بالمغنين والمغنيات . ثم برز طويس أستاذ عدد من مشاهير المغنين والمغنيات منهم ابن مريج والدلال ونومة الضحى ^(٥) ، وأول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق ^(٦) ، وأول من تغنى في المدينة غناء يدخل في الإيقاع يسميه أبو الفرج

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٥٥٠ ، ٦٨٩ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٦٥ .

(٣) فارمر ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٤) تاملت على سيرين المصرية التي كان المقوقس قد أهداها للثني (الحفني ، إسحق الوصلي ،

ص ٢١ - ناصر الأسد ، ص ٩٧) .

(٥) ابن عبد ربه ، ج ٦ ص ٢٩ .

(٦) نفسه ، ص ٢٧ .

الغناء المتقن^(١) ، وأول من ألقى الحنث بالمدينة ، فقد ذكر ابن عبد ربه أنه كان يعني لأبان بن عثمان بن عفان والي المدينة وقد خضب يده غمساً ، واشتمل على دف له ، وعليه ملاءة مصقولة ، وكان ينقر على الدف ويعني^(٢) . كذلك ظهر سائب خاثر معلم عزة وابن سريج ومعبد ، وأول من عزف على العود من المغنين العرب ، وهو الذي ابتكر الإيقاع المسمى الثقيل الأول^(٣) . ويعتبر معبد المغني إمام المغنين في المدينة زمن الأمويين ، وهو صاحب الألحان التي عرفت بدارات معبد^(٤) . وفي تفوق معبد في فن الغناء على سابقيه يقول الشاعر :

أجاد طويس والسريحي بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد

ومن أشهر المغنين في العصر الأموي حنين الحيري ، وكان نصرانياً من أهل الحيرة وتزعم حركة الغناء في العراق^(٥) ، ومنهم ابن محرز أشهر المغنين الموالي في مكة ، وجمع بين ألحان الروم والفرس ، وعرف بصنّاج العرب لجمال صوته وحسن أدائه^(٦) ، ومنهم ابن طنبورة اليميني وكان أهزج الناس وأخفهم غناء^(٧) ، والغريص — من مولّدي البربر — وكان تليزداً لابن سريج ، وجعله إسحق الموصلي أحد خمسة تفوقوا في فن الغناء بالحجاز^(٨) ، ومن أشهر المغنين بمكة أيضاً الأيحر الذي لزم الخليفة الوليد بن يزيد حتى قتل الوليد . واشتهر

(١) الأغاني ، ج ٢ ص ٣٢٥ وما يليها .

(٢) ابن عبد ربه ، ص ٢٨ — عبد العزيز عتيق ، ص ١٢٨ .

(٣) الأغاني ، ج ٨ ص ٣٢٤ — الحفني ، إسحق الموصلي الموسيقار القديم ، ص ٢٠١ . وظهر أيضاً في هذا العهد عدد من كبار المغنين منهم نشيط وقتد والدلال .

(٤) ابن عبد ربه ، ج ٦ ص ٢٥ — شيخاني ، أشهر المغنين عند العرب ، بيروت ، ص ١٥ .

(٥) الأغاني ، ج ٢ ص ٢٣٥ — ٢٤٨ ؛ شيخاني ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٦) الأغاني ، ج ١ ص ٢٧٤ — ٢٧٨ — عبد العزيز عتيق ، ابن أبي عتيق ، ص ٩٤ .

(٧) ابن عبد ربه ، ج ٦ ، ص ٣٠ .

(٨) محمود الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ٢٥ .

في العصر الأموي من المشتغلين بفن الغناء كذلك عطرده ويونس الكاتب ويحيى بن قنيل والبيذق الأنصاري ، كما اشتهرت من المغنيات جميلة وسلامة الزرقاء وسلامة القس وأم عوف ، وذكروا أن يزيد بن عبد الملك أغرم بسلامة القس^(١) ، كما أغرم بحبابة^(٢) ، وكان الوليد بن يزيد عالماً بصناعة تأليف الألحان ، كما كان يوقع بالعود ويضرب بالطبل والدف ، وإليه يرجع الفضل في ارتقاء فن الغناء والموسيقى العربية حتى اقتدر اسمه بهذا الفن ، فأطلق عليه اسم خليع بني مروان ، وذكروا أنه ورث الطرب في الشعر عن أبيه ، وكان « أول من حمل المغنين من البلدان إليه ، وجالس الملحنين وأظهر الشرب والملاهي والعزف ، وفي أيامه كان ابن سريج المغني ومعبد والغريز وابن عائشة وابن محرز وطويس ودحمان ، وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه وعلى الخاص والعام ، واتخذ القيان^(٣) . وكان يقول أن الغناء أحب إليه من كل لذة وأشهى إلى نفسه من الماء إلى ذي الغسلة^(٤) ، وذكر ابن الأثير أنه كان مع الوليد يوم قتل مالك بن أبي السمع المغني وعمرو الوادي المغني^(٥) .

ولقد تأثر فن الغناء والموسيقى في العصر الأموي بفنون الغناء عند الفرس ، خاصة فيما يتعلق بأسماء بعض الآلات الموسيقية كالجناك والبربط وبعض الاصطلاحات الموسيقية مثل دستان الفارسية بمعنى حساس أطلقها العرب على مواضع الأصابع في لوحة الأصابع بالعود أو الطنبور^(٦) . كذلك نقل الحناء

(١) ابن عبد ربه ، ص ١٦ .

(٢) ذكر السعدي أنه لما مرضت أقام أياماً لا يظهر للناس ، فلما ماتت أقام أياماً لا يدفنهما جزعاً عليها حتى جثت (السعدي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٩٨ وما يليها) .

(٣) السعدي ، ج ٣ ص ٢١٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت ١٩٦٥ ، ج ٥ ص ٢٩٠ .

(٥) نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٦) فارمر ، ص ٨٦ .

الأمويون (ثم العباسيون) عن الفرس بعض عادات ملوك الفرس في مجالس الغناء والطرب ، فحاكوه في تقسيم المغنين والندماء إلى طبقات ، وفي احتجاب الخليفة عن المغنين بستارة حتى يكون بينه وبين أول طبقاتهم عشرون ذراعاً فلا يطلع أحد من الحاضرين على ما يفعله الخليفة للتعبير عن نشوئه بالغناء بالرقص أو بحركة زفير تتجاوز المقدار ^(١) .

ولما دالت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية اعتمد العباسيون على العناصر الفارسية في تصريف شؤون الدولة اعترافاً منهم بفضل الفرس عليهم ، وأفسحوا لهم المجال في الوظائف الكبرى والمناصب القيادية في الدولة ، وكان من الطبيعي لذلك أن نشهد في هذا العصر سيطرة العنصر الفارسي في جميع مناحي الحياة أدبية ومادية ، وعلى هذا النحو تسرب إلى الموسيقى العربية الكثير من ضروب النغم الفارسي ، فازدهر فن الغناء والموسيقى في هذا العصر حتى وصل إلى ذروته في عصر الرشيد الذي تمت فيه كل فنون المعرفة واكتملت كل مقومات النهضة الفنية بتشجيع من الخلفاء بحيث يمكننا أن نعتبر هذا العصر العصر الذهبي للموسيقى العربية . فقد كان المهدي من أكثر الخلفاء العباسيين حبا للموسيقى والغناء ، وكان بلاطه يكتظ بالمغنين وذوي المواهب الفنية أمثال حكم الوادي وسياط وإبراهيم الموصلي ، ويشير ابن خلكان إلى أنه كان أحسن الناس صوتاً ، وكان أبو اسحق إبراهيم بن المهدي العباسي من كبار المغنين والموسيقيين في بلاط الرشيد والأمين ، وعد إبراهيم بن المهدي زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية الفارسية بخلاف اسحق الموصلي الذي تزعم المدرسة التقليدية العربية ^(٢) . وكان عالماً بفن الموسيقى

(١) الحفني ، اسحق الموصلي ، ص ٢٧ .

(٢) فارمر ، ص ١٤٢ .

والنغم ، فألف كتاباً في الغناء ^(١) .

وكان موسى الهادي رغم قصر عهده مغرمًا بالغناء والموسيقى ولهذا فقد قرب إليه ثلاثاً منهم هم : إبراهيم الموصلي وابن جامع وحكم الوادي . أما هارون الرشيد فقد أسرف في عنايته بالمغنين والمغنيات والموسيقيين ، وأنفق على ذلك الأموال الطائلة حتى تجمعت لديه من أصحاب المواهب شخصيات عديدة لامعة منهم : ابن جامع ، ويحيى المكي ، وزلزل ، ويزيد حوراء ، وفليح بن أبي العوراء ، وعبد الله بن دحمان ، والزيبر بن دحمان ، وإسحق الموصلي ، ومخارق ، والغنوي ، وعبد الرحيم الدفاف ، وابن قتيلا الطنبوري ، ومسكين المدني ، وفريدة ، وعلوية ، وابن الحارث ، وعمرو الغزال ، وبرصوما الزامر ، ومحمد الدف ^(٢) . ومن العوامل التي ساعدت على ظهور هذه الأعداد الهائلة من المغنين والمغنيات اشتغال كثير من الناس بتجارة الرقيق والنخاسة في بغداد واتساع ثرواتهم لذلك ، وشغف الناس بالغناء مما استلزم اهتمام النخاسين بتلقيح الجوارح أصول فن الغناء والموسيقى مع القدرة على العزف بالآلات وتحصيل قدر واف من فنون الشعر والأدب ^(٣) . وقد اهتم العباسيون بتدوين الغناء ومذاهبه ، وأول من دون الغناء يونس بن سليمان الكاتب المعروف بيونس المغني في العصر الأموي ، فوضع كتاباً في النغم ^(٤) ، والخليل بن أحمد الذي صنف كتاباً في الموسيقى قيد فيه الألحان وأصناف النغم ^(٥) ، ويحيى بن أبي مرزوق المكي الذي ألف كتاباً في الأغاني جمع فيه

(١) ذكر ابن التديم أن لإبراهيم بن المهدي «صنعة في الغناء يتقدم بها كل أحد، وكان إسحق وإبراهيم قبله يأخذان عنه ويتحاكم المثنون إليه في صناعتهم» (الفهرست ، تحقيق فلوجييل ، ص ١١٦) .

(٢) فارمر ، ص ١١٢ .

(٣) الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ٥٨ وما يليها .

(٤) الفهرست ، ص ١٥٤ .

(٥) نفسه ، ص ٤٣ .

اثني عشر ألف صوت^(١) . وألف إسحق الموصلي كتباً في الأغاني وأخبار
عزة الميلاء وكتاب أغاني معبد وكتاب الأغاني الكبير وغيرها من الكتب التي
عالج فيها أخبار كبار المغنيين^(٢) . ومن كبار الكتاب في الأغاني أبو الحسن
علي بن هارون بن علي ، ألف رسالة في الفرق بين إبراهيم بن المهدي وإسحق
الموصلي في الغناء^(٣) ، ومن الكتاب في الأغاني والمشتغلين بالموسيقى والغناء :
جحظة البرمكي وكان حاذقاً بصناعة غناء الطنبور وصنف كتاب الطنبوريين^(٤) ،
وأبو أيوب المدني الغني ، الذي ألف عدة كتب في أخبار المغنيين وطبقاتهم^(٥) ،
وقريص الغني من حذاق المغنين وألف كتاب صناعة الغناء وأخبار المغنيين^(٦) .

شغف الناس بالغناء ومجالس الطرب حتى أصبح الغناء وكأنه ضرورة في
المجتمع العراقي في عصر الدولة العباسية ، وفي هذا العهد دخلت أنواع جديدة
من آلات النغم ، فقد أدخل زلزل نوعاً من الميدان سمي بالعود الكامل والعود
الشبوط^(٧) ، وأدخل زرياب وترّاً خامساً للعود ، واتخذت آلات جديدة
كانت معروفة عند الفرس كالكرج والجنك والقبوز والناي والكوس .
وظهرت التخصصات في طائفة من المغنين والموسيقيين : فزلزل كان إمام
الموادين ، وبرصوم كان أبرع من عزف بالناي والمزمار ، وجعفر الطبال كان
خير من من وقع الطبل والكوبة^(٨) ، وإبراهيم الموصلي أول من وقع
بالقضيب^(٩) .

(١) الصادق المزدكي ، الأغاني التونسية ص ٣٣ .

(٢) الفهرست ، ١٤١ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٤٥ .

(٥) نفسه ، ص ١٤٨ .

(٦) نفسه ، ص ١٥٦ .

(٧) فارمر ، ص ١٣٠ - الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ١٣٥ .

(٨) الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٩) ابن عبد ربه ، ص ٣٢ .

قرطبة المركز الرئيسي لفن الغناء والموسيقى
في الأندلس في عصر الدولة الأموية

شغل ولاية الأندلس، قبل قيام عبد الرحمن الداخل بتأسيس دولته، بالغزو فيها وراء البرانس ثم بالصراع بين العصبيتين اليمنية والمضرية عن الاهتمامات الخاصة والفنون والآداب، فتعطلت الحركة العلمية والفنية في هذا العهد، ولكننا سنشهد منذ قيام الدولة الأموية دفعا متواصلا بتشجيع أمراء بني أمية لهذه الحركة العلمية والفنية في قرطبة الحاضرة. ولقد اعتبر فن الغناء والموسيقى والرقص في الأندلس منذ طليعة القرن الثالث الهجري أكثر وسائل اللهو شيوعا وتفشيا في المجتمع الأندلسي، ولم تكن مجالس الأنس التي يعقدها الكبراء والأعيان بقرطبة مجالس حقيقية ما لم يصحبها غناء على نغم عود أو مزمار وما يتبع ذلك من حركات إيقاعية راقصة بطبيعة الحال^(١). ولقد زوى جمهور من أدباء الأندلس وعلى الأخص ابن بسام صاحب الذخيرة أوصافا رائعة ودقيقة للغاية شعرا أم نثرا تصور طريقة الاحتفال بهذه المجالس التي يعقدها الأمراء والخاصة بقرطبة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس، والتي بلغت من الكثرة إلى حد أن أخبارها ملأت مئات الصفحات في المصادر الأدبية الأندلسية، ومن أمثلة هذه المجالس ما رواه الحميدي، إذ ذكر أن عبدالله بن عاصم صاحب الشرطة بقرطبة - وكان أديبا سرييا بديهة، كثير النوادر - دخل على الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط في يوم ذي غيم وبين يديه غلام بهي الطلعة جميل الزي، فيأمره الأمير يسأله عما يصلح لمثل هذا اليوم، فأجابه قائلا: «عقار ينفر الذبان ويؤنس الغزلان»، وحدث

Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. (١)
III, Paris, 1953, p. 448.

كقطع الروض قد سقطت فيه مؤونة التحفظ ، وأرخى له عنان التبسط ،
يديرها هذا الأغيد المليح ، . فاستضحك الأمير ، ثم أمر بمراتب الغناء
وآلات الصبأ ، (١) .

وأمر المنصور محمد بن أبي عامر يوماً بإحضار الوزراء والندماء في مجلس
أنسٍ أعدده اللهو ، وحضر في جملة الحاضرين الوزير أحمد بن عبد الملك بن
شهيد في محفة إذ كان يعاني من نقرس لازمه ، وقضى الجميع يوماً لم يشهدوا
في اللهو مثله ، وطما الطرب وسما بهم حتى تصايح القوم وأخذوا يرقصون
بالنوبة حتى جاء دور ابن شهيد فأقامه الوزير أبو عبدالله بن عباس ، فجعل
ابن شهيد يرقص وهو متوكي عليه ، وارتجل أبياتاً وجهها إلى المنصور ،
فقال :

هاك شيخ قاده عذر لكا	قام في رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبنا	فانشئ يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها معتدلاً	نقرس أخنى عليه فاتكا
طرب اللهو وقد حق له	طرباً أرمضه حتى اشتكى
من وزير فيهم رقاصة	قام من طيب يناغي ملكا
أنا لو كنت كما تعرفني	قمت لإجلالا على رأمي لكا
قهقه الإبريق مني ضحكا	ورأى رعشة رجلي فبكى

وكان من بين الحاضرين رجل بغدادى من أصحاب ابن شهيد يعرف
بالكك حسن النادرة فشهد ابن شهيد في بداية المجلس - وقد ألح عليه ألم
النقرس - كلما حانت صلاة صلاها جالساً ، فلما دحى الوطيس ، وأنس
الجلس ، وطاب المجلس ، ودارت الأكؤس ، ونسي أوجاع النقرس ، وقام ذلك

(١) الحميدى ، جذوة المقتبس ، الثامنة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦٤ - المقري ، نفح الطيب ،
ج ٤ ص ٢٣٠ .

الصاحب الجليس يرقص، ودار الدور حتى انتهى الى ابن شهيد فقام يرقص، فلم يملك البغدادي نفسه أن قال : « الله درك يا وزير تصلي بالقاعدة وترقص بالقائمة » (١) .

ويعتبر أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد (حفيد ابن شهيد السابق) هو الآخر عن حالة المرح التي تتخلل مجالس الأنس ، فيصف . مجلساً للشراب واللهو شارك فيه يرقصه :

وعلا بنا سكر أبى إلا الإنابة للمحارم
زمني قلانسنا له ونجر من عذب الميائم
وترنمت فيها القيان لنا ورجعت البواغم
فنا نصفق بالأكف لها وترقص بالجماجم (٢)

ويروي ابن بسام - نقلاً عن ابن حيان - وصفاً رائعاً كاملاً لمجلس أنس عقده المأمون ابن ذي النون في قصره بطليطلة ، وأحضر فيه جميع آلات الأنس ، ثم مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ، « ونظمت نوبة المغنين زمراً فهاجوا الأطراب ، واستخفوا الألباب » (٣) .

ونستدل من الأمثلة السابقة على أن معظم مجالس الأنس والطرب في الأندلس كانت تختلف عنها في بغداد ، فبينما يصطف الندماء في قاعة المجلس وبأيديهم كؤوس الراح وأمامهم الموائد حافلة بالفواكه ، كانت المغنيات يقفن حاملات

(١) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ١٧ - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) دبران ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق يعقوب زكي ، القاهرة ، ص ١٥٦ - شارل بلا ، ابن شهيد الأندلسي ، حياته وآثاره ، عمان ، ١٩٦٥ ص ١١٦ .

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ١٠٥ . وارجع الى النص الكامل لهذا المجلس في الملحق .

العبدان والطنابير ، وأخريات بأيديهن المزامير والأبواق والدفوف ، بينما تقتصر المجلس مغنية حالسة ويدها عود قد أسندته على ركبتيها ، أما في الأندلس فقد تكون هناك مجالس مثل هذه الأبهة البغدادية ، كما يحدث عادة في حفلات المرس والإعذار ، ولكن معظم المجالس الأندلسية تجري على نسق بسيط ، فهناك مغنية تغني على أنغام عود تضرب عليه أو مزمار ينفخ فيه زامر أو صنّج تقوم مقام الزمرة وذلك في حالة إذا ما أشركت في المجلس راقصة مع الزامر ، وتعرف هذه المشاهد اليوم باسم Zambras ، ويعتقد الأستاذ ليفي بروفنسال أنها مشتقة من الزمرة ، كما يعتقد أن التزام الأندلسيين بهذا النوع من المجالس البسيطة هو إرث تقليدي من عهود الأندلس القديمة عندما كانت فتيات قانس يرقصن رقصات تصحبها صلصلة الصنّج البرونزية ، ولهذا فإن مجالس الأندلس في العصر الإسلامي في رأيهم زمرات ومشاهد من الرقص والطرب الأيبيري الحقيقي أكثر منها مشاهد لحفلات موسيقية من طابع حفلات زرياب ، وأن هذه المجالس الأندلسية القديمة أحيها ابن قزمان بأزجاله في القرن الثاني عشر^(١) . على أننا مع اعتقادنا بوجود فن أندلسي تقليدي للغناء والموسيقى والرقص ما زال ينبض اليوم بالحياة لا ينبغي أن نتجاهل الأثر الشرقي البغدادى والمدني فيه ممثلاً في شخصيات زرياب وصاعد وقر من العراق وشخصيات عابدة وفضل وعلم المدينيات ، هذا إلى جانب بعض الشخصيات المحلية . هذه التأثيرات الفنية تدفقت على الأندلس من المشرق الإسلامي الذي كان يعتبر في نظر الأندلسيين المعين الذي لا ينضب بثروته من العلماء والفنانين ، ويكفي أن نذكر من أسماء الأدباء المشاركة الذين وفدوا إلى الأندلس أسماء أبو علي القالي ، وصاعد اللغوي ، وأبو الفضل محمد ابن عبد الواحد البغدادى الدارمي ، وأبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني الفيلسوف والأديب . وعلى الرغم من أن فقهاء الأندلس كانوا لا ينظرون إلى

(١) Lévi - Provençal, op. cit. p. 451 - وراجع له أيضاً : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم .

الموسيقى والغناء بعين الرضا ويعتبرون الاشتغال بها أمراً مُحِطاً لا يليق إلا بالموالي والإمام ، ويقدمون أحياناً على منع بيع كتب الغناء والموسيقى علناً ، بل يعتمد القضاة المتشددون إلى إصدار الأمر بكسر آلات الموسيقى التي يحملها المغنون في الطرقات ، على الرغم من ذلك فقد شاع الغناء في الأندلس ونفقت سوق الفن الموسيقي في هذه البلاد ^(١) ، فشارك فيه الأمراء والأدباء وبعض الشخصيات البارزة ؛ فقد كان الأمير أبو القاسم المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط عالماً بالغناء ^(٢) ، كما ينتسب أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبد العزيز إلى بيت جليل ، وكان أسلم هذا شاعراً وأديباً وعالماً بالغناء وألف كتاباً خصصه لأغاني زرياب ^(٣) ، وكانت ولادة بنت المستكفي قديرة في صنعة الغناء ^(٤) ، وكان أبو الأصبع عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر مغرمًا بالخمر والغناء ، فلما بلغ الحكم المستنصر أنه ترك الخمر حمد الله وتمنى عليه أن يترك الغناء أيضاً ، فأجابه قائلاً : « والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها » ، ثم قال :

أنا في صحة وجاه ونعمى هي تدعو لهذه الألمان
وكذا الطير في الحداثق تشدو للذي سر نفسه بالقيان ^(٥)

وكان عبيد الله بن محمد الرشيد من أبناء المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يجيد ضرب العود ^(٦) ، وكان الوزير أبو الحسين بن أبي جعفر الوقشي عالماً بالموسيقى يجيداً للغناء ^(٧) ، وكان عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب أوحده عصره

(١) آنخل جنثالث بالنشيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ص ٥٥ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ص ١٢٨ .

(٣) ابن حزم القرطبي ، كتاب طوق الحمامة ، ص ١٨٦ - المجيري ، ص ١٧٢ .

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٥ ص ٣٣٤ .

(٥) نفس المرجع ، ج ٥ ص ١٢٣ .

(٦) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ص ٦٨ .

(٧) المقرئ ، ج ٥ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

في الغناء الرائق والأدب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق ورقة الطبع ، وكان « أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصنعة اللحون » ، وكثيراً ما غنى على نفقات بشارة الزامر^(١) . ومن الأمثلة الدالة على شيوع فن الغناء والموسيقى في طبقات المجتمع القرطبي والأندلسي أن القاضي أبا عبدالله محمد ابن عيسى من بني يحيى بن يحيى الليثي ، خرج ليشهد جنازة ، فألح عليه أحد أصحابه - وكان له منزل بقرب مقبرة قریش - في أن يزوره في بيته ، فزاره ، فأحضر له طعاماً وغنّت جارية أبياتاً ، فكتبها القاضي طرباً على ظهر يده ، ثم شوهده يُكبّر في الجنازة والأبيات على ظهر يده^(٢) .

ويعتبر عصر دولة بني أمية في الأندلس العصر الذهبي لفنون الغناء والموسيقى وما يتبعهما من فنون اللهو كالرقص والتهريج والألعاب والفكاهة ، وصحب هذا الازدهار الفني ازدهار أدبي واضح المعالم لارتباط فن الغناء بالشعر ، وعلى الرغم من ظهور عدد كبير من فحول شعراء الأندلس الذين يتسم شعرهم بالركة المتناهية أحياناً وبالتعميد الزخرفي الذي يشبه التوريقات المتشابكة في الزخرفة الإسلامية أحياناً أخرى ، واستحداث ألوان جديدة من الشعر كالموشحات والأزجال ، فإن ابن شهيد ينمى على الشعر الأندلسي خلوه من الأصالة والتجديد ويرجع سبب ذلك إلى سوء مستوى معلمي اللغة في قرطبة وبتهمهم بأنهم لا يهتمون إلا بحفظ الكلمات والتقليد دون الطبع ، ويشبههم في تفهم كتب البديع والنقد « بما يفهمه القرد الياني من الرقص على الإيقاع والزممر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها فيما يجري عندهم من لم يرزق آلة الفهم ومن لم تكن له آلة الصناعة مما هي مخصوصة بها ، ولا تقوم تلك الصناعة إلا بتلك الآلة ، فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتوقد رسغه

(١) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) المقرئ ، ج ٥ ص ١٠٤ .

واستدارة حافره ولا له بنان يحس به على دستان ،^(١) . والظاهر أن ابن شهيد قد بلغ به حبه لوطنه قرطبة إلى هذا الحد من توجيه النقد إلى أدبائها وشعرائها ، ومن المعروف أن ابن شهيد كان متعصباً لقرطبة محباً لها حتى بعد انقراض دولة بني أمية في أعقاب الفتنة ، ومن المعروف أيضاً أنه لم يبارح قرطبة مسقط رأسه إلا مرة واحدة في ظروف القاهرة ، وقد عبّر عن هذا الحب في رسالة بعث بها إلى المؤتمن يعتذر فيها له عن عدم اللحاق به بعشقه الذي يشكو منه لمجوز تدعى قرطبة تقاصر عن طولها قونكة ، وتبعد عن غنجها دانية ، وفي هواها يطيب له الموت ويلذ له سقي دمه لثراها^(٢) . وعندما اشتعلت نار الفتنة ومحت رسومها وطمست أعلامها وأصبحت قرطبة بعد تشرد أهلها صحارى مجدبة وفيافي موحشة بعد الأنس ، وشملها الخراب وعما الهدم^(٣) ، بكأها ابن شهيد بقوله :

فلمثل قرطبة يقل بكاء من	يبكي بعين دمعها متفجر
دار ، أقال الله عثرة أهلها	فتبربروا وتغربوا وتمصروا
في كل ناحية فريقت منهم	متفطر لفراقها متحير
عهدي بها والشملى فيها جامع	من أهلها والعيش فيها أخضر
ورياح زهرتها تلوح عليهم	بروائح يفتر منها العنبر

إلى أن يقول :

يا منزلاً نزلت به وبأهله	طير النوى فتغيروا وتنكروا
أسفي على دار عهدت ربوعها	وظباؤها بفنائها تبختر
أيام كانت عين كل كرامة	من كل ناحية إليها تنظر ^(٤)

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم أول ، مجلد أول ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٥ .

(٣) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٤٩ .

(٤) ديوان ابن شهيد ، ص ١٠٩ - ١١١ .

أما ابن حزم فقد بلغ حبه لقرطبة - مسقط رأسه - مدى قومياً شمل الأندلس ، ورسائله في فضائل الأندلس ^(١) وحرصه على الرد على ابن الربيب القيرواني تؤكد هذا المعنى ، والحقيقة أن كل مظاهر الحضارة الأندلسية حتى عصر الطوائف كانت تتجسد في قرطبة الحاضرة ، فلما أطاحت بها الفتنة تمزقت الحضارة في الأندلس إلى أشلاء ، وفقدت قرطبة إلى الأبد قدرتها على الاستيعاب الشامل للحضارة المذكورة .

وهكذا كانت قرطبة زمن الأمويين قمة الحضارة ومركزها ، وأم المدائن ، ومستقر الخلافة ، ودار الإمارة ، ومقر العلم والعلماء ومعدن الفضلاء والأدباء ، ودار الهجرة للعلم وهدف الرحلة لأولى الفهم ^(٢) .

ولقد جرى الأمويون منذ قيام دولتهم في الأندلس على تجديد ما طمس من رسومهم في المشرق ، فاهتموا بفن الغناء والموسيقى ، وغرسوا من بذوره المشرقية أدواحاً في قرطبة ، وحرص مؤسس هذه الدولة وأعني به عبدالرحمن الداخل على أن يجعل من قرطبة دمشق أجداده ، وبغداد عصره ، فبعث إلى الحجاز تجاراً يشترون له الجوارى ممن ذاعت شهرتهن في فن الغناء والموسيقى فأغدق عليهن الأموال وبalg في إكراسن مشجعاً بذلك على اجتذاب أعداد كبيرة منهن أخذن يتوافدن على قرطبة ، وأولى المغنيات اللاتي استقدمهن الأمير الداخل المغنية فضل المدينة ، وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال ، وأصلها لإحدى بنات هرون الرشيد ، ونشأت وتعلمت ببغداد ، ودرجت من هناك الى المدينة أعظم مراكز الغناء في المشرق الاسلامي ، فأثقت هناك هذا الفن ، واشترت للأمير عبد الرحمن مع مغنية أخرى يقال لها

(١) فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سميذ والشقندي ، نشر المنجد ، بيروت

١٩٦٨ .

(٢) ابن الشباط ، وصف الأندلس من كتاب صلة السمط ومسة الموط ، تحقيق الدكتور

أحمد مختار العبادي ، مدريد ١٩٧٢ ص ١٤١ - ١٤٢ .

علم المدينة ، ومغنيات أخريات استقدمن أيضاً من المدينة ، وخصص لهن داراً بفصره سُميت بدار المدينيات ، وكان يؤثرهن لجودة غنائن ورقة أدبهن . ثم أضيفت إلى هذه الفرقة مغنية تعتبر الثالثة بعد فضل وعلم في مراتب الغناء ، وهي الجارية قلم وكانت أندلسية الأصل من سبي البشكنس ، ثم حملت صبية إلى المشرق ، فوقعت في المدينة ، وتعلمت هناك فن الغناء فحذقت وأجادته^(١) . ويورد المقرئ اسم جارية سوداء اللون من رقيق المدينة وقدت على الأندلس في هذه المرحلة من التاريخ^(٢) ، ويشير المقرئ أيضاً إلى أن غزلان أم المطرف بن عبد الرحمن الأوسط ، كانت مغنية بديعة محسنة وعوادة أدبية^(٣) . وذكر المقرئ أيضاً أن عبد الرحمن الداخل اشترى جارية مدنية أخرى كانت تهم ، من أحسن المغنيات غناء اسمها المعجفاء جارية مسلم بن يحيى الزهري ، ذكروا أنه عندما سمعها الأرقمى ، ألقى عليها طيلسانه وأخذ شادكونة فوضعها على رأسه وصاح إعجاباً^(٤) ، وذكر ابن حزم أن عبد الرحمن الداخل أحب جارية اسمها دعياء^(٥) .

وفي عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل فتحت الأندلس أبوابها لكل من ضاق المشرق بمواهبهم من أهل الغناء والموسيقى ، فدخل الأندلس في عهده علون وزرقون أول الاثنين الذين وفدوا إلى الأندلس فنققا عليه ، وكانا محسنين في صحتها ولكن غناءهما تلاشى بغلبة غناء زرياب عليه^(٦) . وظهر في عهد الحكم بن هشام أيضاً موسيقي بارز ، هو عباس بن النسائي ، غنى للأمير قصائد من شعره^(٧) .

(١) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٦ .

(٣) نفسه ، ج ٥ ص ١٢٠ . ويذكر ابن حزم أنها أم بنية عثمان والمطرف والقاسم (ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١١) .

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٣٩ .

(٥) طوق الحمامة ، ص ١١ . (٦) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٢١ .

(٧) فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ص ١٥٤ .

ويرجع الفضل الأعظم في ازدهار فن الغناء والموسيقى بقرطبة إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ويمكننا أن نعتبر عهده العصر الذهبي لهذا الفن في الأندلس ، فقد كان أهم ما يتميز به أنه فنان رقيق المشاعر والأحاسيس ، شديد التأثر بالفنون الجميلة ، وعلى الأخص بفن الغناء ، ولذلك شغف بسماع الألحان والانتقام ، فرفع منزلة المغنين والموسيقيين ، وأحسن إليهم ، وأكرم وفادتهم ، وأغدق عليهم العطايا والخلع والأموال ، وفتح أبواب قرطبة لكل فنان وافد ، ورحب بهم في بلاطه ، وشجع غيرهم على قصده ، والسعي إلى ساحته ، وعلى هذا النحو أصبحت قرطبة في عصره محط الرحلة ومقصد أهل الفن والأدب ، وأشهر من قدم إلى قرطبة ليستظل برعايته المغنى البغدادي المشهور على بن نافع المعروف بزياب ، والمغني المصري عبد الواحد الاسكندراني^(١) . وبفضل عطائه للفن وأهله ، وبذله لقصاده ، سميت الحياة الفنية بقرطبة ، وتألفت في عهده ، وتحول مجتمع قرطبة في أمد قصير إلى مجتمع أقل ما يقال عنه أنه مجتمع راق ، يمكن أن نضاهيه بمجتمعات حواضر الشرق الزاهرة .

وأحدث دخول زرياب الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط ثورة شاملة على المجتمع القرطبي عامة ، وعلى فنون الغناء والموسيقى والفنون الصناعية في الأندلس بوجه خاص ، فقد أصبح زرياب بما أحدثه من تجديد في هذه الفنون الأندلسية صاحب مدرسة تسامى مدرسة إسحق الموصلي في بغداد ، « وأصبحت له طرائق أخذت عنه ، وأصوات استفادت منه ، وألفت الكتب بها ، وسلا عند الملوك هنالك بصناعته وإحسانه فيها علواً مفرطاً ، وشهرة شهرة ضرب بها المثل في ذلك »^(٢) . وقد صنف أسلم بن أحمد بن سعيد ابن القاضي أسلم بن عبد العزيز كتاباً في أغانيه ، وفي طرائق غنائيه

(١) ابن حيان ، المقتبس ، نشر دكتور مي ، ص ١٦٩ .

(٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ١٠٢ ، ١٧٢ .

وأخباره^(١) ، لم يصل إلينا .

لقد كثر الحديث عن زرياب منذ أن كان تلميذاً لاسحق الموصلي في بغداد يتلقى عليه كل خبراته وتجاربه ، ويختلس من أغانيه وألحانه ، ويتلقفها استراقاً ، حتى خروجه إلى المغرب عندما أصبح نبوغه في صناعته ، وتفوقه على أستاذه خطراً يهدد حياته في بغداد ، إلى أن اجتذبت أعضاء المجتمع القرطبي الساطعة ، وحملته على نزولها واستيطانها ، في رعاية الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بحيث أصبح ما يقال عنه بعد ذلك ضرباً من التكرار الذي لا طائل وراءه^(٢) . وقصارى القول ، لقد لقي وفود زرياب إلى الأندلس ترسيباً حاراً على الصعدين الرسمي والشعبي ، فقد كتب الأمير إلى عماله في البلاد التي يمر عليها زرياب في طريقه من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، أن 'يحسنوا إليه' ، وأمر فتي من كبار فتيان بلاطه ، لعله نصر أو مسرور ، أن يتلقاه أحسن لقاء ، وأن ينزله في دار من أفخم دور قرطبة ، ويحمل إليه جميع ما يحتاج إليه ، ثم أمر له الأمير بأن يجري له هو وأولاده رزقاً شهرياً معلوماً^(٣) ، وأن يمنح بمناسبة الأعياد ثلاثة آلاف دينار في العام ، ويخصص له من الطعام ثلاثمائة مدى شعير وقمح ، ويقطع من دور قرطبة ومستغلاتها وبساتينها وضياعها ما يقدر بأربعين ألف دينار^(٤) ، كل ذلك فعهده الأمير مستهدفاً لإشاعة الطمأنينة في قلب هذا الفنان حتى يتهيأ له أن ينتج ويحيد ،

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٨٦ - الحميدي ، جنوة المقتبس ، ص ١٧٢ .

(٢) لدراسة حياة زرياب ، انرجع إلى : العقدة الفريد ، ج ٦ ، ص ٤٣ وما يليها - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١١٨ - ١٢٨ ؛ وانظر : جنتالت بالثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٥٢ - ٥٥ ؛ الحجبي ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ص ٢٨ - ٣٧ ؛ عبد العزيز سالم ، فن الغناء والموسيقى بالأندلس ، كتاب الشعب رقم ٦١ ، ص ٩٩ - ١٠٥ ، محمود الحفني ، زرياب موسيقار الأندلس ، مجموعة أعلام العرب رقم ٥٤ .

(٣) جعل لزرياب مائتي دينار راتباً ، ولكل من يليه الذين قدموا معه عشرين ديناراً .

(٤) المقرئ ، ص ١٢٧ .

ولما استوثق من أنه حقق له ما يصبو إليه استدعاه وجالسه على النبيل ، وسمع غناؤه ، فاستموله ، وطرح كل غناء سواه ، وأحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين ، وفتح له باباً خاصاً في قصره يستدعيه منه متى أراد . وذكر ابن القوطية القرطبي ، أنه غناه يوماً صوتاً استحسنته الأمير ، فأمر الخزان بأن يدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار ، فامتنع الخزان عن دفع هذا المبلغ الكبير لمغن ، وأرسلوا إلى الأمير يطلبون منه أن يدفعه من ماله ، ففعل^(١) .

وكان زرياب يلحن أشعاره بنفسه ، وذكروا أنه ادعى بأن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة أي دور إلى صوت واحد ، وأنه كان يهب من نومه سريعاً فيدعو جاريته غزلان وهنيدة ، فيأخذان عودهما ، ويتناول عوده ، فيطارسحها ليلته ثم يكتب الشعر ويعود عجلًا إلى مضجعه^(٢) . ومع ذلك فقد كان زرياب يغني أشعار غيره وخاصة المشاركة في بعض الأحيان ، أمثال أبو العتاهية^(٣) .

وتتلخص جهود زرياب الفنية ومبتكراته فيما يلي :

١ — ابتكر وهو بقرطبة وترأ خامساً متوسطاً للعود ، وضعه فوق المثني وتحت المثلث .

٢ — اتخذ بالأندلس مضرباً للعود من قوادم النسر^(٤) معتاضاً به عن مرهف الخشب ، وكان لهذا الابتكار آثار هامة في تخريج الألحان والأنغام بسبب ليونة الريشة وخفتها على الأصابع وعلى الأوتار .

(١) ابن القوطية ، ص ٦٩ .

(٢) المقرئ ، ص ١٢١ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٥ ص ١٤٩ .

(٤) ابن دحية ، الطرب في أشعار أهل المغرب ، ص ١٣٧ .

٣ - ترجم كتاب الموسيقى لبطليموس ، وحفظ عشرة آلاف لحناً .

٤ - اتخذ رسوماً في مجالس الغناء استمرت في الأندلس من بعده ، فكان يفتتح الغناء بالنشيد بأي نقر ، ثم يأتي أثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والأهزاج (١) .

٥ - أسس مدرسة لتعليم الغناء ومعالجة الأصوات تبعاً لاختلاف طبائعها ، واكتشاف الموهوبين . وبفضل هذه الجهود الموفقة تألق عدد كبير من تلاميذه وتلميذاته ونجحوا في إتمام رسالة ، زرياب ، فنشروا الوعي الموسيقي عند العامة والخاصة ، وهذبوا أذواق أهل الأندلس فنياً ، وهيئوا المجال لظهور ألوان جديدة من الشعر الغنائي الأندلسي وأعني بها الموشحات والأزجال ، ولم يلبث حب الغناء والموسيقى عندهم أن تحول إلى شغف بالطرب وتلief للسمع ، فتمددت مجالس الغناء والأنس والشراب ، التي كانت تجمع العديد من المغنين والمغنيات ، حتى قيل إن أحد تلك المجالس ضم ما يقرب من مائتي مغني ومغنية يضربن بمختلف الآلات من عودان وطناير ومزامير (٢) ، وأصبح من الأمور المألوفة في قرطبة أن تتعالى أصوات الموسيقى من دور الخاصة ، ويتردد صدى أنغامها في الليل فتجتذب الطفيليين ومن شاء السماع والمشاركة من هواة الغناء .

ولكن هذه الشهرة التي أصابها زرياب ، واستثنائه دون غيره بصحبة الأمير وحظوته الأثيرة عنده أهاجت عليه حسد زملائه من المغنين المغمورين أو الذين تضاءلوا عند ظهوره ، كما أثارت عليه فريق ممن كانوا ينعمون بصحبة الأمير ومنادمتهم ، ثم ضعفت مكانتهم عنده وبهتت صورتهم في نظره ، وفتر ما بينه وبينهم منذ اليوم الذي تعلق فيه الأمير بصوت زرياب وتمسك بوجوده

(١) المقري ، ج ٥ ص ١٢٢ - ١٢٤ .

(٢) الحفني ، زرياب ، ص ١١٤ .

بقربه ، ويضع المؤرخون العرب على رأس هؤلاء الحاسدين شاعر البلاط والممثل الشخصي للأمير ومبعوثه الخاص إلى الامبراطور البيزنطي تيوفيل في سنة ٢٢٦ هـ وإلى أريك ملك النورمان الدانيين في سنة ٢٣٠^(١) ، وأعني به الشاعر يحيى بن حكم الغزال (ت ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) أحد الشخصيات البارزة في بلاط الأمير^(٢) : فقد هجا الغزال زرياب هجاء مقذعا تخرج ابن دحية من ذكره ، وعندئذ شكاه زرياب إلى الأمير ، فأمر بنفيه من الأندلس ، فرحل إلى العراق^(٣) .

ونبع من تلاميذ زرياب في الفترة التي عاشها في قرطبة (من وصوله الى قرطبة في ٢٠٦ هـ حتى وفاته في ٢٤٣ هـ) أبناؤه الذكور الثمانية عبد الرحمن ، وعبيد الله ، ويحيى ، وجعفر ، ومحمد ، وقاسم ، وأحمد ، وحسن ، وبناته علية وحدونة ، وكلهم تعلموا الغناء ومارسوا هذه الصناعة وإن اختلفت الملبسة ، فكان أعلامهم شأنا ابت حميد الله ، ويلييه في المكانة عبد الرحمن الابن الأكبر لزرياب ، وخليفته في صناعته وحظونه^(٤) ، ولكنه لم يلبث أن اغتر بنفسه وداخله الزهو بفنائه ، فتجراً على الملوك ، واستخف بالكبراء^(٥) ، أما محمد فكان مخنثاً ، وأما قاسم فقد كان أحذقهم غناء^(٦) .

(١) تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) انظر : ابن دحية ، المطرب ص ١٣٦ وما يليها - المقري ، ج ٢ ص ٢٤ . وقارن ذلك بما أورده : Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. I, p. 253 - حسين مؤنس ، غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ ، ٨٢٤٥ ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ٩ ، مجلد ٢ ، مايو ١٩٤٩ ص ٤٢ - ٦٤ .

(٣) ابن دحية ، ص ١٣٧ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٧٨ .

(٥) راجع ما رواه المقري عن سخفه وغروره وما سببه له ذلك من متاعب (المقري ،

ج ٤ ص ٢٦) .

(٦) المقري ، ص ١٢٦ .

وكانت حمدونة بنت زرياب تفوق أختها عليّة إجادة للغناء ، ويبدو أنها حظيت بشهرة كبيرة في هذا الفن ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي دعت الوزير هشام بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى أن يتزوجها. أما عليّة فكانت أقل حظاً من أختها في الشهرة ، ولكنها عمرت طويلاً بعد أختها حمدونة وأخوتها ، ولم يبق من أهل بيتها سواها .

ونبغ من تلميذاته من غير أبنائه جاريته متعة ، ومصاييح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل ، وغيرهن من المغنيات اللاتي أتيح لهن نشر فن زرياب إلى مجالات بعيدة . أما متعة فكانت تلميذته الأثيرة لديه : أدبها وعلمها أحسن أغانيه ، وكانت بارعة الجمال ، وكان جمالها وحسن صوتها سبباً في حظوتها عند الأمير ، فقد جلست يوماً بين يدي الأمير عبد الرحمن الأوسط تغنيه مرة وتسقيه أخرى حتى نالت إعجابه وفطنت هي إلى ذلك رغم محاولات إخفاء ما بنفسه ، فغنته :^(١) - الأبيات .

يا من يخلي هواه	من ذا يغطي النهار ؟
قد كنت أملك قلبي	حتى علققت فطارا
يا ولتا أترأ	لي كان أو مستعارا
يا بابي قرشي	خلعت فيه المذارا

فلما انكشف أمرها لزرياب، أهداها للأمير فحظيت عنده^(١) شأن غيرها من جارياته مؤمرة^(٢) ، وطروب أم ولده عبد الله^(٣) ، وضرتها فجر^(٤) ،

(١) المقرئ ، ج ٤ ص ١٢٧ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٢٥٢ ، وكان لها مسجد باسمها .

(٣) المقرئ ، ج ١ ص ٣٢٦ وباسمها سمي أحد مساجد قرطبة .

(٤) ابن حبان ، تحقيق الدكتور مكي ، ص ١٥٠ .

حظيته ، وعجب جارية أبيه الحكم ^(١) ، والشفاء ^(٢) ، وفلة ^(٣) ، وغزلان ^(٤) . وقد أقامت متعة بعد أن أصبحت محظية للأمير مسجداً عرف باسمها ^(٥) ، ولما توفيت دفنت في مقبرة تقع الى الشمال الغربي من مقبرة عامر القرشي ، ونسبت هذه المقبرة إليها كذلك ^(٦) . أما مصابيح فقد أخذت الغناء على زرياب ، وكانت على درجة كبيرة من الفطنة بحيث بلغت الغاية في عذوبة الصوت وجمال الغناء ، فأعجب بها الكاتب الأديب ابن عبد ربه ، فكتب إلى مولاها زرياب :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسباع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضمن على سمعي تقلده صوتاً يحول بحال الروح في الجسد
لو كان زرياب حياً ثم أسمعه لذاب من حسد أو مات من نكد

وما إن طالع زرياب هذه الأبيات حتى خرج حافياً ، وأدخله إلى مجلسه فتمتع بسماعها ^(٧) . وعلى أيدي هؤلاء نبغ جيل من المغنيات ظهرن في عهدي الأمير المنذر وعبد الله ، منهن جارية اسمها طرب أهداها أحد التجار إلى الأمير المنذر ، وكانت على درجة كبيرة من الجمال مع حظ من الاتقان في صنعة

(١) تُنسب إليها منية عجب في روض شقندة القبلي .

(٢) كانت جارية وأم ولد لعبد الرحمن الأوسط ، وينسب إليها مسجد وريض في المدينة الغربية من قرطبة .

(٣) المقرئ ، ج ١ ص ٣٢٦ .

(٤) هي أم المطرف بن عبد الرحمن الأوسط ، وكانت مغنية بديعة عسنة وعبادة وأديبة ولعلها إحدى جاريات زرياب التي سبق أن ذكرناها مع هنيذة (المقرئ ، ج ٥ ص ١٢٠) .

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ، ص ٢٩٩ .

(٦) Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, p. 209 — Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, p. 376

(٧) المقرئ ، ص ١٢٨ . وأورد الحميدي هذه الأبيات مع بعض الاختلاف ، انظر : جذوة المقتبس ، ص ١٠٢ .

الغناء وحسن الأداء ، فما كاد يسمعها الأمير المنذر حتى أخذت بمجامع قلبه ، فقبل الهدية بعد أن وهب التاجر ألف دينار^(١) . ومنهن جييجان جارية الأمير عبدالله ، سمعها سعيد بن جودي^(٢) بقرطبة في إمارة الأمير محمد فهم بها^(٣) . وعلى الرغم من كثرة عدد تلاميذ زرياب ، فإن أكثر ما وصلنا من أخبارهم يقتصر على أسماء المغنيات . ومع توافر عدد المشتغلين بصناعة الغناء فقد ظل المشرق الاسلامي يزود الأندلس بدفعات جديدة ، فهذا إبراهيم بن حجاج اللخمي الذي انتزى بإشبيلية في عهد الأمير عبد الله يبعث الأموال لشراء جارية من بغداد كان قد بلغه ما حظيت به من شهرة في الغناء والفصاحة ، والمعرفة بصوغ الألحان اسمها قمر ، فقدمت قمر واستقرت في بلاطه بإشبيلية^(٤) ، ومن أغانيها في مدحه :

ما في المغارب من كريم يرتجى إلا حليف الجود إبراهيم
إني حلت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذمم^(٥)
كذلك بعث الخليفة عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر لدين الله في سنة ٣٤٤ هـ - رغم أعبائه الثقيلة في الداخل والخارج - سفينة إلى المشرق لشراء عدد من المغنيات من الاسكندرية ، وعادت السفينة مشحونة بعدد من الجواري والمغنيات^(٦) .

وفي عهد الحاجب المنصور ذاعت شهرة المغنية أنس القلوب^(٧) .

(١) المقرئ ، ج ٥ ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٢) هو تاجر عربي ولاء عرب غرناطة عليهم بعد وفاة الأمير محمد ، وقتل في سنة ٢٨٤ هـ ابن حيان ، كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، نشره الأب ملشور أنطونيا P. Melchor Antuna ، باريس ١٩٣٧ ص ٣٠ .

(٣) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٩٤ .

(٥) المقرئ ، ج ٤ ص ١٣٧ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٥١٣ - أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ص ١٢٧ .

(٧) المقرئ ، ج ٢ ص ١٤٦ - جنثال بلنشيا ، ص ٦٩ .

وَمِنْ بَرَعٍ فِي فَنِّ الْغَنَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ وَبَنَاتِ الْأُمَرَاءِ وَالْخُلَفَاءِ : الْأَمِيرُ أَبُو الْقَاسِمِ
الْمُطَرِّفُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ ^(١) ، وَالْأَمِيرُ أَبُو الْإِصْبَغِ عَبْدِ الْعَزِيزِ
ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ ^(٢) ، وَالْأَمِيرَةُ وَلَادَةُ بِنْتُ الْمُسْتَكْفِيِّ ، وَكَانَ لَهَا صُنْعَةٌ
فِي الْغَنَاءِ ^(٣) ، وَمِنْ مَغْنِيَاتِهَا مَغْنِيَةٌ اسْمُهَا عَتَبَةُ ^(٤) . وَفِي مَجَالِ الْمَوْسِيقَى نَبِغٌ
مَوْسِيقِيَانِ بِقَرْطَبَةٍ فِي عَهْدِ الْحُكْمِ الْمُسْتَنْصَرِ أَحَدُهُمَا أَبُو مَقِيمٍ الزَّامِرُ ^(٥) ، وَالثَّانِي
النَّكُورِيُّ الزَّامِرُ ^(٦) ، وَكَانَ هَذَا الْأَخِيرُ يَزْمُرُ فِي الْبُوقِ قَبْلَ ذَلِكَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ
النَّاصِرِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ قَرْطَبَةَ كَانَتْ تَفِيضُ بِأَعْدَادِ هَائِلَةٍ مِنَ الْمَوْسِيقِيِّينَ ، إِلَّا أَنَّهُ
لِلْأَسَفِ لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنْ أَسْمَائِهِمْ سِوَى الْإِمْعَانِ سَالْفِي الذِّكْرِ . وَيَصِفُ الْحَمِيدِيُّ
مَوْكِبَ عَرَسٍ فِي بَعْضِ شَوَارِعِ قَرْطَبَةَ يَتَوَسَّطُهُ النَّكُورِيُّ الزَّامِرُ وَقَدْ وَضَعَ عَلَى
رَأْسِهِ قَلَنْسُوَّةً مِنَ الْوَشْيِ ، وَلَبَسَ ثَوْبَ خَزْ عَيْيَدِي ، وَكَانَ يَسِيرُهُ فِي زَمْرِهِ مَغْنٍ
يَحْسُنُ يَغْنِي أَيْبَاتًا مِنْ شَعْرِ أَحْمَدَ بْنِ كَلِيبِ النَّحْوِيِّ الشَّاعِرِ ، جَرَتْ عَلَى الْأَلْسِنَةِ
وَتَنَوَّشَدَتْ فِي الْمَاحِلِّ كَانَ الشَّاعِرُ قَدْ ضَمَّنَهَا حَبَّةً لِأَسْمَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنْهَا قَوْلُهُ :

أَسْلَمَنِي فِي هَوَا هَ . أَسْلَمَ هَذَا الرِّشَا
غَزَالَ لَهُ مَقْلَةً يَصِيبُ بِهَا مِنْ يَشَا ^(٧)

وَيَبْدُو أَنَّ أُمَرَاءَ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي قَرْطَبَةِ وَرُؤَسَاءِ الْأَنْدَلُسِ فِي عَصْرِ الطَّوَائِفِ
لَمْ يَكْتَفُوا فِي مَجَالِسِ شَرَابِهِمْ مِنَ الْمَلْهِنِ بِالْمَغْنِيِّينَ وَالْمَوْسِيقِيِّينَ ، بَلْ عَمِدَ بَعْضُهُمْ
إِلَى أَنْ يَلْتَزِمَ بِخِدْمَتِهِ لَاعِبُونَ بِالسِّبُوفِ وَالْدُكِّ وَمَهْرَجُونَ وَمُضْحِكُونَ ، وَمِنْ
هَؤُلَاءِ الْأُمَرَاءِ سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُرْتَضَى بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ النَّاصِرِ الَّذِي
رَشَّحَهُ شَيْوُخُ قَرْطَبَةَ مَعَ أَمِيرَيْنِ آخَرَيْنِ لِلْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ ٤١٤ هـ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ

(١) ابْنُ الْأَبَّارِ ، الْحُلَّةُ السِّيَرَاءِ ، ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) الْقُرِّي ، ج ٥ ص ١٢٢ .

(٣) نَفْسُ الرَّجْعِ ، ج ٥ ص ٣٣٤ . (٤) ابْنُ بَسَامٍ ، مَجْلَد ١ ، قِسم ١ ، ص ٣٧٧ .

(٥) الْحَمِيدِيُّ ، جَذْوَةُ الْقَتَبِيسِ ، ص ٣٩٨ .

(٦) نَفْسُ الْمَصْدَرِ ، ص ١٤٣ .

(٧) نَفْسُهُ ، ص ١٤٤ .

بها . وكان سليمان هذا غاية في الوسامة وجمال الوجه حتى لقبوه بالفزال ، وكان مولعاً بالفكاهة والنوادر ، محباً للظرفاء ، فالتزم بخدمته المضحك المشهور بالزرافة ، « وحدث أن لعبوا يوماً في مجلس سليمان لعبة أفضوا فيها إلى أن تقسموا اثنين اثنين ، كل شخص ورفيقه . فقال سليمان : ومن يكون رفيقي ؟ فقال له المضحك : يا مولاي ، وهل يكون رفيق الفزال إلا الزرافة ؟ . ودخل عليه وهو قاعد في رحبة قصره ، وقد أطل عذاره ، فقال له ما تطلب الزرافة ؟ فقال : تمرى الحشيش ، وأشار إلى عذاره ، فقال له اغرب لعنك الله ،^(١) . ومنهم الممتصم بن صمادح صاحب المرية في عصر دويلات الطوائف ، وكان يحضر في مجالسه من يقوم باللعب والرقص المطرب من الجاريات ، ومن يلعب لعب المهرجين من الرجال^(٢) .

ونستدل على ازدهار فن الغناء والموسيقى والرقص في عصر الخلافة من النقوش المحفورة في العلب والصناديق العاجية التي كانت تلتجها دار الصناعة بقرطبة ، وهي نقوش تمثل في بعض الأحيان مجالس أنس وشراب : منها نقش محفور على علبة من العاج أسطوانية الشكل من عصر الحكم المستنصر ، تحمل تاريخ سنة ٣٥٧ ، محفوظة اليوم بمتحف اللوفر ، يمثل منظر المجلس من تلك المجالس ، نشاهد فيه صورة رجلين جالسين ، يحمل أحدهما قنينة الشراب ، ويمزف الآخر على آلة مستديرة الرأس يغلب على الظن أنها البربط أو الرباب ، ويقف بينهما رجل يمزف على عود يحمله بين يديه . ويتجلى في نقوش صندوق من العاج يحمل تاريخ سنة ٣٩٥ أي يرجع إلى عصر الحاجب سيف الدولة عبد الملك بن المنصور ، محفوظة في كاتدرائية بنبلونة ، بعض مناظر تمثل حياة القصر الخلافي ، محصورة في ثلاث جامات مفصصة على شكل زهرة في كل من الوجهين الكبيرين للصندوق ، تشهد في إحداها (وهي

(١) المقرئ ، ج ٥ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٢٨ - المقرئ ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

الجامعة اليمنى من وجه الصندوق) صورة تمثل الخليفة (١) هشام يجلس منتشياً في بستان ويديه كأسي خمر بين فتيين من فتيانه ، ويبدو الخليفة في هذا النقش ملتجئاً ، وقد بلغ به الطرب والنشوة مبلغاً عظيماً نستشفه من ابتسامته العريضة . وفي الجامعة الوسطى منظر آخر يكل المنظر السابق يبدو فيه زامران جالسين ، بينهما مغنية . والجامعة اليسرى تمثل نديمين يستمعان إلى الغناء ، ويمدان أيديهما إلى عنقودي غناب يتدليان من شجرة بينهما . وتعبّر هذه المناظر أصدق تعبير ، وتنطق بحلاء عن ولع خلفاء قرطبة بفن الغناء والموسيقى . ومن المعروف أن هذا الفن بلغ درجة كبيرة من التطور والرقى في عصر المنصور وابنه المظفر عبد الملك ، فكان المنصور يكثر من مجالس الأنس التي يتخللها الغناء والموسيقى والرقص وتدار عليه فيها كؤوس الخمر ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أحد هذه المجالس التي حضرها الوزير أبو عامر أحمد ابن شهيد ، ورقص فيها على أنغام الموسيقى . وأورد ابن بسام أن أبا العلاء صاعد بن الحسن البغدادي دخل يوماً على المنصور ، فوجد عوداً بين يديه ، ثم قال له المنصور : « قد تواتر الخبر وتحدث عنك البشر أنك فرد في علم الموسيقى ، وقد أردت غير مرة الانبساط معك سرّاً في ذلك » . فشق الأمر على صاعد هنالك ولم يجد من يحيد عن أخذ العود ، فتناوله وجس أوتاره ، وسوى تسوية أطربت ابن أبي عامر ، ثم اندفع ينشده بيتي مجنون بني عامر:

أبى القلب إلا حبّها عامرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو
تكاد يَدَيّ تَندي إذا لمستها وينبت في أطرافها الورق الخضر (٢)

(١) هكذا استنتجت من ضخامة صورة الخليفة بالقياس إلى صورة خادميه الواقفين على جانبيه لخدمته ، ومن لحيته الغزيرة الكثّة التي تظهره كهلاً ، ولا يعقل أن يكون صاحب هذه الصورة المظفر بن عبد الملك ، الذي عرف بكثرة حروبه وانصرافه إلى الغزو ، بالإضافة إلى أن المظفر كان شاباً . ونضيف إلى حججنا على أن المقصود بالصورة النقوشة هو هشام وليس الحاجب المظفر وجود خادمين أحدهما يحمل مذبة والثاني يحمل قنينة خمر . (راجع محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ١٩٧٢ ص ١٩٧) .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٩ .

أما المظفر عبد الملك ، فقد فاق أباه في إباحة الحريات والتخفيف عن الناس ، فراقت أيامه وأحبه الناس سرّاً وعلانية ، وانصب الإقبال والتأييد عليه انصباباً لم يسمع مثله ، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان حتى سميت أثمان هذه الأشياء في مدته ، وبلغت الأندلس في أيامه إلى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال في كنف ملك مُقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياها ... ثم أغرق عبد الملك النزاع في دولته ، وانهمك في طلب الآلات الملوكية حتى جلب إليه من ذلك كل علق خطير ، وتأنق في مراكبه هو وأصحابه ...^(١)

وكان ابتكار الموشحات والأزجال من العوامل التي ساعدت على النهوض بفن الغناء والموسيقى في قرطبة ، فقد كان المغنون في عصر الإمارة وفترة من عصر الخلافة يقتطفون من القصائد ويغترفون منها ما يتلاءم مع الألحان ، إلى أن ابتكرت الموشحات لخدمة الغناء ، والموشحات أشعار أكثر موضوعاتها التي تصلح للغناء تدور حول الغزل والخمر ووصف الطبيعة وكلها موضوعات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمجالس الطرب^(٢) . والموشحة بنيت على أغاني شعبية كانت شائعة بالرومانسية أي اللاتينية الدارجة أو العجمية^(٣) ، وكان الموشح ينظم أسماًطاً وأغصاناً أغصاناً ، يكثر منها ومن أعاريضها المختلفة ، وكان المقطع الأخير من البيت الواحد في الموشحة يعرف بالخرجة^(٤) . وكان من الطبيعي أن تنقسم الموشحة بسهولة الألفاظ وعذوبة مقاطع الكلمات ،

(١) نفس المصدر ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي ، موضوعاته ومقاصده ، بيروت ١٩٧٢ ،

ص ٤٠٣ .

(٣) آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٤٢ .

(٤) لطفي عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٧٩ - الشكعة ،

المرجع السابق ، ص ٣٧٦ .

وترصيع أجزائها^(١) .

وفي عصر المرابطين استحدث أبو بكر بن قزمان القرطبي غناً جديداً في الشعر الشعبي هو الزجل^(٢) يصاغ في فقرات تسمى أبياتاً ، وتبدأ مقطوعته بببيت يعرف بالمركز أو السمط تليه أغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد ، كل غصن منها يتألف من ثلاثة مصاريع أو أكثر يليها بيت في نفس وزن المركز وقافيته^(٣) ، وقد خلف ابن قزمان في صناعة الزجل عبدالله بن الحاج المعروف بمدغليس^(٤) .

(٣)

مراكز فن الغناء والموسيقى في الأندلس بعد سقوط الخلافة قرطبة

ازدهرت فنون الغناء والموسيقى في عصر الطوائف ، وتعددت مراكزها بعد أن فقدت قرطبة مكانتها ، وحاط ملوك الطوائف أنفسهم بمشاهير المغنين والمغنيات وفحول الشعراء والكتاب ، ويعبر عن ذلك ابن الكردبوس إذ يقول : « وصادف أيامه (أي الفونسو السادس ملك قشتالة) نفاقاً كثيراً بين المسلمين ، واختلافاً عظيماً ، وضعف بعضهم عن بعض إلا بمعونة الروم ، فبذلوا للفن ما يحبه من الأموال ليعينهم على مناوئتهم بأنجاد الرجال ، واللعين في أثناء ذلك ، لما بينهم من الفتنة ، مسرور ، وهم مع ذلك مشتغلون بشرب الخمر ، واقتناء القيان ، وركوب المعاصي وسماع العبدان ،^(٥) .

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٥٣ .

(٢) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، ج ١ ص ١٠٠ - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ١١٥٤ .

(٣) جنثالك بالنيثيا ، ص ١٤٣ .

(٤) ابن خلدون ، ص ١١٥٤ .

(٥) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، تحقيق الدكتور أحمد غنار العبادي ، ص ٧٧ .

وفي هذا العصر تألق عدد كبير من المغنين اختص بهم ملوك الطوائف في قواعدهم وصلت إلينا أسماء بعضهم، منهم على سبيل المثال : أبو يوسف المغني^(١) الذي دعاه المتوكل على الله ابن الأفتس ملك بطليوس ليقضي معه ليلة أنس في قصر منية البديع^(٢) بحاضرتة بطليوس ، والمغني السوسي^(٣) الذي لازم الرشيد بن المعتمد بن عباد ، وأبو بكر الأشبيلي^(٤) مغني المعتمد . واشتهرت أبدة^(٥) بكثرة « أصناف الملهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك وإخراج القرى والمرابط والمتوجه »^(٦) .

وفيما يلي عرض لأهم مراكز الغناء في عصر الطوائف .

١ - اشبيلية

تخلت قرطبة بعد دئورها زمن الفتنة عن مكانتها السامية في فن الغناء والموسيقى إلى إشبيلية التي لم تلبث أن أصبحت مدينة الأدب واللهو والطرب^(٧) ، واشتهر أهلها بحبهم للهو حتى « ضرب بهم المثل في الخلاعة وانتهاز فرصة

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) هو قصر بناء المتوكل خارج بطليوس على نهرها الأعظم المعروف بوادي أنه ، وهو روض كان المتوكل يكلف بمواقاته ، ويبتهج بحسن صفاته .

(٣) المقرئ ، ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .

(٥) مدينة صغيرة تقع قريباً من بياسة ، وعلى مقربة من نهر الوادي الكبير (الحميدي ،

ص ١١) .

(٦) فضائل الأندلس ، ص ٥٦ .

(٧) المقرئ ، ج ١ ص ١٩٣ .

الزمن ساعة بعد ساعة (١) ، وشغفوا بالغناء الذي توارثوه عن زرياب ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « فأورث (أي زرياب) بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها بإشبيلية بحر زاخر » (٢) . ويأتي المقرئ بمثل بعبر عن شهرة إشبيلية في الغناء ، فيقول : « اشتغل أبو القاسم بن محمد بن المليح أول أمره بالزهد ، وكتب التصوف ، فنصحه أبوه بأن يعاشر الأدب والظرفاء ويأخذ نفسه بقول الشعر ومطالعة كتب الأدب ، فلما عاشرهم زينوا له الراح ، فتهتك في الخلاعة ، وفر إلى إشبيلية ، وتزوج بامرأة لا تليق بحاله ، وصار يضرب معها بالدف » (٣) . ومما لا شك فيه أن ازدهار فن الغناء والموسيقى في إشبيلية زمن الطوائف لم يكن ليتحقق ما لم يكن قد حظى برعاية بني عباد وتشجيعهم لأهل هذا الفن وأربابه ، فقد كان المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد قد أوتي من ثقب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ، ورقة المشاعر ما فاق به نظراءه من ملوك الطوائف ، ولم يقصر المعتضد بالله في دولته التي مهدها على أطراف الأسنة « في توفير حظه الأوفى من الأمور الملوكية ، والعدد السلطانية ، والآلات الريائية ، فابتنى القصور السامية ، واعتمر العمارات المغلة ، واكتسب الملابس الفاخرة ، وغالى في الأطلاق السنية ، وارتبط الخيل السابجة ، واقتنى العلمان الروقة .. ، وكان مع انشغاله بالحروب سائر أيامه وعلو همته ، يقرض الشعر الرقيق مثل قوله :

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة حمراء أما بخارها فضخم وأما جسمها فدقيق (٤)

-
- (١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٥١ .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٦٦ .
(٣) المقرئ ، ج ٥ ص ٢١١ .
(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٥٧ .

أما المعتمد على الله محمد بن عباد ، فكان فذاً في البلاغة ، طرفاً في الشعر والكتابة ، بارع النظم والنثر ، يكثر من مجالس الشراب والطرب مع زملائه الشعراء وخلاته الندماء أمثال ابن عمار وابن عبد الصمد وابن اللبانة . وكان المعتمد خير مثل للشاعر الرقيق الذي يصوّر حياته الناعمة في إشيلية بقوله :

ولقد شربتُ الراح يسطع نورُها والليل قد مدَّ الظلام رداءً
حتى تبدَّى البدرُ في جوزائه ملكاً تنهى بهجةً وبهاءً
إلى أن يقول :

وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثرياتها عليه لواءً
وحكيته في الأرض بين مواكب وكواعب جمعت سناً وسناء
إن نشرتُ تلك الدروع حنادساً ملأت لنا هذي الكؤوس ضياءً
وإذا تغنّتُ هذه في مزهر لم نال تلك على التريك غناءً^(١)

وكان المعتمد أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وكان يميل إلى الاستكثار من الجوارى والمغنيات^(٢) ، ولهذا أصبحت إشيلية في عهده بؤرة الرحال وقبلة الآمال ، ومركز الشعراء ، ومجتمع الفنانين والأدباء . وحظيت إشيلية في عهد آل عباد في مجال الغناء والموسيقى بشهرة طمست فيه غيرها من حواضر الأندلس ، وظلت تحتفظ بهذه المكانة حتى سقطت في أيدي القشتاليين ٦٤٦ م . وقد عبر ابن رشد القرطبي عن هذه الشهرة بقوله : « إذا مات عالم في إشيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشيلية »^(٣) .

(١) جنثالث بالثيا ، ص ٩٩ .

(٢) منهن جومرة ووداد (القرى ، ج ٥ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣) ومنهن اعتماد الرميكية التي اشتراها من صاحبها التاجر لإعجابها وبسرعة بديتها ، وتزوجها (جنثالث بالثيا ، ص ٩٥) .

(٣) القرى ، ج ١ ص ١٤٧ .

ومن الأسماء اللاحقة في إشبيلية في فن الغناء والموسيقى رمن المعتمد أبو بكر الإشبيلي^(١) ، والمغنى السوسي^(٢) ، وكان الرشيد عميد الله بن المعتمد يحمي ضرب العود^(٣) .

٢ - قرطبة

لا شك أن مركز قرطبة الفني امتاز كثيراً في أعقاب الفتنة البربرية التي انتهت بسقوط الخلافة وانكماش رقعة عمرانها ، ومع ذلك فقد ظلت قرطبة تحتفظ ببقية من ازدهار في مجال الغناء والموسيقى ، فابن حزم يتحدث عن مجالس أنس وغناء كان يعقدها بعض كبار رجال الدولة^(٤) . ويذكر ابن الخطيب أن حكم بن عكاشة ، أحد قواد ابن ذي النون صاحب طليطلة ، هاجم القائد الإشبيلي ابن مرتين بقرطبة وهو عاكف على شرابه ولهوه ، فقرّ واختفى ببعض دور صنائعه ، فاستعصر ابن عكاشة من كان بيديه ليلئذ من القينات والملهين^(٥) . وفي أواخر عصر الطوائف ظهر بقرطبة موسيقي شهير هو إسحق بن سمعان اليهودي ، كان صديقاً لابن باجة ، واشتهر بتأليف الألحان من كل الأساليب^(٦) .

٣ - طليطلة

استقلت بطليطلة بعد سقوط الخلافة الأموية أمرة بربرية أندلسية كانت في

(١) المقرئ ، ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٣) ابن الأبار ، ج ٢ ص ٦٨ .

(٤) ابن حزم ، طوى الحماة ، ص ٤٨ ، ١٧٦ ، ١٧٨ .

(٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٥٨ .

(٦) فارمر ، ص ٢٥١ .

خدمة الخاحب المنصور محمد بن أبي عامر هي أسرة دي النون ، وقد بلغت هذه الأسرة في المدخ والترف الغاية ، وأقام ملوكها القصور السامقة والآثار الجليلة ، من بينها القصر الذي بناه المأمون يحيى في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وتأتق في بنيانه إلى حد أنه أقام فيه بحيرتين صب على أركانها تماثيل أسود معدنية فاعرة الأشداق ، ينساب من أفواها نحو البحيرتين الماء هوساً كرشيش القطر أو سحالة اللجين ،^(١) واتخذ في وسط إحدى البحيرتين قبة من الزجاج البلوري ، وأجرى الماء إلى أعلى القبة على تدبير أحكمه المهندسون^(٢) .

ويصف ابن بسام حفلاً أقامه المأمون في مجلس خلوته بقصر الناعورة المذكور ، أحضر فيه عدداً من المغنين وجميع آلات الأس ، وبالغ في تأنييس الحاضرين بالنبيذ ، فيقول : « ثم انتنوا إلى الشراب ونفوسهم به صبة ، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الخاحب ، ونظمت نوبة المغنين رمرأ ، فهاجوا الأطراب ، واستخفوا الألباب »^(٣) . وعنى لهم في ذلك اليوم من كبار المغنين دي الاسرائيلي الذي يقارن في إحسان الصوت بإبراهيم الموصلي ، وكان ما غناه صوتاً شحياً لحنه من حفيف الرمل مطلقاً مختصر في مقطوعة نظمها الشاعر عبد الله بن حليفة الملقب بالمصري ، « فطمح ناس دي النون الاطراب حتى حن حدين الناب ، وخلع لوقته عليه ثوباً من التستري الأحصر مطرراً بالذهب ، ووصله بمائتي دينار ذهب ، ثم فص الصلات والخلع في سائر

(١) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٠٣ .

(٢) راجع ما كتبه في ذلك فيما يلي : قصر الناعورة بطليطلة ، دائرة معارف الشعب رقم ٦٤ ص ١٢٩ وما يليها - المساجد والقصور بالأندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ ، أكتوبر ١٩٥٨ - ما لا يعرفه المسلمون عن حواض الأندلس : طليطلة ، مجلة الفكر الاسلامي ، السنة الأولى ، العدد الخامس ، بيروت ١٩٧٠ ص ٤٣

(٣) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ٥ .

الطبقات ، ، وتناوب المغنون تلك الليلة الغناء بمقطوعات من شعر عبد الله ابن خليفة المذكور (١) .

٤ - المرية

نجح خيران الفقى العامري في التغلب على أفلح الصقلي ودخل المرية في سنة ٤٠٥ هـ ، واتخذها مقراً له ، وازدهرت المرية في عهده (حتى سنة وفاته في ٤١٩ هـ) ازدهاراً عظيماً ، وأصبحت من أهم مدن الأندلس في عصر الطوائف ، وكان عصره عصر ارتقاء وازدهار في الحياة الأدبية والفنية ، فقد قصده بعض أدباء الأندلس المشهورين أمثال وزيره أحمد بن عباس الكاتب ، وابن دراج القسطلبي الشاعر . ثم آلت المرية بعد أحداث طويلة في سنة ٤٣٣ هـ إلى ابن الأحوص معن بن صمادح التجيبي الملقب بالمعتصم (ت ٤٨٤ هـ) ، ويعتبر عصره أكثر عصور المرية تألقاً وازدهاراً ، فقد تألفت فيها العلوم والآداب والفنون ، وبلغت حضارة المرية ذروة رقيتها في زمنه على الرغم من قلة موارده ، وصغر مملكته ، ولزمه فحول الشعراء أمثال أبو عبد الله بن الحداد ، وابن عبادة ، وابن الشهيد (٢) ، كما قصده ابن عمار الشاعر ولزمه فترة ، والشاعر السمسير ، والنحلي البطليلوسي ، وابن بليطة ، وابن أخت غانم ، وأبو الحسن بن الحاج الوشاح ، والشاعر أبو الفضل جعفر بن محمد البرجي المعروف بالحكيم الفيلسوف (٣) ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، واجتذبت المرية على أيامه الكثير من أصحاب المواهب في فن الغناء والموسيقى . ولم يكن المعتصم نفسه يزهد في مجالس الطرب ؛ فلدينا من أمثلة هذه المجالس

(١) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٠ .

(٣) تاريخ مدينة الروية الإسلامية ، ص ١٧٧ .

أخبار كثيرة في كتب الأدب والتاريخ^(١) . وذكروا أنه لما حل به الموت والمرابطون يحاصرون مدينة المرية ، نظر إلى جارية من جواريه تبكي عليه عند رأسه ، فلم يتردد وهو في لحظة انتقاله عن مخاطبتها شعراً ، فقال :

ترفق بدمعك لا تُفْقِنِيه فين يديك بكاء طويل^(٢)

ومن أشعر أبنائه رفيع الدولة ، وأبو جعفر أحمد ، وعز الدولة ، وأختهم الشاعرة الوشاح أم الكرام . ومن شاعرات المرية ومغنياتهما في عهده زينب ، وغاية المني إحدى قيان المعتم^(٣) .

٥ - سرقسطة

تمكن سليمان بن محمد بن هود الجذامي من دخول سرقسطة في سنة ٤٣٠ بدعوة من أهلها ، واستولى على القصر ، ثم اتخذها مقراً له حتى توفي في ٤٣٨ . ثم خلفه ابنه أحمد المقتدر بالله ، ثم المؤتمن محمد بن أحمد ، ثم المستعين بالله أحمد بن المؤتمن . واستمر بنو هود يحكمون سرقسطة حتى قتل آخرهم أحمد ابن عبد الملك بن أحمد المستعين في مرسية سنة ٥٤٠ هـ .

(١) راجع : ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٢٨ - القرى ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ - جنثالث بالثيا ص ١١١ . وذكر ابن بسام أنه اصطليح يوماً مع قدمائه ، وأظهر صبية مهذوبة متصرفة في أنواع اللعب المطرب من ذلك ، وحضر أيضاً لاعب مصري هنالك ، فارتجى ابن الحداد الشاعر يصف ذلك :

وأستمتتنا لاحتنا فانتنا وأخضرتنا لاعبا ساحرا
يزفّن فوق رؤوس القينا ن فتتظّر ما يذهل الناظرا
ويخطفها ذيل صرباله فتبصر طالما غائرا
واللعب بالسيف والدك نوع من الرقص اختصت به مدينة أبلدة .

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٩١ .

(٣) القرى ، ج ٦ ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

وكانت أسرة بني النون أسرة مستنيرة رعى ملوكها الآداب ، وحموا
الفنون ، وأرسوا بسرقسطة أسس حضارة زاهرة . ويتجلى ميلهم إلى الغلو
في التأنق والإسراف الجنوني في حشد الزخارف والتنميقات فيما تخلف من
قصرهم الجعفرية ، الذي بناه أبو جعفر أحمد المقتدر بالله ، وكان يسميه مجلس
الذهب . وقد شهد هذا القصر مجالس أنس وصفها المؤرخون ، منها مجلس ضم
المقتدر بالله وندماءه ومن بينهم الوزير اليهودي أبو الفضل بن حسداي ،
« فصدمت في ذلك اليوم الغواني ، وأفصحت المثالث والمثاني » (١) .

ولما أعرس المستعين بالله أحمد بنت الوزير الكاتب أبي بكر بن عبد
العزیز ، وزير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر صاحب
بلنسية ، احتفل أبوه المؤتمن قبل سنة ٤٧٨ التي تسجل تاريخ وفاته ، بهذه
المناسبة « احتفالاً شهرة وأبدع فيه إبداعاً راق من حضره وبهره ، فكانه
أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، فأبهر الألباب ، وقطع
بذكائه دون معرفتها الأسباب » (٢) . وكان المستعين بالله يختص وزيره أبا
الفضل بن حسداي بصحبته (٣) ، فركب يوماً نهر مرقسطة ، مستهدفاً ارتياد
نزهه وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بجوزقه ، وقد أحضر المستعين من آلات
إيناسه ، والزوارق قد حفت به ، والتفت بجوانبه ، « ونغمات الأوتار تحبس
السائر عن عدوه ، وتخرس الطائر المفصح بشدوه » (٤) .

(١) المغربي ، ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) نفسه ، ص ١٦٦ .

(٣) هو أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي ، من أهل مرقسطة ، نال حظاً جزيلاً
من صناعة الشعر والبلاغة ، وبرع في علم العدد والهندسة والتجوم ، وقهم صناعة الموسيقى وحاول
علمها ، وأتقن علم النطق ، وكان له نظر في الطب (ابن أبي أصيبعة ، طبقات الأطباء ،
ص ٤٩٩) .

(٤) المغربي ، ج ٢ ص ١٦٧ .

ودعا المستعين بالله ذات ليلة ابن السيد البطليومي^(١) إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب والشراب^(٢) . وذكروا أن أبا بكر محمد بن باجة التجيبي المعروف بابن الصائغ ، وكان فيلسوفاً عظيماً ، وموسيقياً بارعاً ، ومؤلف موشحات ، عاش في أيام أحمد بن يوسف بن هود الملقب بالمستعين بالله أحد أمراء بني هود المتأخرين^(٣) . ويذكر ابن خلدون أنه صاحب التلاحين المعروفة^(٤) ، إذ كان يتقن صناعة الموسيقى ويحيد اللعب بالعود^(٥) .

٦ - بلنسية

عرفت بلنسية في ظل بني عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ازدهاراً في الفنون والآداب لم تشهده من قبل ، وعرف أهلها برحمهم وإقبالهم على الملاهي والأغاني ، وفي ذلك يقول العذري : « وقد أطيبت مدينة بلنسية بقلة لهم ، لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل لهم ، مليئاً كان أو فقيراً ، وقد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحة والفرج ، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك ، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني ، ويقولون : عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك ، وقد أخبرت

(١) هو عبد الله بن محمد بن السيد النحوي (٤٤٤ - ٥٢١ هـ) ، كان كاتباً لعبد الله بن رزين صاحب السهلة ، ثم لجأ إلى طليطلة ، فبلنسية ، وانتهى به الطاف إلى سرقطة (جنثالث بالنشيا ، ص ٣٣٤) .

(٢) القرني ، ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) جنثالث بالنشيا ، ص ١٢٢ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٤٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ، طبقات الأطباء ، ص ٥١٥ .

الموسيقى والفناء في الأندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين ودولة بني نصر بغرناطة

إذا كان يوسف بن تاشفين قد أبدى امتعاضه ، عند زيارته لإشبيلية ، من مشاهدة مظاهر الفخامة والأبهة والترف التي تسود المجتمع الأندلسي في ظل ملوك الطوائف ، والتي كان يؤمن بأنها السبب الحقيقي في حالة الضعف والتفكك التي أصابت دولة الاسلام في الأندلس أمام المد القشتالي ، وإذا كان هذا الشعور بالغيرة على الاسلام الأندلسي هو المحرك الرئيسي الذي دفعه إلى الاطاحة بملوك الأندلس الواحد إثر الآخر ، وربط الأندلس بالمغرب في وحدة وثيقة ، فإنه لم يلبث أن وقع هو وبنوه من بعده تحت إغراء هذه الحضارة الأندلسية الزاهرة وتأثير ثقافتها المتطورة ، فاصطنع فحول شعراء الأندلس واستقدمهم إليه بالمغرب إلى حد أن حضرته بمراكش أشبهت حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، وتبدل بلاطه في أمد قصير من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متأنق^(١) . وأقبل المرابطون - على الأخص في عهد ابنه علي بن يوسف - على الترف ومظاهر الدنيا ، وأغرتهم هذه المظاهر على نبذ خشونتهم ، ولم يلبثوا إلا قليلا حتى شغفوا بتذوق هذا الترف . وليس أدل على ذلك من قول الوزير أبي محمد عبد الرحمن بن مالك الماعري (ت ٥١٨) في مجلس أطربه سماعه ، وبسطه احتشاد الأنس فيه :

لا تلمني إذا طربت لشجوة يبعث الأنس فالكريم طروب
ليس شق الجيوب حقاً علينا إنما الحق أن تشق القلوب^(٢)

(١) ليفي بروفسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤٧ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

وهذا أبو بكر ابراهيم بن تيفلويت عامل سرقسطة من قبل يوسف بن تاشفين يتخذ ابن باجة كاتباً له منذ اليوم الذي سيطر فيه المرابطون على هذه المدينة، فيلازمه ابن باجة حتى سنة ٥٠٩ هـ التي يسجل تاريخ وفاة ابن تيفلويت. ويروي ابن خلدون أن ابن باجة حضر مجلساً من مجالس نخدومه ، فألقى على بعض قينائه موشحته التي أولها :

جرّ الزنيل أبها جر
وصل الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك ، فلما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر
لأمير العلا أبي بكر

وطرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ، صاح : « واطرباه !! » وشق ثيابه ، وقال : « ما أحسن ما بدأت ، وما ختمت » ، وحلف بالإيمان المغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب . فخاف الحكيم سوء العاقبة ، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه ^(١) .

وبرع في فن الموسيقى في هذا العصر الموسيقى الأديب أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الداني الإشبيلي (ت ٥٢٣) ، وكان متقناً لعلم الموسيقى ، يجيد اللعب بالعود ، وهو الذي لحن الأغاني الإفريقية في عهد الأمير الصنهاجي يحيى بن المعز بن باديس ^(٢) .

وفي عصر دولة الموحدين تألفت إشبيلية من جديد ، واستمادت مركزها

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٤٠ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب ، وراقات عن الحضارة العربية بإفريقية ، قسم ٢ ، تونس ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

الذي كانت تنبوءه زمن بني عباد ، خاصة بعد أن اتخذها عبد المؤمن بن علي الموحد قاعدة له في الأندلس ، وقلد ولايتها إلى ابنه أبي يعقوب يوسف الذي تأثر برقة الحياة في الأندلس ، وشارك في الحركة الأدبية والفنية ، وصحبه من فلاسفة الأندلس أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الوادي آشي ، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، ومن الأطباء الأدباء ، أبو بكر محمد بن أبي مروان بن زهر . أما ابنه أبو يعقوب فكان مواهماً بالفنون والبناء ، وحاط نفسه بقرف لا مثيل له ، يعبد إلى الذاكرة أيام خلفاء بني أمية العظام بحاضرتهم قرطبة . وفي عهود هؤلاء ، ازدهر فن التوشيح والازجال والغناء والموسيقى ، إلى حد الرؤساء أنفسهم كانوا يحرسون على سماع القيان المغنيات ، وغلب الغناء على المجتمع الأندلسي من جديد في ظل حكام يرعون الفنون ويشجعون أهلها بالبذل والعتاء . ويشير الشقندي في رسالته في فضائل الأندلس إلى أن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر في وادي إشبيلية غير منكر لأنه عن ذلك ولا منتقد ما لم يؤد السكر إلى شر وعريضة (١) ، وهذا يفسر شيوع مجالس الطرب في إشبيلية عند الخاصة والعامة على السواء . ولا تخلو كتب الأدب والتاريخ التي تعرضت لدراسة هذه الحقبة من روايات تصور إقبال الناس في هذا العصر على الخلعة والطرب ، فقد ذكر أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد أنه لما وصل أبوه إلى إشبيلية « افتتن بوادها ، واعتكف على الخلعة فيها ، مصعداً ومنحدرأ بين بساتينه ومنازعه ، فر ليلة بطريانة (٢) ، فقال نحو منزله فيه طرب ممعه ... » (٣) وذكر ابن سعيد أن الوزير أبا بكر بن سعيد استدعى بفرناطة الشاعر الهجاء المخزومي (توفي بعد ٥٤٠ هـ) إلى مجلس من مجالس الطرب ، بأن كتب إليه بهذه الأبيات يسترضيه ليكفيه هجوه :

(١) فضائل الأندلس ، ص ٥١ .

(٢) هي الرض القيلي من إشبيلية ويربطها به جسر يعلو نهر الوادي الكبير .

(٣) المقرئ ، ج ٥ ص ٣٢٤ .

يا ثانيًا للمعري	في حسن نظم ونثر
وفرط ظرف ونبل	وغوص فهم وفكر
صل ثم واصل حفيًا	بكل برد وشكر
وليس إلا حديث	كما زها عقد در
وشادن يتقنى	على رباب وزمر
وما يسمع فيه الـ	غفور من كأس خمر

فحضر الشاعر الهجاء ، ولما استقر به المجلس ، وأفعمته روائح الند والعود والأزهار ، وهزّت عطفه الأوتار ، قال :

دار السعيد ذي أم دار رضوان ما تشتهي النفس فيها حاضر داني
سقت أباريقها للند 'سحب' ندى تمدي برعدٍ لأوتار وعيدان
والبرق من كل دن ساكب مطراً يحيي به مَينَت أفكار وأشجان
هذا النعم الذي كنا نحدثه ولا سيبِل له إلا بآذان^(١)

وذكروا أن أبا الحسين علي بن الحماره من أهل غرناطة كان ممن برع في
الألحان وعلمها ، واشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الأشجار فيقطع العود بيده ،
ثم يصنع منه عوداً للغناء ، وينظم الشعر ويلحنه ، ويقني به ، فيطرب
سامعيه^(٢) .

وروى ابن سعيد أنه اجتاز على قرية نازحة من قرى مالقة مع أبيه أبي
عمران موسي ، وقد أهدقت بها البساتين ، في وقت صباغة الحرير ، فرأى
القوم قد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خياماً ، وأخذ بعضهم يغني
ويطرب^(٣) . وكان أبو الحسين بن أبي جعفر الوزير الوقشي الطليطلي غاية في

(١) المقرئ ، ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٢٧١ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

الطرف ، وكان بارعاً في الموسيقى والغناء ، إذ تلقى هذا الفن علي أبي الحسين ابن الحسن بن الحاسب شيخ هذه الطريقة ، فرزق أبو الحسين بن أبي جعفر فيها ذوقاً مع صوت بديع . ويذكر أبو عمران موسى بن سعيد المغربي أنه سعى إلى الاتصال به ، إلى أن حضر عنده وجلس بين يديه ، فرحب به الوزير ، « ثم قام إلى خزانة ، فأخرج منها عود غناء يطرب دون أن تجس أوتاره ، وتلحن أشعاره ، واندفع يغني دون أن أسأله ذلك ولا أتجشم تكليفه الدخول في تلك المسالك :

وما زلت أرجو في الزمان لقاءكم فقد يسر الرحمن ما كنت أرجمي
فذكركم ما زلت أتلوه دائباً إذا ذكروا ما بين سلمي ومنعج

فلما فرغ من استهلاله وعمله قبّلت رأسه وقلت له : لا أدري علام أشكرك : هل تعجيبك بما لم تدعني أسألك في شأنه ، أم على ما تفردت بإحسانه ؟ فما هذا الصوت ؟ قال : « هذا نشيد خسرواني من تلحيني » (١) . وذكروا أيضاً أنه اخترع عوداً يعزف من تلقاء نفسه بلا ضرب (٢) .

وكان عبد الوهاب بن الحسين الحاجب أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصناعة الألحان البديعة على أنغام مزمار بشارة الزامر (٣) .

وإلى جانب هذا الإتجاه نحو الطرب والانتشاء بالأغاني وما يصحبها من ألحان ظهر علماء في فن الغناء والموسيقى في عصر الموحدين ، نخص بالذكر منهم يحيى الخندج المرسي الذي صنف كتاب « الأغاني الأندلسية » على منزع الأغاني لأبي الفرج (٤) ، وأسلم مؤلف أخبار زرياب .

(١) القرني ، ج ٥ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٢) جنتالك بالثيا ، ص ٥٥ .

(٣) القرني ، ج ١ ص ١٨٠ .

(٤) فضائل الأندلس ، ص ٢٧ .

ومنذ قيام دولة المرابطين أخذ عدد كبير من المغنين ينتقلون من الأندلس إلى إفريقية والمغرب ، نذكر منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الذي هاجر في سن الثلاثين إلى المهديّة حيث نزل على أميرها يحيى بن غيم بن المعز ، فنال عنده حظوة ومنزلة جليّة^(١) . وذكر ابن أبي أصيبعة « أنه كان أوحداً في العلم الرياضي ، متقناً لعلم الموسيقى وعمله ، جيد اللعب بالعود »^(٢) ، ولا يخفي الصلة الوثيقة التي تربط بين علم الموسيقى والعلوم الرياضية بدليل أن عدداً من الفلاسفة والرياضيين كانوا علماء في الموسيقى أمثال الفيلسوف أبو نصر الفارابي مخترع الآلة الموسيقية المسماة القانون ومصنف كتاب الموسيقى الكبير وكتاب في إحصاء الإيقاع^(٣) ، والشيخ الأديب الحكيم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي الأندلسي الذي هاجر إلى دمشق وكان يجمع بين الطب والموسيقى والغناء ، وكان يتقن الموسيقى ويلعب بالعود^(٤) ، وأبو زكريا يحيى البياسي الأندلسي الطبيب والرياضي ، وكان جيد اللعب بالعود ، وعمل الأرغن وحاول اللعب به ، وكان يقرأ عليه علم الموسيقى^(٥) ، والفيلسوف الرياضي والموسيقي ابن باجة الذي سبق أن تحدثنا عنه .

وذكر أحمد التيفائي القفصي في كتابه متعة الأسماع ، أنه استمع وهو بإفريقية (في أوائل القرن السابع) إلى مطرب أندلسي تغنى في شعر أبي تمام ، « فعددت له في هذا البيت أربعة وسبعين هزة » ، وأضاف « وهذا الغناء موقوف اليوم على إشبيلية من مدن الأندلس ، وبها عجائز محسنات يعلمن الغناء لجوار مموكات لمن ومستأجرات عليهن ، يشأن من إشبيلية لسائر ملوك المغرب وإفريقية »^(٦) . وقد ورث الأندلسيون اليوم

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ طبعة مصر ١٩٤٨ ، ص ٢٢١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٥٠١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٠٨ .

(٤) نفسه ، ص ٦١٥ .

(٥) نفسه ، ص ٦٣٧ .

(٦) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

هذا النوع من الغناء الذي يسمونه « السيجيريّا » ، ويحتفظ المغرب العربي بتراث كبير من فن الغناء والموسيقى الأندلسية ، ويشير ابن الخطيب في الاحاطة إلى أن الغناء شاع في غرناطة في زمن بني الأحمر ، فيقول : « والغناء بمدبنتهم فاش حتى في الدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث » (١) .

وكان أهل غرناطة أيام عيد العصير يقفون أياماً في حقول الكروم لجمع المحصول في جو يسوده المرح والرقص والغناء ، ويشير الدكتور مختار العبادي إلى أن العادة جرت على أن يحتفل الغرناطيون بأعيادهم بوسائل مختلفة أهمها الغناء والموسيقى والرقص . وقد حافظت مملكة غرناطة الصغيرة على التراث الموسيقي الأندلسي العريق ، وراحت تصدره إلى البلاد المغربية التي حافظت عليه بدورها حتى اليوم يؤكد ذلك أن الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب يذكر أن لونا من الغناء الشعبي التونسي في الوقت الحاضر يعرف بلحن غرناطة .

ويشير ابن الخطيب الى أن الحشيش انتشر في غرناطة في القرن الثامن الهجري بين الخاصة والعامة ، وحل محل الخمر في المحافل ومجالس الطرب ، ويلوح بأن السلطان أبا سعيد البرميخو كان من مدمني الحشيش بدليل أنه كان يعرف مكامن الحشاشين في غرناطة ودل عليها صاحب الشرطة (٢) . أما الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية فقد اتخذ في غرناطة مسحة دينية تختلف بطبيعة الحال عن مجالس اللهو والطرب والشراب التي عهدناها دائماً في الأندلس ، فكان يحتفل بها في المساجد والزوايا والرباطات وفي قصر الحمراء نفسه حيث كانت تقام الصلوات وتتلّى الآيات البينات ، وينشد الشعراء القصائد المناسبة

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، طبعة القاهرة ، ج ١ ص ٣٧ .

(٢) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، ص ١٨٣ .

لمقتضى الحال الى جانب الأناشيد والموشحات الدينية وحلقات الذكر التي كان يصاحبها المزف على بعض المزامير المسماة بالشبابية أو البراعة ^(١) .

* * *

وكان المغنون والمغنيات ينشدون الشعر الغنائي الرقيق سواء كان موشحاً أو زجلاً أو شعراً كلاسيكياً على نغمات الموسيقى ، وتتألف الجوقة الموسيقية عادة من عواد وزامر في الناي ، وناقر على الدف أو ضارب بالصنج ، وتصحب هذه الآلات المغني أو المغنية حتى إذا ما وصل إلى الجزء الرابع من كل بيت رددته معه البطانة ^(٢) ، وهم جماعة المنشدين الذين يرددون مع المغني بعض المقاطع ويعرفون بالزمرة . وفي معظم الأحيان كانت الجوقة لا تعدو زامراً أو ضارباً على الدف أو على العود أو الرباب .

ولقد تعددت آلات الطرب في الأندلس في عصر الموحدين ، وذكر الشقندي أسماء الآلات التي تقتنيها إشبيلية وحدها فقال : « وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب كالخيال ، والكريج ، والعود ، والروطة ، والرباب ، والقانون ، والمؤنس ، والكنيرة ، والقنار ، والزلامي ، والشقرة والنورة ، وهما مزماران : الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه ، والبوق . وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد ، وليس في بر المدوة من هذا شيء إلا ما جلب اليه من الأندلس ، وحسبهم الدف وأقوال والبرا وأبوقرون ودبدبة السودان وحماقة البربر » ^(٣) . أما ابن خلدون فيذكر أسماء الآلات الموسيقية المعروفة في

(١) مختار المبادي ، الأعياد في مملكة غرناطة ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد ١٥ ، مدريد ١٩٧٠ ص ١٤٧ .

(٢) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٨٢ .

(٣) فضائل الأندلس ، ص ٥٢ .

المغرب في عصره : فمن آلات الزمر : الشبابة ، وهي قصبة جوفاء مزودة بأبجاش معدودة في جوانبها ، وينفخ فيها فتصوت ، ويخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك الأبجاش ، ويقطع الصوت بوضع أصابع اليدين على الأبجاش المذكورة وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه فيلتذ السمع بإدراكها . ومنها الزلامي ، وهو من نفس نوع الآلة السابقة ، ومنها البوق النحاسي المخوف . أما الآلات الوترية فيذكر أنها كلها جوفاء ، وأن منها ما كان على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون ^(١) . والآلات الوترية جميعاً تشد أوتارها على سطحها من جانبيها إلى دسر (مفاتيح) جائلة حتى يتمكن الموسيقي من شد الأوتار وإرخائها حسب ما يقتضيه اللحن وذلك عن طريق إدارتها ، ثم تقرر الأوتار بمضارب من الخشب أو من قوادم النسر أو « بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلي بالشمع والكنندر ، ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر ، واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار ، فيما يقرر أو يحك الوتر ، فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة » ^(٢) .

وبالإضافة إلى الآلات الموسيقية سألقة الذكر كانت هناك آلات أخرى للقرع مثل الدفوف والأقوال وهي أنواع من الطبول ، ومنها الطسوت التي تقرر بالقضبان ^(٣) .

وقد انتقلت أسماء كثير من هذه الآلات الموسيقية الأندلسية إلى اللغة القشتالية مثل :

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٧٥٨ ، ٧٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٥٩ .

(٣) نفسه ، ص ٧٦٠ .

العود Alàud - الطنبور Tambore - الدف Adufe -
 الطبل Atabale - البوق Alboque - القيتار Guitarra -
 الكريج Carrizo - الروطة Rota - الكنيرة Citara -
 الرباب Rabel .

ومن اللغة القشتالية انتقلت إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والإيطالية
 وغيرها مثل العود Lute (بالانجليزية) ، وقيتار Guitar (بالانجليزية)
 وطبل Tambour (بالفرنسية) .

ملحق (١)

احتفال المأمون بن ذي النون بإعذار حفيده يحيى
بقصر الناعورة بطليطلة

« قال ابن حيان : كتب إليّ الأديب ابن جابر ، قال : احتفل المأمون ابن ذي النون في مدعاة إعذار حفيده يحيى ، فحشد أمراء البلاد ، وجملة الوزراء والقواد ، فأقبلوا إليها كالقطا القارب أرسالا ، وقد رسم لخدمته في توسيع مشارب هذا الإعذار ، وإرغاد موائده ، وتكيل وظائفه ، وإذكاء مطابخه ، رسوماً انتهوا فيها إلى حدّه ، وشقّق عليها جُيوب أكياسه ، وأمر بالاستكثار من الطهارة والإتّاق للقدور ، والإتراع للجفان ، والصلة لأيام الطعام ، والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام ، والإغراب في صنعة ألوانها مع شباب أباريقها بالطيبوب الزكية ، والقِران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين حار وبارد ، ولعلو وحامض ؛ والمائلة بين رائق أشخاصها وبين ما تُودّع فيه من نفائس صحافها ، والاستكثار لها من أنواع الحلواء المخبّرة للبعد من داء الإلتخام ، وتجاوز عسلها إلى السكر . فجاءوا في ذلك كله بأمرٍ كُبار أبيدت لمطابخه أمم من الأنعام ، جمع فيه بين المشاء والطيّار والعوّام . وانتسفت لمخابزه أمراء من الطعام ، وأنفقت على مجاميره ومعاطيره جُمْل من الأموال الجسام ، فاغتدى ختاماً لمداعي أهل الإسلام العظام .

وشرّف المأمون بالاشتراك مع تطهير حفيده يحيى صبياناً من بني أصحابه ،

وبداً بحفيده قبلهم ، فكان أسكن من حنيف معه جاشا ، وأقلهم زمنا ،
 وإنه مشى - زعموا - إلى الحديد مشيَ البطل النجيد ، ومكثن الخائن من
 عضوه ، فأعانه على إحكام صنعه ، وسوى ختانه ، وخفف آلامه ، وأوشك
 إقرافه ، فخلص من محنته هذه الشرعية ، خلوص صادر السهام المصممي
 للرمية ، فسُر ابن ذي الذون وشام برق الأمنية . فعند ذلك أذكى نيرانه ،
 وأنضج أطعمته ونصب موائده ، ودعا الجفلى إليها ، ولم يفسح لأحد
 عنها . فاكتملت الأطعمة ، وفتحت الأبواب ، وسُهل الحجاب ، ورفعت
 الستور ، وجُلبت المقاصير ، وزُيِّنت القصور ، وأقيمت المراتب ، ووكل
 بكل قسم منها كبيرٌ من وجوه الخدمة ضُم إليه فريقٌ من الأعوان
 والوزعة ، يتصرفون بأمره ، ويقفون عند حده . قد أخذوا بخفض
 الأصوات مع سرعة الحركات وحث الأقدام ، فصار من بديع ذلك الصنيع
 الفخم أن لم يعلُ فيه صوت ، ولا تشكَّى منه فوت ، فطال العجب من
 استوائه في مثل ذلك المشهد .

قال ابن حبان ، ولما بكَرَّتْ أفواجٌ عليّة الناس إلى باب القصر
 مستبقيين ، وغشيتَه زمرهم وزرافاتهم مبتدِرين ، أنزلوا عن دوابهم
 عند باب المنصب الأول ، فأذن لهم بالدخول على مراتبهم ، فمشوا وقد
 حفتهم سراة الصقّلب الخصيان ، وخواص الحشم والغلمان ، فأجلسوا في
 الدار الأولى ذات الخائر ^(١) الرّيان . فلما اكتملوا أدخلوا إلى المجلس الكبير ،
 فلما استقر فيه جمعهم خرجت تسمية من الأمير المأمون بإدخال القضاة
 والفقهاء ، والعدول ومن يليهم من كبار الناس ، دعاهم لذلك ذو وزارتين
 أبو الفرج ، فقاموا والسكينة عليهم ، يقدمهم قاضي القضاة أبو زيد بن عيسى
 القرطبي ، فأدخلوا بتكريم على تؤدّة ورفق ، وجيء بهم إلى الدار الكبرى
 الثانية ذات الساحة الواسعة الزاهرة ، ثم وصلوا إلى مجلس قد فرش بالديباخ

(١) البستان .

التستري المرقوم بالذهب ، وسُدت فوق حناياه ستور من جنسه تكاد تلتصق الأبصار بصناعة ألوانها وإشراق عقيانها ، وقد جلس لهم الأمير المأمون في جانب منه ، وحفيده في جانب آخر ، فأكب الناس عليه يهنئونه ، ويلثمون أطرافه ، ويتناغون فيما قد رووا وابتدعوا ، وهو يشملهم بإقبال طرفه ، ويعلمهم بإجمال رده ، فيثنون منه إلى حفيده يدعون له . ثم عدل بهم إلى مكان الأظعمة في المجلس الأول - على ذات اليسار من تلك الدار - الواسع القُطر الرحب الأبواب ، وقد فرش بالوطاء التستري ، وعُلقت على أبوابه وحناياه ستور الطميم المثقلة ذات الصُور المُقيدة للأحاط ، وقد مدت فيه صنوف الطعام . فأمعنت هذه الطائفة في الأكل ازدقماً وسرطاً ، واختضاماً وقضماً ، وانتهالاً وعلاً ، ووُصفاء الموائد الحافئون من حولهم يطردون الأذبة عن مجلسهم بطوال المذاب البديعة الصنعة ، المُقَمَّعة الأطراف بفاخر الحلية . ولما مضى لهم صدر من أكلهم ، نَجَم لهم الأمير المأمون قائماً فوق رؤوسهم ، متهمماً بشأنهم ، مبالغاً في تكريمهم ، قد حَفَّ به أدواء الوزارة وأهل الخدمة ، وأكابرُ الفتيان وأعاضم القواد قائمين بقيامه . ولما قضى وطراً من القيام بكمار متهم صدر راجعاً إلى مرتبته .

ولما فرغت تلك الطائفة جيء بهم إلى المجلس المرسوم لوضوئهم ، وقد فرش أيضاً بوطاء الوشي المرقوم بالذهب ، وعُلقت فيه ستور مثقلة بمائلة ، فأخذوا بحالهم منه ، وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النقاوات والذرائر المطيبات في الأقداح والأشاندانات الفضيّات المحككة الصناعات ، كادت تُغنيهم بطيبها عن الغسل . ثم أذني إليهم إثر ذلك الوضوء في أباريق الفضة المحككة الصنعة ، يصبون على أيديهم في طسوس الفضة المائلة لأباريقها في الحسن والجلالة ، فاستوعبوا الوضوء ، وأذنت من أيديهم مناديل تتضاءل لها ما عليهم سني الكسوة . ثم نقلوا إلى مجلس التطيب أفخم تلك المجالس ، وهو المجلس المطل على النهر العالي البناء ، السامي السناء ، فشرع

في تطيبهم في مجامر الفضة البديعة بفِلَقِ العود الهندي، المشوبة بقطع العنبر
 الفُسْتُقي، بعد أن تُدَيَّتْ أعراض ثيابهم بشآبيب ماء الورد الجوري،
 يُصَبُّ فوق رؤوسهم من أواني الزجاج المجدود، وفيآشات البلور المحفورة،
 ثم أدْنِيَّ إليهم قوارير المِها المحكَّمة الصنعة، الرائقة الهيئة، وقد أترَعَت
 بالغوالي الذكيَّة، التَّامَّة بسرِّها قبل الخبرة، المتخذة من خالص المسكِ
 الثُّبُتِيَّ، وعُضَّ العنبر المغربي، لأم بينها رشح البان البرمكي، فتناولوا
 من ذلك حتى لأفطرت سِبَالَتهم ذوباناً، وأعادت شِيْبَتهم شَبَاناً. فلما
 استتم هؤلاء الخَلَّةُ نعيم يومهم، من طعمهم وطيبهم، أقيموا للدخول على
 المأمون، فسلموا عليه، ودَعَوْا له. فأقبل عليهم أحسن قبول، وردَّ أجمل
 ردَّ، وأمر بإدخالهم إلى سِتْد مجالسه المسمى المُكْرَم، نتيج همته، وبديع
 حكمته، السائر خبرُهُ، الطائر ذكرُهُ، المعدوم (مثله)، ليمتَّعوا
 أبصارهم بالنزْهة، ولم يكن أكثرهم رآه إلى يومهم ذلك مع علُوِّ وصفه
 بخواطرهم، فلما رأوه صَغُرَ عندهم ما كانوا يستكبرونه من وصفه، ورجعوا
 أبصارهم فيه، ونَبَتَ بعضهم بعضاً على دقائق معانيه.

[من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام
 القسم الرابع من المجلد الأول ص ٩٩ - ١٠٢]

ملحق (٢)

وصف مجلس الأنس الذي أقامه المأمون بن ذي النون
في قصره المعروف بالناعورة

قال ابن حيان : وذهب المأمون إلى تميم تكريم زواره من رجال
الأمراء الذين استحضروهم يومئذ لشهود فرحته ، بمشاهدة مجلس خلوته ،
وتنعم أسماعهم بلذات أغانيه ، وقد علم أن فيهم من 'يرخص' في النبيذ ولا
يسوغ له نعم دونه ، فاحتل حرج ذلك 'مبالغة' في تأنيسهم ، فاحتفل لهم
في مجلس قد 'نضد' وأحضر فيه جميع آلات الأنس . فلما استوى بالقوم
بجلسهم ، واثربوا إلى الأخذ في شأنهم ، قرب إليهم أطعمة طنورية ،
جوامد وباردة ، وصنوفاً من المصوص والأشربة والطيايح ، موائد مترعة
اتخذوها بسطاً لنبيذهم . ثم انتنوا إلى الشراب ونفوسهم به صبة ، وقد
مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ، ونظمت فوبة المغنين زمراً ، فهاجوا
الأطراب ، واستخفوا الألباب ، ونقلوا الطبايع فجاءوا بأمر عجاب ، بذم
فيه سابق حلتبتهم ، المحسد من جماعتهم ، الامرائيلي ذي ، الزائد
إحسانه على ابراهيم الموصلي ، صديق إبليس ، الطريف من فنتته ، ومحابه
بالماحور في المكنون ، الذي اغتدى في باطله نسيج وحده ، يزدهي الميدان
جسه ، ويخرس الأطيّار شجوه ، قاتله الله من آخذ بالقلوب ! فطربوا
وطرب المأمون ليلئذ على وفور حله ، وكان الذي غنّاه فيها ذي صوتاً

شجياً لحسنه من خفيف الرمل ، مُطلّق بالحِنَصَر ، في مقطوعة نظمها
عبد الله بن خليفة الملقب بالمصري ، وهي :

باكِراً لبِكْرِ الدَّانِ إنَّ هداةَ العروس في السَّحَرِ
واضربُ عُقاراً تُخالُ حمرتها تحرقُ أيدي السَّقاءِ بالشررِ
فإن يحمي أحي بدولته ما قد محاه تصرُّفُ القَدَرِ
مَلِكٌ هو الدهر في عزيمته يطلُّعُ فينا بطلعة القمرِ

فطمح بآبن ذي النون الإطراب ، حتى حنَّ حنين النساب ، وخلع لوقته
عليه ثوباً من التُّسْتُرِي الأخضر مُطرزاً بالذهب ، ووصله بمائتي دينار ذهباً ،
ثم فضَّ الصلات والخلع في سائر الطبقات .

[من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام
القسم الرابع من المجلد الأول ، ص ١٠٤-١٠٦]

الفصل الثاني عشر

الفنون الصناعية

- (١) فن صناعة التحف العاجية
- (٢) فن صناعة التحف المعدنية
- (٣) فن النقش على الخشب
- (٤) فن صناعة التحف البلورية والزجاجية والخزفية
- (٥) فن الحفر في الرخام
- (٦) صناعة المنسوجات

الفنون الصناعية

ذكرنا فيما سبق^(١) أن دار الصناعة بقرطبة كانت تقع شمالي القصر الخلافي، بسبب تسمية أحد بابيه من الجهة الشمالية بباب الصناعة ، واستناداً إلى أن ابن عذارى يؤكد أن دار صناعة قرطبة بقصر قرطبة^(٢) . ويرجع الفضل في إنشاء هذه الدار إلى الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط ، وذلك بعد الغارة النورمانية على سواحل الأندلس الجنوبية وإشبيلية في سنة ٨٢٩م - ٢٣٠م^(٣) ، فقد نبهت هذه الغارة الأمير الأموي إلى أمرين: الأول ضرورة تحصين إشبيلية - وكانت عورة - بسور مانع ، والثاني إقامة دور لصناعة السفن. أما السور فقد تم إنشاؤه على يدي عبدالله بن سنان أحد الموالى الشاميين^(٤) ، وأما دور الصناعة فقد تم إنشاء واحدة بإشبيلية^(٥) ، وأنشئت أخرى بقرطبة^(٦) ، وثالثة

(١) راجع الفصل السادس من الجزء الأول ، ص ١٩٣ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) فيما يختص بهذه الغارة راجع : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ،

ص ١٥٢ - ١٦٢ .

(٤) ابن القوطية ، ص ٦٥ - ابن حيان المقتبس ، قطعة نشرها الدكتور الحجي ،

ص ١٤٤ - ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٩ - المحيري ، ص ٢١ .

(٥) ابن القوطية ، ص ٦٧ .

(٦) ذكر ابن عذارى أن الأمير محمد بن عبد الرحمن أنشأ بقرطبة عدداً من المراكب لهاجمة

جليقية من البحر (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٥٥) . ونستنتج من ذلك أن قرطبة زودت بدار

لصناعة السفن ، والظاهر أن هذه الدار أنشئت في عصر عبد الرحمن الأوسط .

بقرمونة^(١)، ورابعة بجزيرة شلطي^(٢). وفي عصر عبد الرحمن الناصر أنشئت دور للصناعة في كثير من مدن الأندلس مثل المرية^(٣)، وطرطوشة^(٤) والجزيرة^(٥)، ولقنت^(٦)، وقصر أبي دانس، ودانية^(٧)، والزهراء^(٨)، وشتعمرية بالبرتغال^(٩).

ثم تحولت دار صناعة الأسطول بقرطبة - لبعدها عن الساحل - إلى دار لصناعة التحف المعدنية والآلات، بمعنى أن نشاط هذه الصناعة اقتصر على الصناعات المدنية. ويذكر المؤرخون أن عبد الرحمن الناصر أمر بصناعة اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس في هذه الصناعة، تمثل أسداً وغزالاً وتمساحاً وثعباناً وعقاباً وفيلاً وحمامة وشاهيناً وطاووساً ودجاجة وديكاً وحدأة ونسراً، تمج جميعها الماء من أفواهها^(١٠)، وذلك لكي تنصب حول الحوض الرخامي الذي استحضره من القسطنطينية.

وكان من الطبيعي ألا تتمكن هذه الصناعة من إنتاج ما يفي بتزيين

(١) الحميري، ص ١٥٩.

(٢) الإدريسي، ١٧٩.

(٣) كانت هذه الدار مخصصة لصناعة العدة والآلات اللازمة للسفن وما يقوم به الأسطول (ابن غالب، ص ١٤).

(٤) كانت تصنع فيها المراكب الكبار من خشب جبال طرطوشة الصنوبري الذي يمتاز بطوله وغلظه وصفاء بشرته ودسامته، كما كانت تصنع منه القري والصواري (الإدريسي ص ١٩٠ - الحميري، ص ١٢٤).

(٥) الحميري ص ٧٣.

(٦) كانت تلتصق فيها المراكب السفرية والحراريق (الإدريسي، ص ١٩٣).

(٧) الإدريسي، ص ١٩٢ - الحميري، ص ٧٦.

(٨) كانت مخصصة لصناعة آلات السلاح (المقري، ج ٢ ص ١١٢).

(٩) الحميري، ص ٧٦.

(١٠) ابن عذاري، ج ٢ ص ٢٤٤ - المقري، ج ٢ ص ١٠٤.

منشأته ، خاصة بعد توسع في أعمال البناء والمعمار في الزهراء ، لذلك اضطر إلى إنشاء دار ثانية لصناعة آلات السلاح للحرب والحلي والزينة وغير ذلك من التحف ، أنشأها في مدينة الزهراء (١) .

وقامت في قرطبة بالإضافة إلى هذه الصناعات ، صناعات أخرى للاستهلاك الداخلي أو للتجارة الخارجية كالنسيج وما يتعلق بصناعته ، والتحف الزجاجية والبلورية والخزفية ، والجلود (٢) . وكان لكل طائفة حرفية أمين لها يسمى أحياناً العريف يتولى تمثيلها أمام المحتسب ، ويعتبر مسؤولاً أمام شيخ التجار عن كل إخلال داخل نطاق الطائفة التي ينتمي إليها بالقواعد المتفق عليها فيما يتعلق بالأمانة التجارية . وكان لكل طائفة حرفية أو صناعية مواضع للصناعة أو البيع خصصت بالنسبة لكل مدينة في بعض حومات تقع إما في قلب المدينة أو في الأطراف ، وإن كان معظمها يتجمع في السوق الممتد في نواحي المسجد الجامع . وكان السوق التجاري والصناعي بقرطبة بمحوائيه العديدة يتألف من شبكة من الحارات الضيقة والدروب خصص كل منها لحرفة تحمل اسم أصحابها (٣) ، ويتخلل هذه الحارات هنا وهناك ساحات صغيرة تسمى رحبات (٤) . ومن المعروف أن التنظيم الحرفي كان يميز بين المعلم (شيخ الصنعة) ، والصانع المدرب ، والمتعلم (الصبي) ، وكان من حق شيخ الصنعة أن يستثمر أمواله الخاصة ، إلا أنه في معظم الأحيان كان يحدث أن يرتبط اثنان أو

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٢) ذاعت شهرة قرطبة في صناعة الجلود وعمل الأقراق والنعال وجلود الكتب ونقشها ، إلى حد أن اسم قرطبة أصبح يطلق في اللغة الفرنسية على صانع الأحذية Gordonnier وذلك بسبب ما أصابته قرطبة في هذا المجال من شهرة عالمية .

(٣) كالحدادين والفخارين والسروجيين والرقاقين والصباغين والدباغة والطرازين والقراقين والحصارين .

(٤) Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, (٤) p. 304 - 305

أكثر بعقد شركات لتوفير ما تحتاج إليه الطوائف الصناعية من عدد وآلات ثينة .

وفيا يلي دراسة لأهم الصناعات الفنية التي اختلفت بها قرطبة في العصر الاسلامي .

(١)

فن صناعة التحف العاجية

يتمثل فن النحت الأندلسي أروع تمثيل في التحف المصنوعة من العاج التي كانت تصنع خصيصاً (في دار الصناعة بالزهراء) لجاريات الخلفاء وروجاتهم إما لحفظ العطور والعنبر والمسك ، أو لصيانة حلين وأدوات الزينة . ولقد بدأت صناعة التحف العاجية بالأندلس ببداية التوسع الخلافي في المغرب الأقصى ، عندما احتك الأندلسيون بسكان المناطق الداخلية في المغرب ، وكانت تجارة العاج من التجارات الرائجة التي يشتغل بها الغانيون والمغاربة ما بين غانة والسودان في الجنوب وبلاد المغرب في الشمال . وتحفظ معظم العلب التي تنسب إلى دار الصناعة بقرطبة أو مدينة الزهراء بأسماء من صنعت لهم وأسماء الصناع الذين قاموا بصاعتها ، وسم مدينة الزهراء ، مما يرفع من قيمة هذه التحف ويجعلها بحق من أصدق المصادر التي تعيننا على دراسة هذا الفن الصناعي وتطوره . وتتخذ هذه العلب شكلين مختلفين علب أسطوانية الشكل ذات عطاء مقبب ، وصناديق مستطيلة الشكل لها أغطية على شكل هرم ناقص أو مسطحة . ويقسمها الأستاذ خوسي فرنانديس من حيث الزخرفة إلى ثلاثة أنواع : الأول يشتمل على زخرفة من التوريقات التي تختلط أحياناً برسوم حيوانات ، والثاني تنحصر زخارفه داخل حامات مستديرة أو مفصصة

تطوق رسوماً آدمية أو حيوانية محفورة ، وأحياناً تحصر مناظر للصيد أو مجالس طرب وشراب. والثالث نوع تمثله زخارف دقيقة لأشخاص أو حيوانات بين توريقات ^(١) .

ومن أروع أمثلة هذه الصناعة التي اختصت بها قرطبة والزهراء صندوقان من العاج صنعا في مدينة الزهراء بأمر الخليفة الحكم المستنصر في سنة ٣٥٥ للسيدة صبح أم هشام ولي عهده ، أحدهما محفوظ اليوم في متحف بلنسية دي دون خوان بمدريد ، والثاني في كنيسة فيترو بنبرة Navarre ، ويتميز هذا الصندوق الأخير باحتفاظه باسم الصانع « خلف » ^(٢) .

وإلى هذا المصنع أيضاً يمكن أن ننسب علبة صنعت بمدينة الزهراء ، بأمر الحكم المستنصر لزوجته السيدة أم ولده عبد الرحمن على يدي دري الصغير الفتي الصقلي في سنة ٣٥٣ ، محفوظة اليوم بمتحف جنوب كنسبجتون بلندن . وتغطي جميع جوانب الصندوقين سالفى الذكر زخارف بارزة على أرضية ملساء داكنة اللون لا يتخللها أي فراغ على الإطلاق ، وإذا قارنا بين هذه الزخارف وبين الزخارف المعمارية المعاصرة لها لوجدنا أنها تفوقها في درجة الثراء والحشد الزخرفي . أما العلبة المحفوظة بلندن فهي تحفة رائعة الجمال لا نظير لـ زخارفها وتوريقاتها ^(٣) .

وفي متحف الآثار بمدريد علبة أخرى من العاج صنعت في سنة ٣٥٣ أي في نفس العام الذي صنعت فيه علبة لندن ، لا تقل في ثرائها الزخرفي عن التحف السابقة . ومن عصر الحاجب عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر

(١) José Ferrandis, Marfiles arabes de Occidente, t. I, Madrid 1935

(٢) مرزوق ، الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس ، ص ١٨٧ .

(٣) Torres Balbas, arte hispano musulman, p. 734

صندوق من العاج محفوظ في كاتدرائية بنبلونة ، صنع في مدينة الزهراء في سنة ٣٩٥ هـ على يد الفني نير بن محمد العامري ، واشترك في صناعته عاملان هما عبيدة وخير . وزخارف هذا الصندوق تتألف من جامات مفصصة تتضمن مناظر لحياة البلاط في قرطبة ، وأخرى تمثل مناظر صيد ومبارزات (١) .

ولما اشتعلت نيران الفتنة بقرطبة على أثر مصرع شنجل ، هاجم البربر قصور الزهراء ودمروها وأحرقوا مبانيها ومن جملتها دار الصناعة ، فتوقفت منذ ذلك الحين عن الإنتاج . ويغلب على الظن أن صناع قرطبة هاجروا إلى بلاط المأمون بن ذي النون ملك طليطلة حيث غمرهم بفيض من رعايته ، وشجعهم على الاستقرار في ظل كرمه بمدينة قونكة إحدى مدن مملكة طليطلة في عصر الطوائف . ونستنتج من إنتاج دار الصناعة بقونكة أن صناديقها غنية بالزخارف ولكنها فقيرة في مادتها لعدم توافر العاج ، فلم يكن من السهل الحصول على كميات من العاج من المغرب بعد سقوط الخلافة ، وهكذا أصبح استخدام العاج وقفاً على كسوة رقيقة تنفذ فيها الزخارف بحيث تمكنا من رؤية أرضيتها الخشبية (٢)

(٢)

فن صناعة التحف المعدنية

ذكرنا فيما سبق أن قرطبة اشتهرت بصناعة آلات الحرب والتحف المعدنية كالتماثيل والقدرور والطسوت والأقداح والأباريق والطسوس والمباخر والمجامر

(١) مرزوق . المرجع السابق . ص ١٨٧ .

(٢) عبد العزيز سالم . الفنون والصناعات بالأندلس . كتاب الشعب رقم ٦٤ . ص ١٨٣ .

والثريات ، هذا بالإضافة إلى شهرتها في صياغة الحلى من أقراط وأساور وعقود ، على عرار المتحف الشرقية البغدادية . وفيما يلي تقسيم لأنواع الصناعات المعدنية التي اشتهرت قرطبة بعملها .

أ - صناعة الآلات الحديدية

ذكر الادريسي أن بجمال حصن قسطنطين الجديد « معادن الحديد الطيب المتفق على طيبه » ، وكثرته ، ومنه يتحجر به إلى جميع أقطار الأندلس^(١) ، كذلك يكثر الحديد في الأندلس بفريش الواقعة بالقرب من قرطبة^(٢) ، وفي عرناطة^(٣) ، بينما يتوافر كل من معدني الحديد والنحاس في المرية^(٤) وطليلة^(٥) . وقد استخدم الحديد في صناعة آلات السفن كالمراسي والمسامير ، وفي صناعة العدد وآلات الحدادة كالمزاليج والمفصلات . وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الآلات والعدد الحديدية خاصة ما يتعلق منها بأعمال البناء ، وقد عثر في حفائر الزهراء على قطع عديدة من الأدوات الحديدية من مزاليج ومفصلات ثبتت بها مسامير كثيرة للأبواب قد تأكسدت وتآكلت بفعل الصدأ . وكانت هذه المزاليج والمفصلات تزيد من وثاقة مصاريع الأبواب . وتقسّم المسامير المذكورة لفلطحة ، رؤوسها وتضليلها واتخاذها أشكالاً نجمية^(٦) .

(١) الادريسي ، ص ٢٠٧ .

(٢) ابن غالب ، ص ٢١ - الحميري ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عبدالله غان ، ج ١ ص ١٠٤ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٤) الادريسي ، ص ١٩٧ - الحميري ، ص ١٨٤ .

(٥) الادريسي ، ص ١٨٨ - الحميري ، ص ١٣٥ .

(٦) Torres Balbas. Arte H M p 745 ، ٦ .

ب - المتحف المصنوعة من النحاس والصفو والبرنز

يذكر الشريف الإدريسي أن المتحزون الواقع إلى شمال محراب جامع قرطبة « عدد وطسوت ذهب ، وحسك ، وكلها لوقيد الشمع »^(١) ، ونقل المقرئ نصاً عن أحد المؤرخين جاء فيه أن « في الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأحل وقوده »^(٢) ، وأغلب الظن أن هذه الطسوت والآنية صنعت من النحاس في دار الصناعة بقرطبة . أما أبواب المسجد ، فيذكر الإدريسي أنها « مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس » وفي كل باب منها حلقتان في نهاية الإتقان^(٣) ، ويؤكد المقرئ أن هذه الأبواب كانت محرمة تحريماً عجباً بديعاً يعجز الشر ويهرم^(٤) . ونعتقد أن هذه الأبواب كانت مكسوة بصفائح من البرنز على غرار مصراعي باب جامع إشبيلية الموحدية ، وأنها محرمة مخطوط متقاطعة تؤلف أشكالاً مسدسة تتناوب في وضع أفقي ورأسي ، وتتخللها أشكال نجمية بداخلها أشكال هندسية مثمنة . وقد عثر في حفائر الزهراء على قطعة من مصراع خشبي لأحد الأبواب مصفحة بالنحاس المذهب عليها آثار حرق

ونستدل على ازدهار صناعة التحف النحاسية في قرطبة من الأمثلة التي تم العثور عليها في هذه المدينة ، منها قدر من الصفو المذهب كروي الشكل ، محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلي بمديده ، وتزدان حافته من أعلى شريط من الكتابة يتضمن كلمة « بركة » تتكرر حول فوهة القدر (أنظر الصورة) . أما حافة القدر السفلى التي تعلو القاعدة فتزدان بإفريز زخرفي يشتمل على رخرقة من ساق بسائية متفرعة وممتدة حوله ، ويزدان بقية القدر بجمادات متصلة بداخلها

(١) الإدريسي ، ص ٢٠٩ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٣) الإدريسي ، ص ٢١٠ .

(٤) المقرئ ، ج ٢ ص ٩٥ .

رسوم حيوانات وطيور ، وجميع الزخارف والرسوم من النوع البارز ^(١) .
وفي نفس المتحف قدح صغير للغاية لعله كان مخصصاً لحفظ الأدهان الطيبة
والعنبر ، يزدان سطحه بدوائر متصلة تملؤها صور تمثل غزلانا بين توريقات ^(٢) .

كذلك عثر بأرضية أحد منازل قرطبة وعلى عمق ثلاثة أمتار على ١٣ تحفة
من البرونز والنحاس الأصفر أهمها مبخرة يبلغ ارتفاعها ١٦ سم وقطرها ٩,٥
سم ، نصفها الأدنى أسطواني الشكل يزدان بدوائر متصلة بداخلها رسوم
حيوانية وطيور من النوع البارز المطروق ، وتقوم المبخرة على ثلاثة أرجل ،
أما الغطاء فنقوش يتخذ شكل خوذة تتجاوز نصف الكرة ، ويزدان هذا
الغطاء المقبب بزخارف مخرمة ومفرغة تمثل عقوداً ثلاثية الفصوص قائمة على
عمد صغيرة ، وبداخل كل عقد طائران متدبران بينهما شجرة تنفرغ منها
أوراق لولبية . ومن هذه التحف أيضاً ثلاثة مجامر : اثنتان مسدستا الشكل
من الصفر ، ومجرة مكعبة الشكل من النحاس ، وزخارف هذه المجامر جميعاً
من النوع البارز المطروق ، وأجلها مجرة مسدسة الشكل تزدان بزخارف من
التوريق والكتابات وصور تمثل غزالين متقابلين بينهما شجرة . والقسم العلوي
من هذه المجرة يزدان بشريطين من الزخارف المخرمة أعلاهما على شكل
شرفات مسننة ، وأدناها يتضمن كلمة « بركة » قد فرغ ما بين حروفها .
وترتكز المجرة على ستة أرجل مبرومة تفتحي بكرات . أما المجرة مكعبة
الشكل فإن حافتها العليا تنتهي على امتداد الأرجل الأربعة بأربع حمامات ،
وتكسو جوانب المجرة زخارف هندسية ونباتية مفرغة . ومن بين التحف
المذكورة إبريق من الصفر يبلغ ارتفاعه ٢٨ سم يشبه القلة ، يزدان بدنه
بأشرطة تحتشد فيها زخارف نباتية وهندسية وجامات مستديرة ومفصصة
بداخلها رسوم حيوانات ، ومنها أيضاً مهرس من البرنز (هاون) أسطواني

(١) Torres Balbas, op. cit. p. 760

(٢) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 336 ، والترجمة العربية ص ٣٩٢ .

الشكل تقريباً ، مزود بحلقة يعلق منها ، ويزدان هذا المهرس بزحارف بارزة مطروقة ، ومنها قنديل من الصفر له مقبض ومنقاران يتصلان بمستودع الزيت عن طريق فتحتين على شكل عقدتين من حمسة فصوص ، وتغطيه من أعلى نجمة مئمة الرؤوس ومحركة . ويرجع الأستاذ تورييس بلباس تاريخ هذه التحف جميعاً إلى نهاية عصر الخلافة بقرطبة (١) .

واشتهرت دار الصناعة بقرطبة في عصر الخلافة بإنتاج تماثيل برونزية لحيوانات وطيور كانت توضع حول البرك والأحوض ، من أمثالها ، فقد ذكر ابن بشكوال أن خلفاء بني أمية 'حروا' إلى قصر قرطبة المياه في قنوات الرصاص تؤديها من جبال قرطبة إلى أندية القصر وساحاته ، صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى المعيرات الهائلة والبرك البديعة والصحاريح الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة (٢) . وفي موضع آخر يشير ابن بشكوال إلى القناة التي أجرى فيها عبد الرحمن الناصر المياه من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة على الحنايا إلى بركة نصب عليها 'أسد عظيم الصورة' ، بديع الصنع ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد ، يحور هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجه في تلك البركة من فيه ، فيسهر الناظر بحسنه وروعة منظره ، وتجاوة صبه ، فتسقي من مجاهه حنان هذا القصر ، (٣) كذلك تشير مصادر التاريخ العربية إلى التماثيل البرونزية التي كانت تزين مجالس قصر الزهراء ، وأن عبد الرحمن الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر الذي جلبه أحمد اليوناني وربيع الأسقف من القسطنطينية في مجلسه الشرقي المعروف

(١) Torres Balbas, Arte Hispano musulman, p. 762 - 764

(٢) القرني ، ج ٢ ص ١٢ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٠٠٠٠٠ .

بالمؤنس ، وجعل عليه « اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدرّ »
 النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد يجانبه غزال ، إلى
 حانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي المجنبتين حمامة وشاهين
 وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكل هذا من ذهب مرصع بالجواهر
 النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها ،^(١) . وقد أثبتت الأيام صدق ما ذكره
 المؤرخون ، فقد أسفر الكشف الأثري عن أمثلة لهذه التماثيل ، أحدها عثر
 عليه في أطلال الزهراء ثم نقل إلى دير سان خير وبيمو القريب من موقع
 الزهراء ، ثم حمل بعد ذلك إلى متحف الآثار الأھلي بقرطبة ، وهو عبارة
 عن وعل أو غزال مجرد من قريه ، ولعل هذا الغزال أو الوعل هو الذي
 أشار إليه المقري عند وصفه للتماثيل المنصوبة في المجلس الشرقي المعروف
 بالمؤنس ، ويبلغ ارتفاع هذا التمثال نحو ٤٠ سم ، ويقوم على قاعدة مستطيلة
 الشكل مجوفة من الداخل ، يتصل بها عند وسطها أبواب من الرصاص يد
 القاعدة بالمياه ، فتصعد في الأرجل ثم في الجسم المفرع ، إلى أن تصل إلى
 الرأس وتنطلق بقوة من فيه . ويزدان الوعل بزحارف محزورة من دوائر أو
 حلقات متصلة ، بداخل كل منها ورقة من النسات^(٢) . كذلك عثر في قرطبة
 على تمثال لوعل آخر من البرور المذهب محفوظ اليوم في متحف الآثار بمدريد ،

(١) ان عدارى ج ٢ ص ٣٤٥ المقري ج ٢ ص ٤ .

ويصف ان بسام أسماء أدوات معدنية كانت تستخدم إما لصب الماء عند الرضوء كأباريق
 الفضة تسكب منها المياه في « طسوس الفضة » ، والأقدح والأشاندانات الفضية أو لحرق
 النخور كالجوامر الفضية . والطسوس هي أحواض من اللاطون (Dozy, Supplément t. II, p. 43)
 والأشاندانات آنية للطيب (Dozy, op. cit p. 25) . ويصف تماثيل الأسود
 المنتصبة على محوري قصر الناعورة بطليلة نقواء « يهده الدار حيرتان قد نصت على أركانها
 صور أسود مصوعة من الذهب الإبرير أحكم صباغة . تتجبل لأمنها كالحة الوحوه فاعرة الشدوى ،
 يلساب من أفواهها نحو الحبرين الماء هوأ كوشيش القطر أو سحالة اللحين » (ان
 بسام . قسم ٤ مجلد ١ ص ٣٠٠)

(٢) حومت موريو الفن الإسلامي في سابع ص ٤

يبلغ ارتفاعه ٣٢ سم ، قد ضاع قرناه وأحد أذنيه ، ويزدان هذا العمل بزخرفة من دوائر بين سيقان متموجة على نحو أكثر تفنناً وتنوعاً من عمل الزهراء . إلا أن شكل وعمل قرطبة يبدو غير متناهي لصغر أرجله وضياح أذنيه وقرنيه ، وكان الماء يتخلله من أنبوب يتصل بوسط بطنه ، إذ أن أرجله صماء ^(١) .

وتنعمو هذه التماثيل جميعاً نحو المذهب التجريدي الذي اتجه إليه الفنان المسلم عندما عمد إلى تجريدتها من معاني الحياة ، فحوّرت في شكلها تحويراً أبعدتها عن مظهرها الأصلي في الطبيعة ^(٢) . ومن التحف البرنزية التي عثر عليها في قرطبة قدر من البرنز سمته ١٣ سم ، محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهملي بقرطبة ، عثر عليه في آثار منية العامرية ، يزدان في حافته العليا بنقش كتابي نصّه : « الملك » تتكرر بين شريطين تحف بهما دوائر صغيرة بداخلها نقط .

ومن التحف المصنوعة من النحاس الصفرة الثريات ، وكان جامع قرطبة على حد قول ابن سعيد يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاطون (الصفرة) عدد كؤوسها يبلغ سبعة آلاف وأربعمائة وخمسة وعشرين كأساً ، وقيل عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤوس ، فيها أربع ثريات كبار معلقة في البلاط الأوسط ، أكبرها الثريا الضخمة التي تتدلى في قبة المحراب ، وكانت تحمل وحدها ألفاً وعشرين كأساً ^(٣) ، وللأسف لم يلبق اليوم أي واحدة من هذه الثريات ، ولعلها كانت تشبه الثريات البرنزية التي كانت بيت الصلاة يجامع البيرة ، وعددها ستة أكبرها ثريا على شكل طبق مستدير مخروم في شكل هندسي جميل ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها

(١) جومث مورينو، ص ٤٠٠ - Torres Balbas, Arte Hispano musulman, p. 750

(٢) عبد العزيز سالم ، القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١١ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٩ .

الكؤوس التي تضاء بالزيت ، وكان هذا المحط مرووداً لحلقات صغيرة تعلق منها السلاسل^{١٠}

ج - التحف الفضية

يشير الإدريسي إلى توافر معدن الفضة في موضع يعرف بالمرج يقع على مقربة من فرنجولش^(٢) وحصن المدور الذي يعتبر من القرى المحيطة بقرطبة. ويذكر المقرئ أن بقرطبة يتوفر معدن الفضة^(٣) ، ويؤكد في موضع آخر نقلاً عن ابن سعيد المغربي أن في حبة قرطبة الفضة والزئبق^(٤) . ويذكر السكري أن بإقليم كرتيش من عمل قرطبة معدن فضة حليل^(٥) .

ولتوافر وجود الفضة في قرطبة استخدمت كصفائح رقيقة تكسو باب مقصورة جامع قرطبة، أو لترصيع بعض حشوات المنبر عوضاً عن المسامير، أو في صناعة بعض ثريات الجامع، أو لصناعة بعض التحف كالصناديق التي تحفظ فيها الحلوى ، أو القنينات المتخذة لحفظ العطور . فقيماً يختص بباب المقصورة ، يذكر المقرئ نقلاً عن صاحب كتاب مجموع المفارق أن مقصورة جامع قرطبة من الفضة المحضة^٦ . وأما فيما يتعلق بالدير ، فإن ابن غالب يؤكد أن أوصال منبر جامع قرطبة من الفضة منتنة مبيّلة^٧ ، ويذكر المقرئ

(١) حوث موريو . ص ٣٨٧

(٢) الإدريسي . ص ٢٧

(٣) المقرئ . ج ٢ ص ٦٠

(٤) المرحع السابق . ج ١ ص ١٨٦

(٥) السكري حفرافية الأندلس وأوروبا تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحججي . بيروت

١٩٦٨ ص ١٢٩

(٦) المقرئ . ج ٢ ص ٨٥ . وذكر ابن غالب أن الباب الرئيسي للمقصورة كان من الذهب وعضاداته من الأسوس وحشواته من الفضة ، ابن غالب . ص ٢٩

(٧) ابن غالب . ص ٢٩

نقلنا عن ابن بشكوال أن وصلات المنبر سميت بمسامير الذهب والفضة ، وفي بعضها نفيس الأحجار ^(١) . أما بالنسبة للثريات فقد روى المقرئ نقلنا عن ابن بشكوال أن ثريات الجامع موشاة بالذهب ما عدا ثلاثة ثريات من الفضة لعلها ثريات قباب المقصورة الثلاث ^(٢) . أما استخدام الفضة في صناعة التحف فكان أمراً مألوفاً اختصت به قرطبة : فابن عذارى يذكر أن المنصور بن أبي عامر في أول أمره عمد إلى استئالة السيدة صبح البشكنسية زوجة الحكم ، فصاغ لها قصراً من فضة وقت ولايته للوكالة والخزانة ، عمل فيه مدة ، وأنفق فيه مالا جسيماً فجاء بديعاً لم تر العيون أعجب منه ، ^(٣) .

ولقد وصلت إلينا لحسن الحظ أمثلة كثيرة من التحف الفضية من صناعة قرطبة في عصر الخلافة ، من بينها الصندوق المعروف بصندوق كاتدرائية جرنندة Gerona ، ولعله كان من جملة الأسلاب التي حملها معهم القطلانيون بعد دخولهم قرطبة في سنة ٤٠٠ هـ ^(٤) . والصندوق المذكور من الخشب تكسوه صفائح من الفضة المزينة بالزخارف المطروقة ، وقاعدته مستطيلة الشكل طولها ٣٩ سم وعرضها ٢٣ سم ، وغطاؤه على شكل هرم ناقص يتوسطه من أعلاه مقبض . وتزدان صفائح الفضة بزخارف من التوريقات النباتية رائعة التكوين من الطابع الحلافي تتخذ أغصانها الملتفة شكل زهرات . ويحتفظ الصندوق بفصلتين منقوشتين بطريقة الطرق ^(٥) ، ويحمل الصندوق

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٤) في سنة ٣٩٩ أخرج الخليفة هشام المؤيد ما في قصره من حلى ثمينة وذخائر وأواني فضية وذهبية واضطر إلى بيعها (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠٢) . وفي سنة ٤٠٠ استعان المهدي محمد بن عبد الجبار بقومس برشلونه ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمنيجول (في المصادر العربية أرمنند) فزوداه بتسعة آلاف من أجنادها القطلايين أعانوه على استرجاع قرطبة (راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ، ص ٨٦ وما يليها) .

(٥) Torres Balbas, op. cit. p. 764 - جرمث مورينو، ص ٤٠٢ .

نقشاً كتابياً نستدل منه على أن الحكم هو الذي أمر بصنعه ، وأن ذلك تم على يد فتاة جوذر ، وأن الصندوق خصص لابنه ووريثه هشام المؤيد ، والنص كما يلي : « بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين ، المستنصر بالله مما أمر بعمله لأبي الوليد هشام ولي عهد المسلمين . تم على يد جوذر فتاه » (١) .

وهناك ثلاثة صناديق فضية أخرى زخارفها النباتية ونقوشها الكتابية من نفس نوع زخارف ونقوش صندوق جرندة ، اثنان منها فقط يتخذان شكل قلبين يحفظان مخلفات القديس بلايو الذي استشهد في قرطبة في عصر عبدالرحمن الناصر ، تحتفظ بهما اليوم كنيسة سان إيسيدرو بليون ، أما الصندوق الثالث فمستطيل الشكل يبلغ طوله ٨ سم وعرضه ٦ سم يحتفظ به متحف الآثار بمدريد . والظاهر أن هذه التحف الثلاث حملت من قرطبة في عهد قرناندو الأول (٢) .

وعثر في قرطبة كذلك على قنينة من الفضة لحفظ العطور مع قنيتين صغيرتي الحجم وبعض عملات أحدثها عهداً يرجع إلى سنة ٣٩٤ هـ . والقنينة الكبرى محفوظة اليوم بمتحف الآثار بقرطبة ، وهي مزودة بغطاء ذي سلسلة قصيرة ترتبط بدورها في حلقة مثبتة في بدن القنينة . ويزدان عنقها بزخرفة مطروقة بارزة قوامها عقود صغيرة متجاوزة تحتها إفريز من ورقة نباتية متكررة ، بينما يزدان بدن القنينة بجبل متماوج (٣) .

(١) Lévi - Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, Leiden, 1931 — Repertoire Chronologique d'Épigraphie Arabe, t. V, le Caire 1934, p. 122

(٢) جومث مورينو ، ص ٤٠٢ - ٤٠٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٠٢ - 764 p. cit. Torres Balbas,

د - الحللى

في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط تدفقت على قرطبة تحف وذخائر ونفيس الجواهر مما كانت تحتويه قصور بغداد ، وذلك على أثر مقتل الأمين ، مثل عقد الشبا أو الشفاء وأعلاق زبيدة بنت جعفر وأم الأمين ^(١) . وكان تجار الحللى والصاغة المشارقة يقدون إلى قرطبة لبيعها للأمرء والخلفاء ، ويذكر ابن عذارى أن تاجراً من عدن قدم إلى قرطبة زمن المنصور بن أبي عامر ومعه جوهر كثير وأحجار كريمة ، فاشترأها منه المنصور ^(٢) .

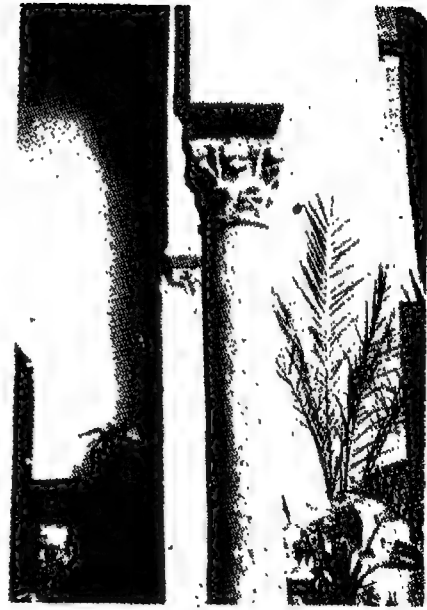
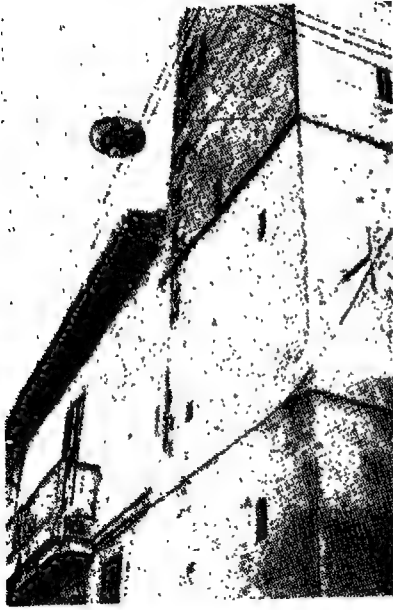
وإلى جانب هذه التحف والذخائر الشرقية التي كان لها سوق رائجة في قرطبة ، كان الصاغة القرطبيون ، ومعظمهم يهود ، يشتغلون بصياغة الحللى في منطقة تعرف بالصاغة ، وكانت الحللى تشكل وتصاغ وفقاً للأساليب الفنية القوطية التي كان يحتفظ بها المعاهدة من النصارى أو الأساليب الشرقية وعلى الأخص الطراز العراقي ^(٣) . وكانت علب المصاغ العاجية عند نساء الخاصة من أهل قرطبة تمتلئ بالعقود المرصعة باليواقيت والفصوص ، والخواتم ، والأقراط والاساور والدملج والخلاخيل والتيجان ، والدلايات الذهبية المرصعة باليواقيت والزمرد ، وكان أمراء بني أمية لا يرضون على قيامهم ومحظياتهم وزوجاتهم بمثل هذه التحف من قبيل الإعلان عن إعجابهم بهم . وكان عبد الرحمن الأوسط كلفاً يجاريته طروب ، ويروي المؤرخون أنها غضبت منه يوماً وأغلقت بابها دونه ، فأمر برصّ ببدنّ المال على بابها حتى تُسدّ ، فلما فتحت تساقطت البدر عليها ، ثم أهداها حللياً قيمتها مائة ألف دينار ^(٤) . وذكر

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٦ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٣) Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne mus., t. III, p. 432

(٤) المقري ، ج ١ ص ٣٢٦ .



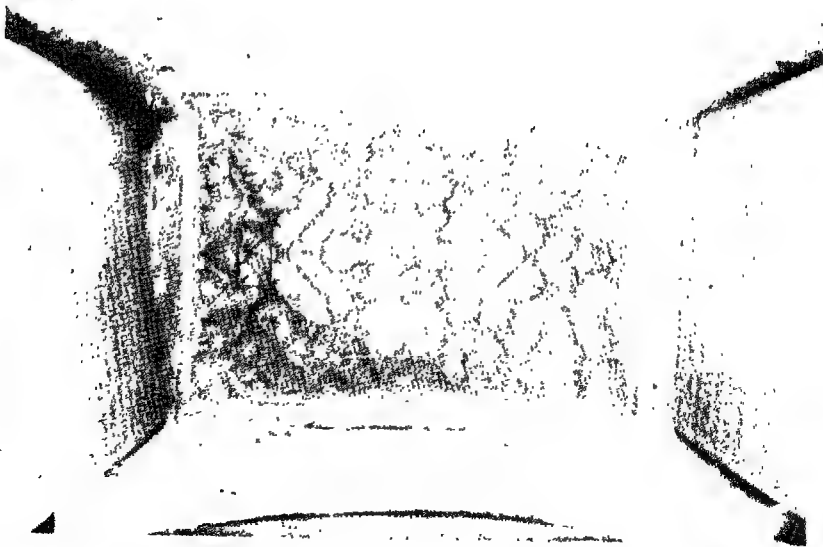
أ - مدخل كنيسة سانتا كلارا ب - منذنة المسجد الذي تحول الى
كنيسة سانتا كلارا بقرطبة



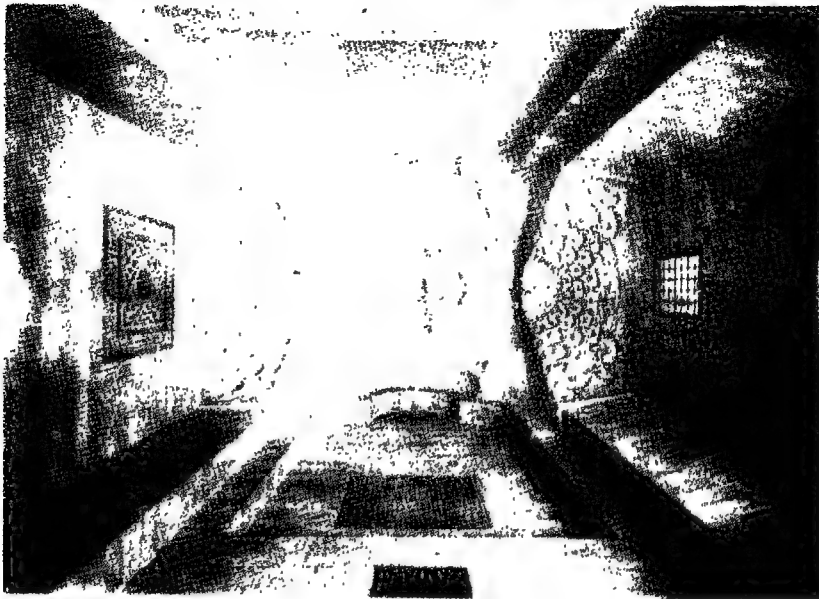
ج - مجلس الاستقبال بقصر الخليفة عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء



كنيسة سان ميغل دي اسكالادا بليون

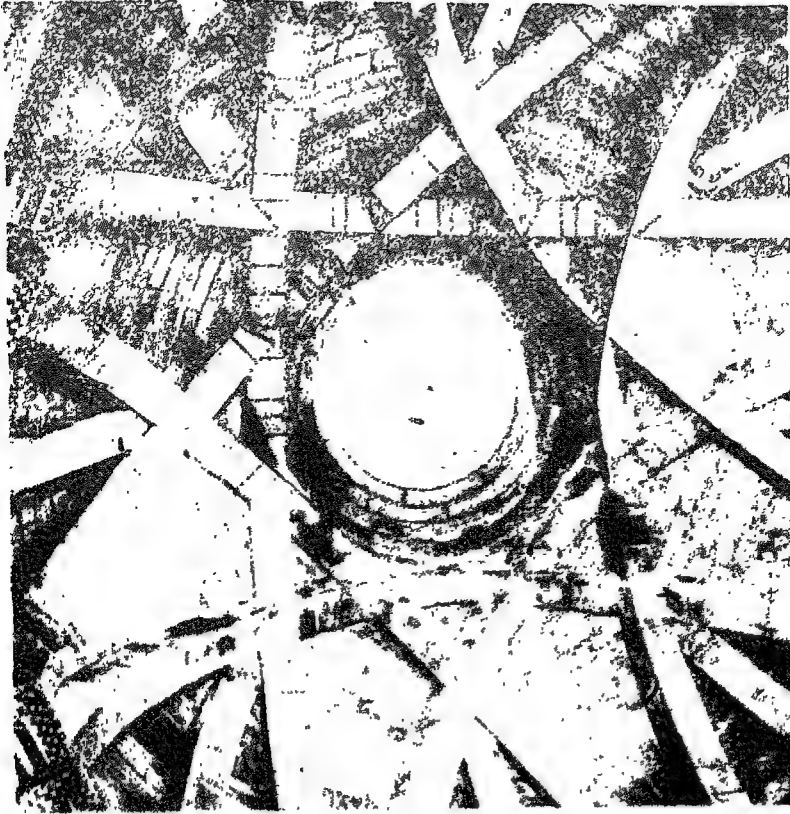


أ - قبوة المدخل الشرقي إلى صحن الجامع الكبير بإشيلية

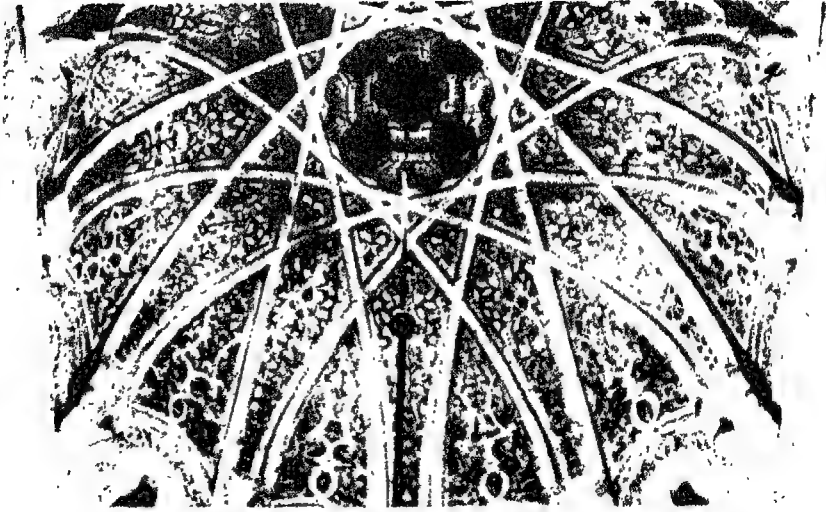


ب - قبوة مقريضة بجامع الجاي اليوسفي بالقاهرة

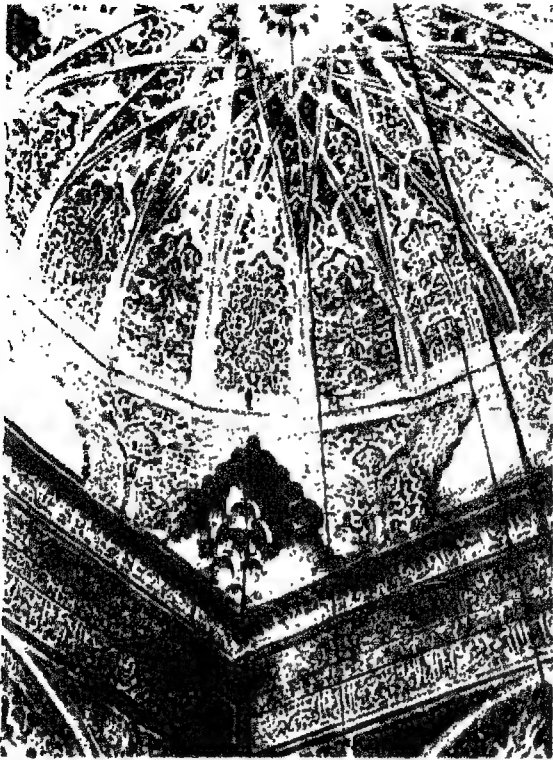
لوحة (٤)



قبوة كنيسة الضريح المقدس بتوريس دل ربو (نافار)



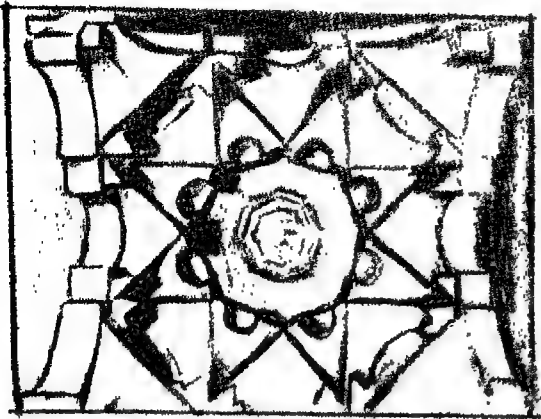
أ - قبة المخراب بالمسجد الجامع بتلستان



ب - قبة المخراب
بجامع تازكي بالمغرب

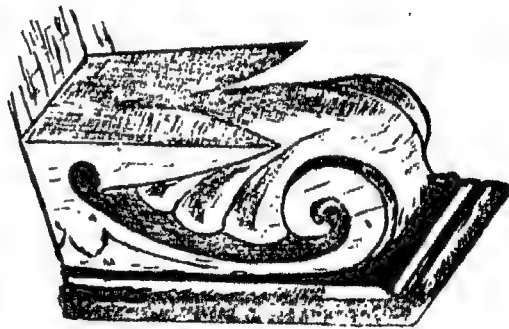


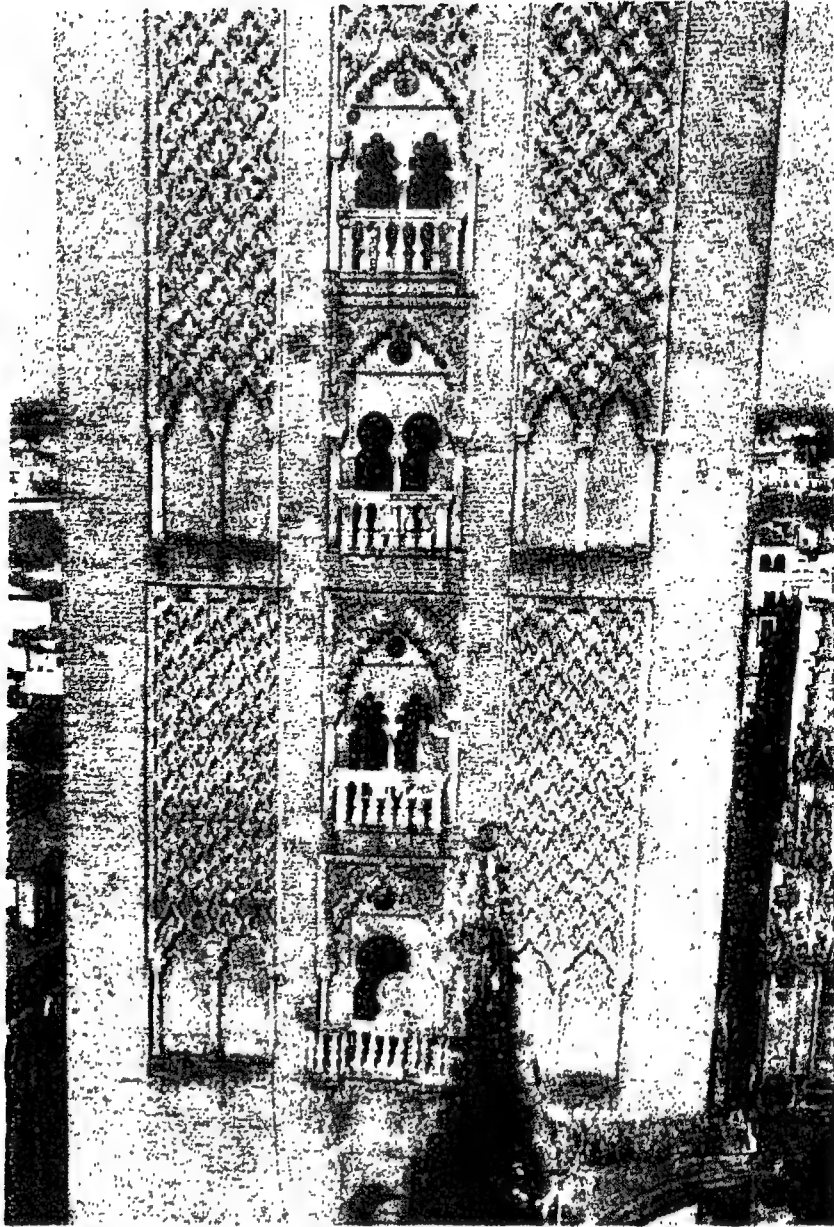
أ - ركنية أندلسية من طليطلة مصنوعة من الخشب
يرتكز عليها السقف الخشي بكنيس سانتا ماريا لابلانكا بطليطلة



ب - قبوة مقريصة بدير
لاس إويلجاس
بمدينة نرغش

ج - ركنية من الخشب يجامع
ابن طولون ويتضح
فيها الأثر الأندلسي





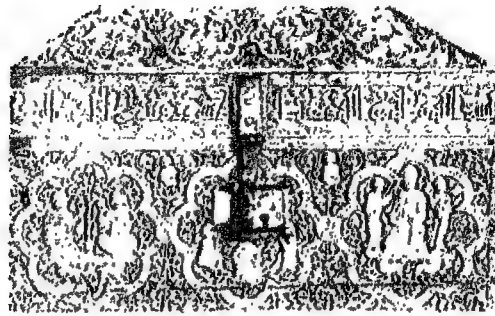
مئذنة جامع إشبيلية الكبير المعروفة بالخيرالدا



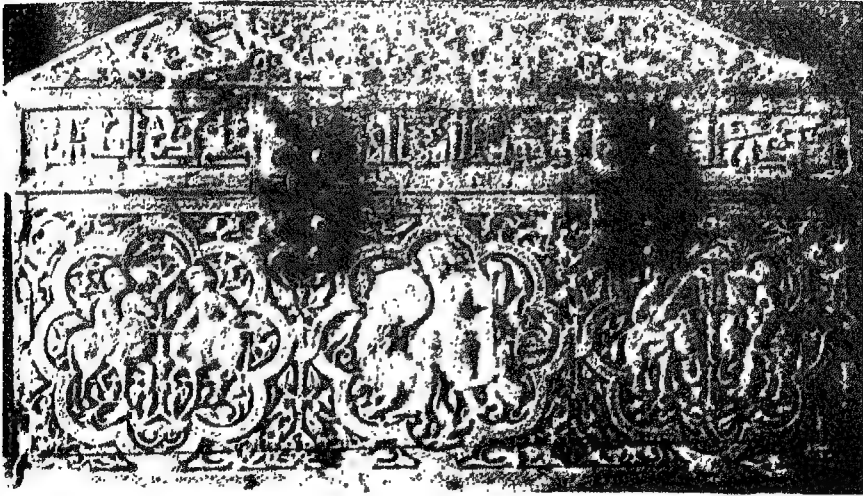
مئذنة جامع الكتبية بمراكش



أ - برج كنيسة سان مار كوس بإثينيلية
من الطراز المدجن



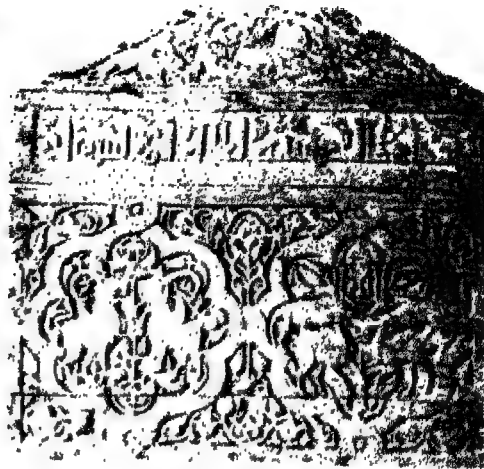
ب - صندوق كاتدرائية بنبالونة (الوجه)
نشاهد فيه مناظر تمثل مجلس من مجالس الطرب
وصورة الخليفة هشام في الجامعة اليمنى



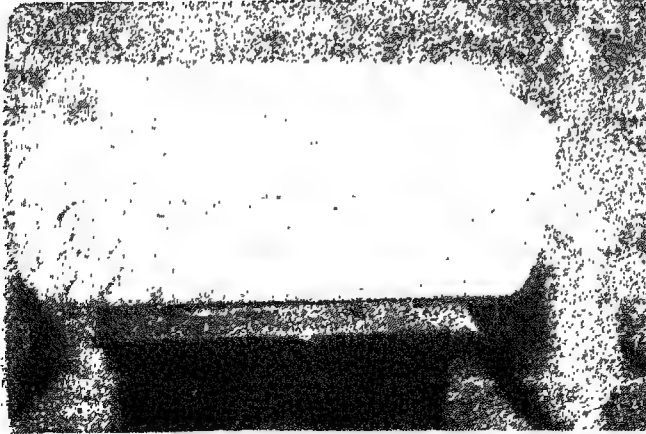
أ - صندوق من العاج محفوظ بكاتدرائية بنبولونه من صناعة قرطبة
يحمل تاريخ سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م)



ج - علبة أسطوانية الشكل نقش
فيها صور تمثل أحد مجالس
الطرب والغناء ، والعلبة من
صناعة قرطبة



ب - النقوش المحفورة في أحد جوانب
الصندوق العاجي المحفوظ بكاتدرائية بنبولونه



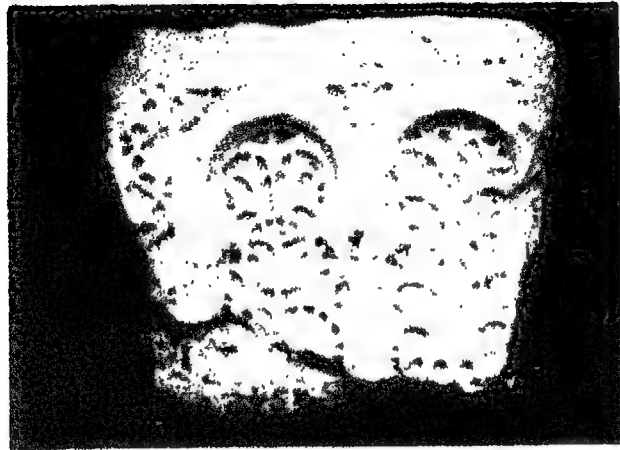
أ - حوض من الرخام من صناعة قرطبة



ب - حوض صغير من الرخام
من صناعة قرطبة

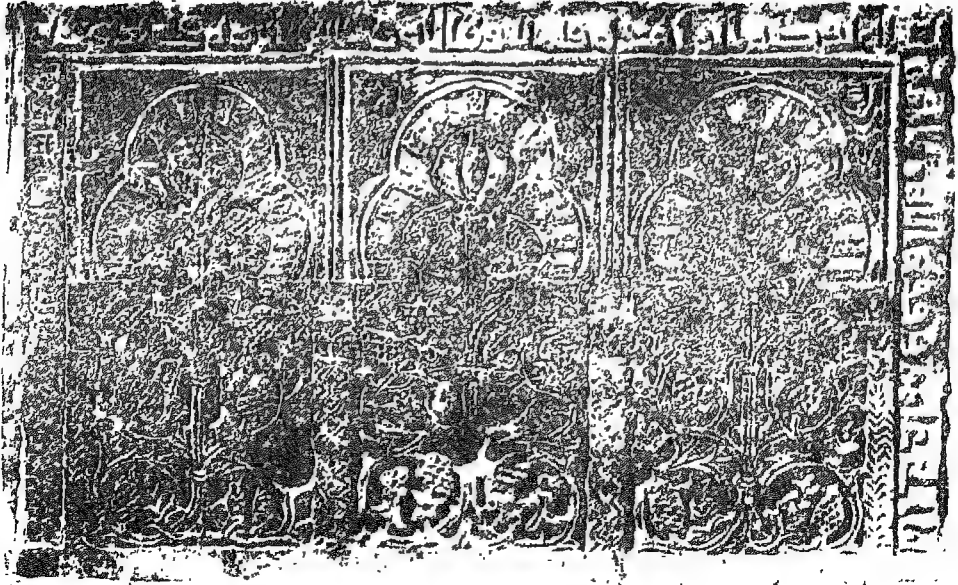


أ - تاج عمود من مدينة الزهراء أُعيد استخدامه
في قصر الموحدين بإشبيلية

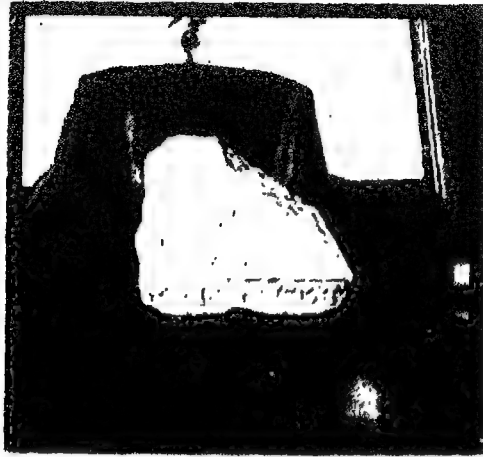


ب - زخارف من التوريقات تلاً عقدتين توأمين
محفورين في لوحة من الرخام بقصر قرطبة

لوحة (١٣)

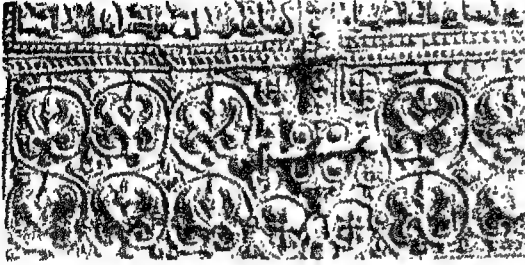


أ - حوض من الرخام من صناعة قرطبة كان يزين إحدى قاعات قصر الزاهرة
محفوظ بمتحف الآثار الأهلي بمدريد



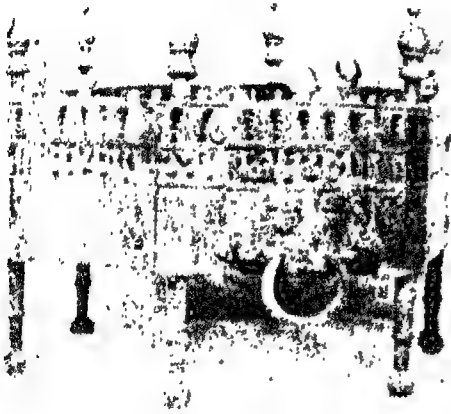
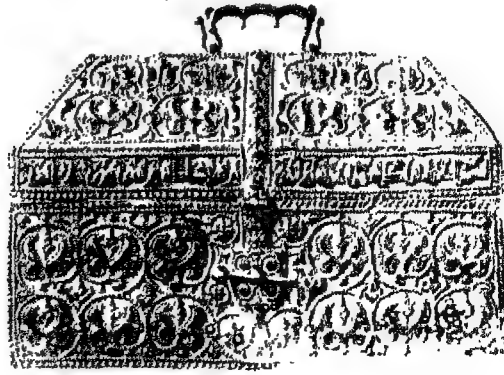
ب - قطعة من الرخام تزدان بزخارف نباتية
ومهندسة وكتابية محفوظة بمتحف الآثار بقرطبة

لوحة (١٤)



أ - تفصيلات زخرفية في
الكسوة الفضية بصندوق
كاتدرائية جرنندة

ب - صندوق من الخشب
تكسوه صفائح من الفضة
من صناعة قرطبة محفوظ
اليوم في كاتدرائية جرنندة



ج - مجرة من الصفر من
صناعة قرطبة

لوحة (١٥)

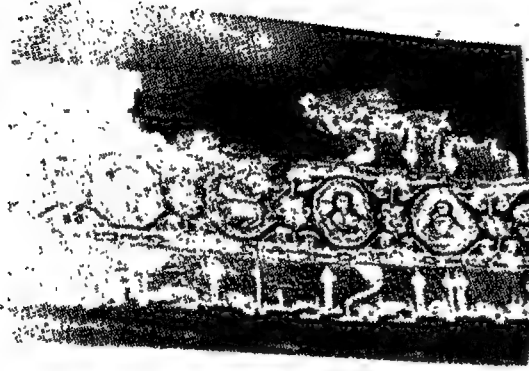


أ- وعل الزهراء البرونزي
من صناعة قرطبة محفوظ
بمتحف الآثار الأملي
بقرطبة

ب - قلة من الفخار
المزجج من صناعة قرطبة
عثر عليها بمدينة الزهراء

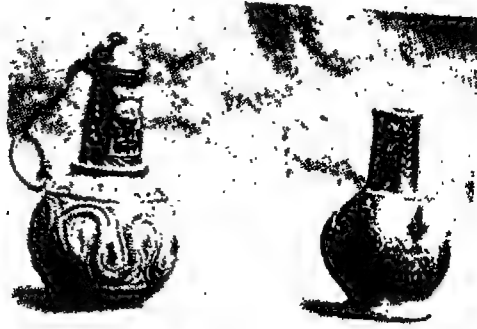


ورقة (١٦)



أ - قطعة من النسيج
المصنوع من الكتان تعرف
بمنزلة مشام المؤيد من
صناعة قرطبة

ب - قنينة من الفضة
من صناعة قرطبة



ج - قدر معدني من صناعة
قرطبة محفوظ بمتحفها

صاحب أخبار مجموعة أنه « أمر لجارية من جوارية بعقيد شراؤه عليه عشرة آلاف دينار ، فجعل بعض من حضر من وزرائه يعظم ذلك ، فقال له : ويحك ! إن لابسه أنفـس منه خطراً ، وأرفع قدراً ، وأكرم جوهرأ ، ولئن راق من هذه الحصباء منظرها ، ولطف في الأعين جوهرها ، لقد برأ الله من خلقه جوهرأ يروق ويسبي الألباب » (١) .

وكان لكل أمير من أمراء بني أمية وخلفائهم خاتم يرمز للـك والـسلطان ، وكانوا ينقشون عليه عبارات يعتبرونها شعارات لهم ، وكان عبد الرحمن الداخل قد نقش على خاتمه عبارة « عبد الرحمن بقضاء الله راض » (٢) . واتفق أن ضاع خاتم عبد الرحمن الأوسط ، فاضطر إلى اتخاذ خاتم جده عبد الرحمن بن معاوية ، ونقش عليه هذين البيتين :

خاتم للـك أضـحى حـكه في الناس ماض
لما بدا الرحمن فيه بقضاء الله راضي (٣)

وللأسف لم تصل إلينا أمثلة كافية لدراسة ما تتضمنه من نقوش زخرفية ومقارنتها بغيرها من التحف الشرقية أو المغربية ، وكل ما توصلنا للكشف الأثري إليه منها (في مدينة الزهراء) لا يعدو مجموعة من الحلي تضم عقوداً وأقراطاً مرصعة باليواقيت والأحجار النفيسة ، مخفوفة اليوم في مجموعة والتر في بلنيمور ، تعتبر من أجمل ما عثر عليه من حلي ، منها أسورة تتألف من مجموعات من الأسماك بكل منها ثلاث سمكات ، عيونها من حبات اللؤلؤ ، وتربط هذه المجموعات عن طريق أسلاك بأقراص مثقوبة . ومنها حلية تزين حبين المرأة فتشهي من كل من الجاسين بقفلة على شكل قلب ، هذا إلى أساور

١٠٠ إصدار مجموعة ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٢

(٣) نفسه ، ص ١٢٢ .

وخلاخليل ذهبية عريضة ، تزدان جميعاً بزخارف بارزة مطروقة ، ونقرأ في إحدى الأساور كلمة « بركة » .

(٣)

فن الحفر في الخشب

حظيت قرطبة أيضاً بشهرة كبيرة في فن الحفر في الخشب ، وذاعت شهرتها بالذات في صناعة المنابر . وقد أمدنا مؤرخو العرب بوصف رائع لمنبر جامع قرطبة ^(١) ومقصورته الخشبية وكروسي المصحف العثماني ، هذا بالإضافة إلى وصف منبر جامع الزهراء . وفي وصف منبر جامع قرطبة يذكر ابن غالب أنه من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعود الرطب والمرجان ، وأوصاله وحشواته من الفضة المثبتة والمنيلة ^(٢) ، وذكر ابن بشكوال أنه كان مرصعاً بالفضة وفي بعض حشواته نفيس الأحجار ^(٣) ، وقد كرر الإدريسي والهميري هذا القول وأكدوا بأن عدد حشواته ٣٦ ألف حشوة سميت بمسامير الذهب والفضة ورصعت بنفيس الأحجار ^(٤) . أما مقصورة الجامع فقد نصبت حول المحراب في زيادة الحكم المستنصر ، وكانت تتوجها شرفات ، وفتحت فيها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة ، عجيبة النقش ^(٥) ، وقد أشرنا إلى أن بابها الرئيسي كان من الذهب وعضاداته من عود الأبنوس ^(٦) . وقد نهب هذا الباب مع بيت مال المسجد في الفتنة الأولى ، بينما نهب أوصال المنبر في الفتنة

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ، صفحة ٣٤٤ .

(٢) ابن غالب ، ص ٢٨ .

(٣) المقرئ ، ص ٨٩ .

(٤) الإدريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، نشره الفريد ديسيه

لامار ، الجزائر ١٩٤٩ ص ٨ - الحميري ، ص ١٥٥ - المقرئ ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٥) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ٨٥ .

الثانية سنة ٥٤٠هـ ، كما نُهبت تقافيج المنار المصنوعة من الذهب والفضة ، وثريرات الفضة عند دخول القشتاليين في الجامع في هذه السنة (١) .

وظلت قرطبة زمن الخلافة تحتفظ بشهرتها في صناعة المنابر ، ونعتقد أن ظهر المنبر الذي أمر المنصور محمد بن أبي عامر بصنعه في جامع الأندلسيين بفاس سنة ٣٧٥هـ (٢) والمنبر الذي أمر المظفر بن عبد الملك بصنعه في جامع القرويين بفاس من خشب القنب والأبنوس عام ٣٩٥هـ (٣) تم عملها على أيدي صناع من قرطبة . ويذكر صاحب الحلل الموشية أن عبد المؤمن بن علي نقل إلى جامع الكتبية منبراً عظيماً كان قد صنعه بالأندلس في غاية الإتقان قطعته عود وصندل أحمر وأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة ، وأقام للمسجد مقصورة من الخشب لها ست أضلاع ، تسع أكثر من ألف رجل وكان الذي تولى صنع المقصورة والمنبر الحاج يعيش المالقي (٤) ، ولا شك أن هذا المنبر صنع على غرار منبر جامع قرطبة من حيث طريقة الصناعة ومن حيث الشكل ، فقد جعل لمنبر الكتبية بيت يحفظ فيه ، وكان يخرج على عجل أيام الجمع (٥) . ونستدل على أن هذا المنبر قد صنع بقرطبة من نقش كتابي يتضمن هذا المعنى ، نقرأ فيه أنه صنع « بمدينة قرطبة حرسها الله » (٦) . ونعتقد أيضاً أن منبر جامع القصبة الكبير بإشبيلية (من عصر الموحدين) صنع في قرطبة ، وذلك من خلال الوصف الذي أمدنا به ابن صاحب الصلاة ،

(١) ابن غالب ، ص ٣٠ . وراجع تفاصيل ذلك في الجزء الأول ، ص ١٤٨ .

(٢) H. Terrasse, La mosquée des Andalous à Fès, texte. t. 38.

ومقال عن جامع الأندلسيين ، بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، ج ٢ ص ١٩٤ .

(٣) الجزائري (أبو الحسن علي) كتاب زهرة الآمن في بناء مدينة فاس ، ١٩٢٢ ،

ص ٤١ ، ٤٢ .

(٤) الحلل الموشية ، طبعة تونس ١٣٦٩ هـ ، ص ١٠٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٠٩ .

(٦) مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ١٥٩ .

إذ يقول : « صنع المنبر من أغرب ما قسدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ، واتخذ من أكرم الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً بحكاً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل ، مرصعاً بالصندل ، مجزعاً بالمساج والأبنوس ، يتلألاً كالبحر بالإشمال ، وبصفائح من الذهب والفضة وأشكال في عمله من الذهب الإبريز » (١) . وكان لهذا المنبر بيت يحفظ فيه كالشأن أيضاً في منبر جامع قرطبة ومنبر جامع الكتبية ، ونعتقد أيضاً أن هذا المنبر ومقصورة الجامع الخشبية شأنها في ذلك شأن منبر ومقصورة جامع الكتبية من صناعة قرطبية بإشراف الحاج يعيش المالقي الذي لا نستبعد أنه تلقى أصول فن الحفر في الخشب على أيدي صناع من قرطبة (٢) . ولم يتبق للأسف من منبر قرطبة شيء نستدل منه على فن الحفر في الخشب في العصر الأموي ، ولكن يمكننا أن نتخيله بعد تطوره إذا شاهدنا منبر جامع الكتبية بمراكش .

ومع ذلك فقد تبقى من أمثلة هذا الفن بقرطبة بضع سموات وجوائز مسقف بيت الصلاة بالجامع ، تزدان بزخارف هندسية ملونة ومنقوشة من دوائر وفصوص ومسدسات ومثلثات .

(٤)

فن صناعة التحف البلورية والزجاجية والخزفية

يتوفر البلور الصخري بكثرة في مناطق عديدة من الأندلس ، فقد . كر البكري أنه على مقربة من حصن منتون من عمل قرطبة معدن البلور يجبل

(١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٤٧٨ .

والنص الذي نشره انطونية ملشور بعنوان Sevilla y sus monumentos arabes

ص ١٣٦ .

(٢) Torres Balbas, Arquitectos andaluces de las épocas almora- vide y almohade, al-Andalus, 1946, pp. 214 - 224.

شجيران وهو بشرقى قبرة^(١) . وذكر الحميري أن في جوفى بطليموس ، على قدر أربعين ميلا معدن المهي (البلور)^(٢) ، كما ذكر ابن غالب أن بناحية لورقة من كورة تدمير معدن البلور^(٣) . ومن هذا البلور الصافي صنعت أعمدة تقوم عليها حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس بمدينة الزهراء^(٤) . وكانت تصنع من البلور أواني أو « فياشات »^(٥) البلور المحفورة وقوارير الما المحكة الصنعة الرائقة الهيئة ، لتحفظ فيها العطور المتخذة من المسك والعنبر ورشح البان مخلوطاً مع ماء الورد ، يستخدمونه للتندية بعد تناول وجبات الطعام^(٦) .

كذلك ، اشتهرت قرطبة بصناعة الأواني الزجاجية والأبارين والنارق ، وقد عثر في حفائر الزهراء على كميات كبيرة من قطع الزجاج أمكن بفضلها إعادة لصق إناء طويل الرقبة مضلع ، ووعاء عميق يزدان سطحه بزخارف نباتية من النوع الذي يوضع في قوالب^(٧) .

أما فيما يتعلق بالأواني الفخارية والخزفية فقد اشتغل الفخارون بقرطبة بهذه الصناعة وإن لم يصلوا في الشهرة إلى ما وصلت إليه غرناطة ومالقة ، ومن المعروف أن هذه الطائفة الحرفية كانت تتخذ ربضاً بالشرقية مخصصاً للفخارة يقع قريباً من سور المدينة ، وهذا يفسر كثرة ما أسفر عنه البحث الأثري من القطع الفخارية الشعبية في الحفريات التي أجريت بمدينة الزهراء ،

(١) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ١٢٧ .

(٢) الحميري ، ص ٣

(٣) ابن غالب ، ص ٤٠ - المقري ، ج ١ ص ١٣٨ .

(٤) المقري ، ج ٢ ص ٦٨ .

(٥) جمع فياشة وهي قنينة من البلور - أو ابريق (راجع دوزي ، ص ٣٠١) .

(٦) ابن يسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٠٢ .

(٧) Torres Balbas, Arte Hispano musulman, p.769.

ومعظم ما عثر عليه يخص تحفاً فخارية عديدة كالقلل والمسارج والأطباق والقدور وجرار الزيت والصحاف والأقداح. وينقسم الخزف الذي تم الكشف عنه في الزهراء وقرطبة إلى ثلاثة أنواع : نوع شعبي ونوع مزيج ونوع مذهب.

أما النوع الشعبي فينقسم بدوره إلى نوعين : الأول من الفخار العاطل من الخزرفة ، والثاني يزدان بزخارف ساذجة مدهونة بألوان مختلفة على سطح الآنية مباشرة ، قوامها في معظم الأحيان الرسوم الهندسية من دوائر متصلة ومعينات ، وقلما نجد فيها زخارف نباتية أو كتابية . وأما النوع المزيج فقد أمدتنا حفريات الزهراء بكيات هائلة من هذا النوع تزدان بزخارف نباتية وهندسية ورسوم لطيور وحيوانات وصور آدمية ، وتشبه هذه الزخارف نظائرها في القطع التي كشف عنها في حفائر سامراء ^(١) . وقد عثر في قرطبة نفسها منذ عهد قريب على قلة كاملة من هذا النوع المزيج محفوظة اليوم في المتحف الأهلي للآثار بقرطبة ، يبلغ ارتفاعها ٢٣ سم ، وتمتاز بطول رقبتها وبصور تزين بدنها تمثل ٦ أشخاص أحدهم يحمل عصا وآخر يمسك بوقاً ، ولعلمهم يمثلون زمرة أو جوقة موسيقية . ويرى الاستاذ تورييس بلباس أن هذه الرسوم الآدمية تذكرنا بالفن العراقي ^(٢) .

أما النوع الممتاز من الأواني فهو النوع المذهب أو الخزف ذي البريق المعدني ، ولكن القطع التي كشف عنها البحث الأثري منها في مدينة الزهراء قليلة ومفتتة ، وأكبرها قطعة تظهر فيها صورة تمثل رأس جل وجزء من لواء ، وتشبه هذه الصورة صورة رأس جل مرسومة على طبق ، وعلى ظهره يحمل يخرج منه لواء . أما القطع الأخرى فبريقها المعدني ذهبي أصفر كالقطعة السابقة ، وعليها زخارف نباتية وكتابات ، ويشغل البريق المناطق الفارغة

(١) مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ١٠٥ .

(٢) Torres Balbas, op. cit. p. 780

من الخزارف مما يقرب هذه الخزارف من النوع العباسي ، ويعتقد الأستاذ
توريس بلباس أن هذه القطع تتعلق بأطباق وأواني وردت من العراق (١) ،
وإن كان هذا القول لا يمكن أن يكون قاطعاً ، لأن أهل الأندلس قلدوا
السلع الشرقية ، فصنعوا من الأقمشة الديباج التستري المطرز بالذهب (٢)
والجرجاني والعنابي والموصلي والأصفهاني ، وصنّف أنواع الحرير (٣) ، وقلدوا
الحزف الصيني والبغدادى الذي اشتهرت به بلاد العراق وذاعت شهرته في
العالم الاسلامي .

(٥)

فن الحفر في الرخام والحجر

مدينة قرطبة من مدن الأندلس الغنية بمقاطع الرخام ، فقد ذكر الرازي
أن يجبل قرطبة الرخام الأبيض الناصع اللون والخمري (٤) ، ويحدد ابن غالب
مواقع هذه المقاطع ، فيذكر أحدها بفريش الواقعة غربي فحص البلوط
وقرطبة ، وتشتهر برخامها الناصع البياض الشديد الصفاء (٥) . ويمتدح
الإدريسي هذا النوع من الرخام فيقول : « بحصن فريش مقطع للرخام الرفيع
الجليل الخطير المنسوب إليه . والرخام الفريشي أجل الرخام بياضاً ، وأحسنه
ديباجاً ، وأشدّه صلابة » (٦) .

(١) Ibid. p. 781

(٢) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ص ١٠٥ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المروة الاسلاميه ، ص ١٥٦ ، ١٥٩ .

(٤) المقرئ ، ج ١ ص ١٨٧ .

(٥) ابن غالب ، ص ٢١ - المقرئ ، ص ١٤٣ .

(٦) الإدريسي ، ص ٢٠٧ .

وقد استغل خلفاء بني أمية في الأندلس ممن عرفوا بولعهم بالبنيان أمثال عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، هذه المقاطع الرخامية في استخراج ما يلزم لصناعة الأعمدة وتيجانها وقواعدها واللوحات التي تكسو الجدران والأرضيات ، هذا بالإضافة إلى عمل أحواض السقايات وبيلات الوضوء . وذكر ابن بشكوال أن الحكم المستنصر أقام أربع ميضآت في جامع قرطبة استقطع رخام أحواضها من مقطع المناسير بسفح جبل قرطبة ، وألقاه الرخامون هنالك ، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم في مدة طويلة حتى استوت في صورتها البديعة عين الناس ، فخفف ذلك من ثقلها ، وأمكن إهابطها إلى أماكن نصبها من صحن الجامع^(١) . كذلك استخدم الرخام القرطبي في كسوة جدران الزهراء وكسوة جوفة المحراب وجانيبه وخصته وأرضية المقصورة^(٢) .

وقد تبقى حوض من الرخام غير كامل ، محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهملي بمدريد عليه نقش يحمل تاريخ إنشائه في سنة ٣٧٧ بأمر المنصور بن أبي عامر ليوضع في قصر الزاهرة^(٣) . وفي متحف قرطبة أجزاء وجوانب من أحواض من الرخام نقش عليها زخارف نباتية ورسوم حيوانات بارزة وبعض النقوش الكتابية نطالع في بعضها اسم المنصور^(٤) . وهناك حوضان رائعان يؤلفان زوجاً من الأحواض ، عثر عليها في قرطبة لا نعرف مصدر أصغرهما ، أما الآخر فقد عثر عليه في أطلال العامرة ، وهو رائع الزخرفة ، ويزدان بسلسلة من الأوراق الملساء المتعاقبة مع ساق تلتشق إلى فرعين تعلوها رؤوس أسود وظباء ، وفي الأركان رؤوس غزلان . وزخرفة الحوض الصغير

(١) المغربي ، ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) راجع الجزء الأول من الكتاب ص ٣٩٨ - ٤٠٢ .

(٣) جومث مورينو ، ص ٢١٤ - Torres Balbas , Medina al-Zahira , al-Andalus, vol. XXI, 1956, p. 356 - Lévi - Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, Inscription No 216.

(٤) جومث مورينو ، ص ٢١٤ .

أقل من سابقتها عناية ، إذ تكشف أوراقها عن العروق الوسطى وتنتشق سيقانها إلى فرعين ، وتمتد فوق ذلك مجموعة أخرى من الأوراق اللتوية تتخللها نفس الرؤوس الصغيرة لأسود وظباء ، ويقطع استمرار الزخرفة في الأركان صور حيوانات أشبه بالقهود . وعثر بقرطبة أيضاً على قوّهة بأر مثمنة الشكل حفرت فيها زخرفة من التوريقات تنبعث من ساق متعرجة في الحافة بين جديلتين ، ويعتقد الأستاذ جومث مورينو أن هذه القوّهة كانت مخصصة للجب الذي أمر المنصور بعمله في صحن الجامع (١) .

وعثر في القصر القديم بقرطبة على لوحة من الرخام نقش فيها عقود زخرفية صغيرة متجاوزة لنصف الدائرة ، تتكئ على عمد صغيرة أبدانها مضفرة ، وتملأ فتحات العقود المذكورة شجيرات عنب تتدلى منها عناقيد مثقلة وتوريق يلتف حول نفسه في رشاقة يلبت من سيقان محفورة حفرأ مزدوجاً من خلال الحلقات التي تطوق السيقان . ويملأ المناكب التي تهبط عليها العقود نقش كتابي يحمل اسم شخص لعله عبد الكريم وزير الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢) . (انظر الصورة)

أما بالنسبة للأحجار فمن المعروف أنها كانت تستقطع من جبل قرطبة (٣) ، ثم تساق على العجل إلى مواقع البناء ، ومعظم الأحجار التي استخدمت في كسوة جدران قاعات الزهراء من النوع الرملي الصلب ، وحفرت فيها زخارف نباتية وتوريقات حفرأ غائراً ، ومعظم السيقان النباتية مشدوخة في وسطها وفقاً لأسلوب فن الحفر في الفن البيزنطي ، وأهم عنصر نباتي استخدم فيها هو شوكة اليهود التي تجلو في انحناءاتها قطوراً عظيماً (٤) . وتزودنا أطلال

(١) جومث مورينو ، ص ٢٢٥ .

(٢) نفسه ، ص ٢١٢ .

(٣) راجع ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٣٤٩ .

(٤) جومث مورينو ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

قصور الزهراء بألوف عديدة من القطع الحجرية التي كانت تؤلف فيما مضى كسوة الجدران ، ومن هذه القطع أمكن التعرف على عقود زخرفية من نوع حدود الفرس وبنائات كبيرة وقطع حجرية من عقود وسنجات كانت تؤلف عقوداً تزدان بأقراص ولقائف من ورقة شوك اليهود وسعف النخيل وبراعم نباتية تشبه نظائرها في بنائات العقود والسنجات يجمع قرطبة . كذلك استخدم الحجر الجيري اللين المائل إلى الاصفرار في بناء المسجد الجامع بقرطبة .

(٦)

صناعة المنسوجات

كان الأمير عبد الرحمن الأوسط أول من أنشأ من أمراء بني أمية الطراز بالأندلس ، فأنشأ داراً للطراز بقرطبة ^(١) ، وفي هذه الدار كانت تنسج ثياب الأمراء والخلفاء من الحرير الختم المرقوم بالذهب المختلف الألوان ^(٢) . وذكر الرازي أن من بين منتجات قرطبة الصناعية « الأقمشة الناعمة » والمنسوجات الحريرية السمكة وغير ذلك ^(٣) . ويشير ياقوت إلى ازدهار صناعة الوشي والديباج بقرطبة ، ولكنه يؤكد أن هذه الصناعة لم تلبث أن اضمحلت بعد

(١) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣٦ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢٠ . وإن كانت ابن حبان يؤكد أن هذه الدار من إنشاء الأمير عبد الرحمن الداخل (ابن حبان ، المقتبس ، تحقيق الدكتور الحجي ، ص ٦٦) وقد رجحنا أن عبد الرحمن الداخل أنشأ داراً لصناعة البرود الأميرية عرفت بدار البرد أو الدار البردية ثم اتسعت مرافقها زمن الأوسط (راجع ما ذكرناه بالجزء الأول ، ص ٢١٥ ، ٢١٦) .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٣٨ - المقري ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٣) Lévi - Provençal, la Description de l'Espagne de Razi, al-Andalus, vol. XVIII, 1953, p. 65.

سقوط الخلافة بقرطبة فغلبت عليها المرية ^(١) . وكانت منتجات دار الطراز بقرطبة بما يهادى به : قميد الرحمن الناصر كان يخلع على قواد البربر ، أمثال القائد حميد بن يصل ، دراريع الديباج والخز ، وعمائم الشرب المذهبة ^(٢) ، والحكم المستنصر كان يهادى أمراء البربر بالعدوة كثيراً من فاخر الكسوة ^(٣) . وكان المنصور بن أبي عامر يهادى ملوك إسبانيا المسيحية ومن تحسن بلاؤه من المسلمين في الحروب والغزوات بفاخر أنواع المنسوجات من صناعة دار الطراز بقرطبة ، ويذكر ابن عذاري أنه وزع في غزواته الثامنة إلى شنت ياقب ألفين ومائتين وخمسة وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي ، وواحداً وعشرين من صوف البحر ، وكسائين عنبريين ، وأحد عشر سقلاطونة ، وخمس عشرة مريشات ، وسبعة أنماط ديباج ، وثوبين ديباج رومي وقرو فنك ^(٤) . وكان المنصور يستدعي أجناد البربر إلى الأندلس ، فيخلع على الرجل منهم بلباس الخز الطرازي وغيره بدلا من لباسه الخلق ^(٥) .

ولكن لم يصل إلينا من إنتاج دار الطراز القرطبية للأسف سوى قطعة واحدة هي المعروفة بطراز هشام المؤيد ، عثر عليها في سان استبان دني جرمات ، وهي محفوظة اليوم في الأكاديمية التاريخية بمدريد ، ولعلها كانت من بين ما انتهبه البربر عند تخريب قرطبة في سنة ٤٠٣ وحملت إلى هناك . وهذه القطعة لا تعدو أن تكون غشاء أصفر اللون من الكتان الرقيق يزدان بشريط عريض أبيض اللون به بعض الاصفرار ، ينقسم إلى ثلاث مناطق ،

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، طبعة بيروت ، ص ١١٩ . وأم أنواع الوثني النوع الذي يقال له الوثني الهشامي الذي كان يضرب به النثل في الرقة (ابن حيان ، المتنبس ، قطعة نشرها الدكتور محمود علي مكي ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٢٦) .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦٧ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤١٧ .

المنطقة الوسطى منها تشغلها ١٣ جامة مثمنة الشكل تتصل فيما بينها بأشكال نجمية ، وبداخل الجامات صور أشخاص متربعين في جلستهم يسك أحدهم داخل إحدى هذه الجامات بقنينة ، أو صور حيوانات تعوزها الرشاقة . أما المنطقتان العليا والسفلى فتشغلها كتابة كوفية تتجه حروف الكتابة فيها إلى الداخل ، نقرأ فيه النص التالي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الإمام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين » (١) ، ونلاحظ أن أرضية الجامات من الذهب ، أما بقية أجزاء القطعة فحريز ألوانه بيضاء وزرقاء وخضراء وصفراء ووردية بين خطوط سوداء (٢) . وتتجلى في هذه القطعة التقاليد الفنية العراقية والقبطية بوضوح ، أما التقاليد العراقية فقد تدفقت على الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان هذا الأمير لا يتحرج من اتخاذ الثياب العراقية ، ويذكر ابن القوطية أن الشاعر عبد الرحمن ابن الشعر دخل عليه يوماً وعليه ثوب عراقي وغبارة عراقية (٣) ، وكانت المنسوجات البغدادية مستطرفة عند أهل الأندلس إذ تعبر عن الأناقة والأبهة في آن واحد ، ولهذا اتخذت أنموذجاً احتذاه الطرازون في قرطبة (٤) .

(١) Lévi - Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, Inscription (١)
No 24, p. 192

(٢) جروث مورينو ، ص ٤١١ - مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، ص ١٢٧ .

(٣) ابن القوطية ، ص ٦٠ .

(٤) Torres Balbas, Arte H. M., p. 783 (٤)

الفصل الثالث عشر

التراث العلمي

- (١) تقدم الحركة العلمية بقرطبة في العصر الاسلامي
- (٢) الحركة الأدبية
أ - الشعر والنثر
ب - الموشحات والأزجال
- (٣) العلوم اللغوية والدينية
- (٤) التاريخ والجغرافية
- (٥) الرياضيات والطب والكيمياء والصيدلة
- (٦) الفلسفة

التراث العلمي

(١)

تقدم الحركة العلمية بقرطبة في العصر الاسلامي

نشطت الحركة العلمية بقرطبة في العصر الأموي وما تلاه من العصور الإسلامية حتى سقوطها في أيدي القشتاليين ، نشاطاً لا مثيل له ، حتى غدت بحق قاعدة العلوم ومركز الآداب ، وأصبح اسمها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم ، بل أصبح العلم من معالمها البارزة التي يتفاخر بها أبناء قرطبة ، ويعتبر الفقيه أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية عن ذلك بهذين البيتين :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثقتان والزمراء ثلاثة
والعلم أكبر شيء وهو رابعها^(١)

ومما يروي عن شهرة قرطبة في مجال العلوم أن أبا الفضل التيفاشي ذكر ما قاله ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة على إشبيلية ، فقال : « ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١٤٦ .

قرطبة حق تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية ^(١) . وذكر ابن سعيد أن « لأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم » ^(٢) ، وقال أيضاً : « إن قرطبة أعظم علماً وأكثر فضلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها » . وقال الحجاري في المسهب : « وكانت قرطبة في الدولة الروانية قبة الإسلام ومجتمع علماء الأنام الأعلام ، بها استقر سرير الخلافة الروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية والبانية ، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ، إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء ، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ، ولم تبوح ساحاتها بحر عوالي ، وبحرى سوابق ، ومحط معالي ، وحى حقائق » ، وقال أيضاً : « هي كانت منتهى النفاية ومركز الراية وأم القرى وقرارة أولى الفضل والتقوى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبة الإسلام ، وحضرة الأنام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبرز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب » ^(٣) . ولذلك اجتذبت قرطبة إليها فحول العلماء والادباء ، فأتموها من كل أوب ، وقصدوها من شرق وعرب ، وأصبحت الأندلس محالاً حصناً لنشاطهم العلمي ، بعد أن صاق المشرك غواصهم ، وبم يتردد حكام قرطبة مر حاسمهم ؟ مشاركة هذ النشاط العلمي ، فسعوا إلى توفير الأمن ولاستقرار هؤلاء الوافدين لمشاركة فأحاطوهم برعاية ، وعمروهم ، وعظموهم ، وصطبعوهم لخدمتهم ، وكان حكام

(١) المقرئ ، ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) نفس المراجع ، ج ١ ص ١٤٧ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ص ٩ .

قرطبة مستنيرين يقدرّون العلم والمشتغلين به ، وكانوا على حظ كبير من الثقافة والعلم ، ينظمون الشعر ، ويشتركون مع الكتاب والشعراء وعلماء اللغة في مجالس يجري فيها نوع من المساجلات الأدبية ، بل إن أحدهم وهو الحكم المستنصر دقّ نظره واستوسع علمه ، إلى حد أنه كان ملماً بكثير من فروع المعرفة وعلى الأخص العلوم العقلية ، بحيث استحق أن يلقب عن جداره « الخليفة العالم » .

ولقد اهتم أمراء بني أمية وخلفاؤهم باقتناء المصنفات النادرة ، وأرسلوا للبحث عنها والتماسها وشراؤها الخبراء المتخصصين . فالأمير عبد الرحمن الأوسط بعث عباس بن ناصح الجزيري إلى المشرق ليبحث له عن الكتب القديمة النادرة ، فأتى له بالسند هند وغيره . ويعتبر عبد الرحمن الأوسط أول من أدخل هذه الكتب الأندلس ، وعرف أهلها بها ونظر هو فيها ^(١) . وكان عبد الرحمن الأوسط يداخل كل ذي علم في فنه ^(٢) ، كما كان مكرماً للعلماء ، محسناً لهم ، وكان يخلو بكبير الفقهاء يحيى بن يحيى الليثي ويشاوره ^(٣) . وكان شاعراً أديباً ذا ذمة عالية ^(٤) ، عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة ^(٥) ، كما كان مولعاً بالسماع مؤثراً له على جميع لذاته ^(٦) .

غير أن الحركة العلمية في قرطبة لم تصل إلى ذروتها إلا في عصر الخلافة ، وعلى الأخص في زمن الحكم المستنصر ، وكان الحكم أكثر خلفاء بني أمية حباً للكتب ، وذكروا أنه جمع من الكتب ما لا يحصى ولا يوصف كثرة ونفاسة ،

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٥ .

(٣) نفسه ، ص ٤٦ .

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٣٥ .

(٥) المقرئ ، ج ٢ ص ٣٢٥ .

(٦) نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٧١ .

حتى قيل إنها أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها^(١). وذكر أبو محمد بن حزم ، عن تليد الخصي المتولى لخزانة العلوم والكتب بدار بني مروان أن عدد فهارس مكتبة الحكم التي تشتمل على أسماء الدواوين ٤٤ فهرسة ، بكل فهرسة عشرون ورقة . واهتم الحكم المستنصر بهذه الكتب عناية كبرى ، فجمع في قصره حذاق النساخين ، والمهرة في الضبط ، والمجيدون في التجليد صيانةً لكتبه : ولكن هذه المكتبة العظمى التي جهد الحكم في تكوينها لم تلبث أن بددت عند حصار البربر لقرطبة في سنة ٤٠٠ هـ ، فبيع أكثرها على يدي الحاجب واضح العامري ، ونهب ما بقي منها على أثر دخول البربر مدينة قرطبة عنوة في سنة ٤٠٣ هـ^(٢) . وكان المنصور محمد بن أبي عامر - رغم حبه للفلسفة - قد جرد مكتبة القصر من كتب الفلسفة والفلك وغيرها من الكتب ، وأحرقها بيده أمام نقر من علماء قرطبة البارزين كالأصيلي وابن ذكوان والزبيدي ، ليظهر للناس غيرته على الدين^(٣) .

وكان أهل قرطبة من أشد الناس احتراماً للكتب ، وأكثرهم شغفاً باقتنائها ، واعتناء بخزائنها حتى أصبح ذلك على حد قول محمد بن عبد الملك بن سعيد من آلات التعيين والرياسة ، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة ، يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب ، ويتنخب فيها ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به ،^(٤) . وأورد القرني مثلاً يدل على حب أهل قرطبة للكتب ، أورده على لسان أبي يحيى الحضرمي ، جاء فيه : أفت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة ، أترقب فيه وقوع

(١) القرني ، ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٠٢ - Garcia Gomez, Algunas precisiones

sobre la ruina de Cordoda, p. 280 - جنثالك بالثيا ، ص ١٧٣ :

(٣) جنثالك بالثيا ، ص ٦٥ .

(٤) القرني ، ج ٢ ص ١١ .

كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إليّ المتادي بالزيادة عليّ ، إلى أن بلغ فوق حده . فقلت له يا هذا ، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ولا أدري ما فيه ، ولكنني أقت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأجعل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد ، استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق ، فهو كثير . قال الحضرمي : فأخرجني ، وحملي على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا له أسنان ، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً ، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه ، (١) .

وكان الحكم المستنصر من كبار علماء الأندلس ، ممع من قاسم بن إصبيح ، وأحمد بن دحيم ، ومحمد بن عبد السلام الحشني ، وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي ويبذل في اقتنائها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك (٢) . ويذكر ابن بشكوال أنه قلبها كان يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق مهما كانت موضوع الكتاب ، وكان يعتني بكتابة نسب المؤلف ومولده وتاريخ وفاته ، ولذلك كان في معرفته برجال العلم والأدب والأخبار والانساب أحودياً نسيج وحده ، وكان ثقة فيما

(١) القرني ، ج ٢ ص ١١ .

(٢) نفسه ، ج ١ ص ٣٧١ .

ينقله ^(١) . كذلك كان الحكم المستنصر محباً للعلماء ، مكرماً لهم ، وكان يبعث في استقدامهم من المشرق ، ويرحب بهم ، ويكرم مثوam ، ويرفع منازلهم عنده ، ومن بين علماء المشرق الذين وفدوا إلى قرطبة على أيام أبيه أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي اللغوي صاحب كتاب الأمالي ، واتفق أن وصل إلى قرطبة في أيام الناصر سنة ٣٣٠ هـ ، فأمر الناصر ابنه الحكم باستقباله عند نزوله بالأندلس ، واصطحباه معه إلى قرطبة ، تكريماً له ، واحتفاء بمقدمه ، وعهد إليه الخليفة الناصر بتأديب الحكم ولده وولي عهده ^(٢) ، فاخص القالي بالحكم ، وأهدى القالي كتابه الأمالي إلى الخليفة الناصر ^(٣) بعد أن طرزه باسم الحكم ، وكان الحكم يعينه على التأليف بوسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام ^(٤) . وكان وفود القالي إلى قرطبة يمثل نهضة كبيرة في الدراسات اللغوية والأدبية ، فعليه تتلمذ أبو بكر الزبيدي والمعاصمي وابن العريف . ومن العلماء المشاركة الذين وفدوا إلى الأندلس في عهد هشام المؤيد الأديب اللغوي أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي ، أراد به المنصور أن يعفي آثار أبي علي القالي ^(٥) ، فتصدى صاعد لتأليف كتاب يفوق الأمالي ، يليه على مقبدي خدمة المنصور وكتاب دولته ، يكون أرفع من كتاب الأمالي قدراً وأجل خطراً ، فأذن له المنصور في ذلك ، فجلس صاعد بجامع مدينة الزهراء يعلّي كتابه المترجم بالفصوص ، فلما أكمله ناقشه أدباء العصر فلم يتركوا خبراً أو كلمة دون أن يلتقدوها ، فأمر المنصور بأن يقذف بكتاب الفصوص في النهر ^(٦) .

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) جنتالك بالثيا ، ص ١٧٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٧٣ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤٦ - المقرئ ، ج ١ ص ٣٦٢ .

(٥) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ٢ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٨ .

وكان الحكم المستنصر يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويزودهم بالأموال الطائلة لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعمدوه من قبل ، وبعث في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ودفع إليه فيه ألف دينار ، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يظهر في بغداد ، كذلك ألف له كتاباً يتضمن أنساب قومه بني أمية . وقد فعل المستنصر ذلك أيضاً مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم ^(١) ، ومع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر ، ومحمد بن يوسف الوراق الذي صنف له كتاباً ضخماً في مسالك إفريقيا وبمالكها ، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج ^(٢) . وكان يعين هؤلاء الكتاب بالمال على كتابة مصنفاتهم ، كما كان لا يتردد في مساعدتهم علمياً عن طريق إعارتهم ما كانوا يحتاجون إليه من مصادر ، فقد أرسل إلى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب « تاريخ مصر والمغرب » كتاباً استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه المذكور ، في القسم الخاص بالأندلس ^(٣) . كما شجع العلماء في الرياضة والفلك والطب والصيدلة على نشر نتائج أبحاثهم حتى يفيد منها الناس ، وعلى هذا النحو ظهرت مدرسة مسلمة الجريطي في الكيمياء والرياضة والفلك ، وظهرت مدرسة أبو القاسم الزهراوي في الطب ، وأبو الحسن الزهراوي في الهندسة ، وبفضل هذا التشجيع تمكن قاضيا النصراني بقرطبة وليد بن حيزون ، وقاسم بن إصبغ ^(٤) من ترجمة كتاب ديسقوريدس ^(٥) في النباتات والعقاقير والطب ، وهو الكتاب الذي أهداه

(١) المقرئ ، ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) المقرئ ، ج ٢ ص ٤١٨ .

(٣) P. Melchor Antuna, la corte literaria de Alhaquém II en Cordoba, El - Escorial, 1929, p. 42.

(٤) الحميدي ، جذوة المقتبس ، طبعة القاهرة ، ص ٣١٢ .

(٥) ترجم اصطف بن بسيل الترجان هذا الكتاب في بغداد زمن الخليفة المتوكل ، وراجع حنين ابن اسحق الترجمة وصححها . وقد اطلع أهل الأندلس على هذه الترجمة وأفادوا منها في أيام =

الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ،
وكتاب هيروسيس^(٨) .

وإذا كان المنصور محمد بن أبي عامر قد ضحى بكتب الفلسفة والفلك
لاسترضاء فقهاء قرطبة وتدعيم مكانته في قلوب عامتها المتغلبين على ذوي
السلطان ، وكف يد المشتغلين بالفلسفة والاعتزال ، أسوة بما فعله الناصر
قبله عندما أحرق كتب ابن مسرة القرطبي خارج باب جامع قرطبة لتضمنها
إشارات غامضة وعبارات مشبوهة عن منازل الملحدين ، فإنه نهض بالشعر

عبد الرحمن الناصر . فلما قدمت هدية قسطنطين السابع عل الناصر بقرطبة في سنة ٣٣٧ وهي
كتاب ديسقوريدس (مصور الحشائش) المکتوب باليونانية وهروسيس (صاحب القصص) المکتوب
باللاتينية ولم يكن بقرطبة يومئذ من نصارى الأندلس من يعرف اليونانية ، ظل كتاب
ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن ولم يترجم إلى العربية اكتفاء بالترجمة المراقية ، إلى أن أرسل
رومانوس ليكابينوس إليه راهباً اسمه فيقولاً قدم إلى قرطبة في سنة ٣٤٠ بناء على طلب الخليفة ،
« وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء
عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية ، وكان أبجثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب إلى
الملك عبد الرحمن الناصر حسداً بن بشروط الاسرائيلي ، وكان يقولوا الراهب أحطى الناس
وأخصهم به ، وفسر من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولاً ، وهو أول من عمل
بقرطبة تزيق الفاروق على تصحيح الشجارية التي فيه ، وكان في ذلك الوقت من الأطباء الباحثين
عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب وتعيين أشخاصه محمد المعروف بالشجار ، ورجل كان يعرف
بالبسامي ، وأبو عثان الجزار الملقب باليابسة ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبد الرحمن بن اسحق
ابن هيثم ، وأبو عبدالله الصلي ، وكان يتكلم باليونانية ويعرف أشخاص الأدوية » (ابن أبي
أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٩٤) . ولهذا السبب يستبعد جنثالث بالنسبة
أن يكون كتاب ديسقوريدس قد ترجم في الأندلس ترجمة ثانية (تاريخ الفكر الأندلسي ،
ص ٤٦٣) .

(١) يستبعد الدكتور إحسان عباس اشتراك قاسم بن أصبغ في ترجمة كتاب هيروسيس ،
استناداً على أن قاسم توفي سنة ٣٤٠ هـ في حين لم يتول الحكم الخلافة إلا في سنة ٣٥٠ (احسان
عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي «عصر الخلافة بقرطبة» ص ٤٧) . ولكننا نعتقد أنه ليس هناك
ما يمنع من قيام قاسم بترجمة الكتاب أيام كان الحكم ولياً للعهد ، خاصة وأن قاسم هذا اختصر
للعلم كتاب السنن لأبي داود وسماه المجتبي في عرم سنة ٣٢٤ وجمعه باسم الحكم (المقرئ ،
ج ٢ ص ٥٤) .

نهضة كبيرة ، واحتضن الشعراء والأدباء ، وجعل لهم ديواناً رتبهم فيه إلى طبقات ، وقدرت جوائزهم على قدر مراتبهم . وفي عهده ظهرت شخصيات أدبية شرقية وأندلسية مثل صاعد البغدادي والشاعر الرمادي الأندلسي والأديب الفيلسوف أبو المغيرة بن حزم وابن زمنين (١) .

وفي عصر الطوائف ازدهرت الحركة الأدبية والعلمية في قرطبة في ظل الوزير الأديب أبي حزم بن جمهور ، فظهر ابن حزم القرطبي الأديب العالم الفيلسوف ، وابن زيدون الوزير الشاعر ، وابن حيان المؤرخ . ولم تخمد هذه الحركة العلمية في عصر دولتي المرابطين والموحدين ، فظهر ابن قزمان القرطبي مؤسس مدرسة الزجل ، والفيلسوف العظيم أبو الوليد بن رشد القرطبي ، كما ظهر في التراجم ابن بشكوال وفي الآداب الشُّنْدي ، وفي الفقه ابن عبد البر . ونعرض في الصفحات التالية صوراً من الحياة العلمية في قرطبة الإسلامية .

(٢)

الحركة الأدبية

أ - الشعر والنثر

لم تبدأ الحركة الأدبية نشاطها في قرطبة إلا منذ أن دخلها الأمير عبد الرحمن بن معاوية واتخذها مقراً لدولة بني أمية في الأندلس ، وذلك لانشغال المسلمين في عهد الولاة بالفتوح فيما وراء البرقات ، وبالفتن الداخلية بين العرب من ناحية ، وبين اليمانية والمصرية من ناحية ثانية ، وبين البلديين والشاميين من ناحية ثالثة . وكان الشعر الأندلسي في عصر الإمارة الأموية بقرطبة متأثراً

(١) جنثالك بالنشيا ، ص ١٢ .

بالتقاليد المشرقية ، وقد ساعد على ذلك وفود عدد كبير من المغنين والمغنيات والجواري المشرقيات إلى الأندلس أمثال قمر والمعجفاء وزرياب^(١) ، إلا أن طبيعة الأندلس الساحرة : من مياه جارية ، وجبال خضراء ، وبساتين زاهية ، رقت من مشاعر أهل الأندلس ، وهذبت من جفوتهم ، وأثارت ملكاتهم الفكرية الحية ، فاستخدموا ملكات الحس والخيال في وصف جمال الطبيعة ، وفي إجادة تصويرها ، متوسلين في ذلك كله بالتشبيهات الرائعة التي نقرأها في وصف ابن شخيص لقصور الزهراء وبساتينها :

لقد جلا مصنع الزهراء عن أثر موحد القدر عن مثل وعن مثل
فانت محاسنها بجهود واصفها فالقول كالسكت والإيجاز كالخطل
بل فضلها في مباني الأرض أجمعها كفضل دولة بانيتها على الدول
كادت قسي الخنايا أن تضارعها أهلة السعد لولا وصمة الأفل^(٢)

وكان لجمال طبيعة قرطبة ، بنهرها الكبير ، وسهولها الخضراء ، وغياضها الملتفة ، أثره في إسراف شعرائها في تعلقهم بها خلال تاريخها الإسلامي الطويل^(٣) ،

(١) غريب غومس ، الشعر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٣ .

(٢) مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي ، ص ٣٠ .

(٣) من ذلك قول أبي بكر الخزومي :
أقرطبة الغراء هل لي أوبة إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة وقع في ساحات دوحاتك الرعد
لياليك أسرار وأوضك روضة وتربك في استنشاقها عنبر ورد
(المقري ، ج ١ ص ١٤٨)

وقول الشاعر القرطبي أبو محمد بن عبد الحق بن عطية :
أستودع الله أهل قرطبة حيث رجدت الحياة والكرما
والجامع الأعظم المتيق ولا زال مدى الدهر مأمنًا حرما
(المقري ج ٢ ص ١٤٦)

وفي وصف الرياض والبساتين والمنازه والرياحين ، وأدى ارتباط فن الشعر بفنون الغناء والطرب إلى استكثار أهل قرطبة من مجالس الأنس والشراب ، وإلى ابتكار نوع جديد من الشعر الشعبي يسهل التغمي به ، وأعني به الموشحات والأزجال . ثم ظهر شعر الزهد كرد فعل طبيعي لهذا الاستغراق في التمتع والاستئمان إلى حياة الله الذي يعبر عنه الشعر الغنائي الوصفي والحمري ، فظهر بقرطبة شعراء زهاد نذكر منهم الشاعر عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القنازعي ^(١) ، وأبو عبد الله محمد بن أبي زمين ، وأبو الوليد عبد الله بن محمد ابن نصر الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي ^(٢) .

وأقدم من اشتهر من أدباء قرطبة ، أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، الذي يعتبر ركناً من أركان الأدب الأندلسي ، ومراة صادقة لثقافة الأندلسيين في الأدب وما يتعلق به من أخبار ^(٣) ، ومنهم عثمان بن ربيعة (ت ٣١٠ هـ) ، وعبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصاري (ت ٣٥٢ هـ) . ومن أدباء قرطبة في عصر الطوائف المفكر الكبير ابن حزم القرطبي ، والمؤرخ

= وقول الوزير الأديب أبو الحزم بن جهور يصف أطلال بني أمية بقرطبة :
 قلت يوماً لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا ؟
 فأجابت : هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا ولست أعلم أيننا
 (المقرئ ، ج ٢ ص ٦٦)

وقول أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد يري قرطبة :
 ما في اطلال من الأحبة خبرٌ فمن الذي عن حالها نستخبر
 لا تسألن سوى الفراق فإنه يلبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
 جاز الزمان عليهم فتفرقوا في كل ناحية وباد الأكثر
 فلعل قرطبة يقلل بكاء من يبكي بعين دمعها متفجر
 (ديوان ابن شهيد ، ص ١٠٩)

- (١) ابن سعيد ، المغرب في حلل المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، ج ١ ص ١٦٦ .
 (٢) جنتالك بالنيثيا ، ص ٧١ .
 (٣) لطفي عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ، ص ٧٥ .

ابن حيان القرطبي ، وفي عصر الموحدين ظهر الأديب الكبير أبو الوليد
إسماعيل بن محمد الشقندي (ت ٦٢٩) .

ازدهر الشعر في قرطبة في عصر الدولة الأموية وأصبحت قرطبة مركز
الحركة الأدبية والعلمية في الأندلس وقلبها النابض : ففي عصر الأمير عبد
الرحمن الداخل نسمع عن الشاعر عاصم بن زيد التميمي المعروف بأبي الخشي ،
وكان يميل إلى سليمان بن عبد الرحمن ، فسلم أحد أنصار الأمير هشام بن
عبد الرحمن عبيته (١) .

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط برز في قرطبة عدد من كبار
الشعراء منهم الشاعر عبيد الله بن قرقان (٢) ، وعباس بن ناصح الجزيري (٣) ،
وعبد الله بن الشعر (٤) ، ويحيى بن حكم الغزال (٥) ، وغريب بن عبد الله (٦) ،
وبكر الكتاني ، وعبيد بن محمود ، وعبد بن يحيى القلفاط (٧) ، وأحمد بن
إبراهيم بن قازم ، ومؤمن بن سعيد (٨) ، وأبو عبد الملك عثمان بن المثنى القرطبي (٩)
وعباس بن فرناس ، والشاعرة القرطبية المشهورة حسانة التميمية (١٠) . ولكن
هذه النهضة الأدبية التي اتسم بها هذا العصر ، استقت أصولها من المشرق ،
ثم طرأ عليها تطور تدريجي بحكم البيئة الأندلسية . وفي عهد الأمير عبد الله

(١) ابن القوطية ، ص ٣٥ .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ١٤٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٣ .

(٤) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٢١ ، ١٢٨ - ابن سعيد ، ج ١ ص ١٢٤ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٩ .

(٦) جنثالث بالثيا ، ص ٥١ .

(٧) ابن سعيد ، ص ١١١ .

(٨) نفس المصدر ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٩) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

(١٠) غرسة غومس ، ص ٣١ - جنثالث بالثيا ، ص ٥٧ .

ظهر من الشعراء الفارس العربي سعيد بن جودي الذي كان يتزعم ثوار العرب في غرناطة ، وكان يمثل العصية العربية في صراعها ضد العصبية الإسبانية . ولكن الشعر الأندلسي لم يزدهر في قرطبة إلا منذ قيام الخلافة الأموية ، وفي ذلك يقول الأستاذ غرسية غومس : « لم يصل الشعر الأندلسي إلى أوجهه الكامل وسمته الجمالي إلا في القرن العاشر الميلادي الذي يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية عام ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، فلقد انتصرت السياسة الأموية الحكيمة على الأزمات كلها ؛ فلم يوفق القديس يولوخوس إلى استثارة أهل الدين من المستعربين ، ولم يلهب حماسهم النسر الأندلسي الذي اعتصم بوكنته في ببشتر (يشير إلى عمر بن حفصون) واختلطت بالتربة الأندلسية القديمة العناصر الجديدة التي حملها العرب معهم من فارس وبيزنطة ، وقد شجع عملية المزج هذه ، وعمل على تقويتها عامل على أكبر جانب من الأهمية : ذلك هو البيت الأموي الذي وقف محايداً ، وصمد للتيارات المتضاربة كلها . نعم إنه كان عربياً صرفاً - ومن ثم لم يكن إسبانياً - ولكن خصومته العنيفة مع العباسيين المشاركة خففت من عصيته العربية ، وجعله لا يميل إلى العرب وينفض يده من عونهم . ولقد كانت قرطبة بلداً نصف عربي ، يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الأندلس ، ويختلط فيه رنين الأجراس بأذان المؤذنين ، وكان بعض شعراء الأندلس يفيثون إلى ظلال البيع الصغيرة ليصيبوا شيئاً من النبذ (١) ، فجددوا بذلك ما عرفه شعراء البدو من شرب النبيذ في دوير الصحراء المتأبدة في القفر . وتجلى اختلاط الأجناس بعضها ببعض ، وتجاوز الديانات بعضها لبعض ، عن جو سمح جميل إنساني شفاف : نفس الجو

(١) يقصد بذلك أبا عامر بن شهيد الذي بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة ، « وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واثتناس ، وقرع التواقيس ببعج سمعه ، وبرق الحميا يسرج لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحاً بالزنانير أبدع توشيع ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل أطراح ، لا يعمدون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح ، وأقام بينهم يعملها حياً ، كأنما يرشف من كأسها شفة لميا ، وهي تنفخ له بأطيب عرف... » القرني ، ج ٢ ص ٦٦ .

الحضاري الذي نعرفه في بغداد أيام ألف ليلة^(١) .

ومن شعراء قرطبة النابيين في عصر الخلافة أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه القرطبي صاحب العقد الفريد (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) ، وكان شاعراً للبلاط في عصر عبد الرحمن الناصر ، وقد برع في شعر الغزل والزهديات . وحفل عصر المنصور بن أبي عامر بكبار الشعراء ، ونهض الشعر الأندلسي نهضة لم تشهد لها البلاد من قبل لميل المنصور إلى الأدب والشعر بوجه خاص^(٢) ، وإقبال الشعراء على وصف قصوره بالزاهرة ومنية العامرية ، ومظاهر التأنق الغالبة على مبانيه ، وعلى بساطينه ، ومنياته^(٣) . ومن أعظم شعراء المنصور الشاعر أحمد بن دراج القسطلبي الذي يشبهه غرسية غومس بـ «مجنجرة الشاعر الإسباني»^(٤) لقلوه في التعقيد . وأصل ابن دراج بربري ، إذ ينتسب إلى بني دراج الصنهاجيين الذي دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد في سنة ٩٢ هـ . وقد تداولت أسرته على رئاسة بلدة قسطة من عمل جيان ، ولذلك نسب إليها ، وعلى هذا الأساس فإن ابن دراج يعتبر أندلسياً خالصاً ، فهو لم يشعر قط بعصبية لنسبه الصنهاجي البربري^(٥) . وقد اتصل ابن دراج بالمنصور ومدحه بأروع قصائده ، وشعره في المنصور يعتبر من أجل ما نظم في فنون المديح وأحقه بالتقدير^(٦) ، وهو يشبه في ذلك المتنبي بالنسبة لسيف الدولة الحمداني . كذلك مدح ابن دراج المظفر عبد الملك بن المنصور ولازمه كما لازم أباه من قبل . وفي أيام الفتنة يمدح أصحابها أمثال ابن عبد الجبار وسليمان المستعين والقاسم بن حمود . ثم يفادر قرطبة إلى سبتة ، ويتنقل فيما بين عامي

(١) غرسية غومس ، ص ٣٥ .

(٢) جنثالث بالثيا ، ص ٦٥ .

(٣) الشكمة ، ص ٣٨ .

(٤) غرسية غومس ، ص ٣٨ .

(٥) حمود علي مكي ، ديوان ابن دراج القسطلبي ، دمشق ١٩٦١ ، ص ٢٢ - ٢٥ من المقدمة .

(٦) نفس المرجع ، ص ٤٨ .

٤٠٤ ، ٤٠٨ هـ بين المرية وبلنسية وشاطبة وطرطوشة مادحا لأصحابها ،
وينتهي به المطاف أخيراً في مرقسطة حيث يلزم ملوكها التجييين ويعيش
في كنفهم عشر سنين في جو من الهدوء والاستقرار ، وأصبح في بلاطهم كما
كان بالنسبة للنصور ، وينتقل في النهاية إلى دانية ليمدح صاحبها مجاهد
العامري ، إلى أن يتوفى في سنة ٤٢١ هـ .

ومن شعر ابن دراج يودع زوجه ويذكر ابنه في المهد :

ولما تدانت للوداع وقد هفا	بصري منها أنتة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى	وفي المهد مبغوم النداء صغير
عيمي بمرجوع الخطاب ولفظه	بموقع أهواء النفوس خبير ^(١)

ومن شعره في وصف أسطول ابن أبي عامر :

تحمل منه البحر بحراً من القنا	يروع بها أمواجه ويهول
بكل مُعالة الشراع كأنها	وقد حلت أسد الحقائق غيل
إذا سايقت شأو الرياح تخيلت	خيولا مدى فرسانه خيول
سحائب تزجها الرياح فإن وفّت	أنافت بأجساد النعام فيول
أراقم تقسرى نافع السم ما لها	بما حملت دون العداة مقل ^(٢)

ومن فحول شعراء قرطبة في عصر الخلافة الشاعر أبو عمرو يوسف بن
هارون القرطبي المعروف بالرمادي^(٣) (ت ٤٠٣) الذي عناه مؤرخو

(١) ديوان ابن دراج القسطلی ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢٩٨ .

(٢) نفسه ، ص ٦ .

(٣) عرف بالرمادي لكنيته بالاسبانية الدارجة أبو جنیش ، وجنیش Cenisa بالاسبانية
معناها الرماد . (ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، القسم الثاني ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٧٤ -
جنشالت بالثنية ص ٦٨) .

الأدب بقولهم فتح الشعر بكندة . وكان الرمادي شاعراً كثير الشعر سريع القول رقيقاً في شعره ، اشتهر عند الخاصة والعامة بانطباعه وإبداعه في الفريقين . وكان قد أنشد شعراً أوغر عليه صدر المنصور فسجنه ، فاستعطفه الرمادي في سجنه ، فمقا عنه المنصور ، ومن قول الرمادي يأسف على نفسه :

على كمدي تهمني السحاب وتذرف ومن جزعي تبكي الحمام وتهتف
كأن السحاب الواكفات غواسلي وتلك على فقدي نوائح هتف

ويروي ابن حزم في طوق الحمامة أنه أحب جارية اسمها خلوة من أول نظرة ، وتنزل فيها بأشعاره (١) .

وفي « خلوة » يقول :

فهذا حمام الأيك يبكي هديله بكائي فليفرغ للوم الحمام
وما هي إلا فرقة تبعث الأسى إذا نزلت بالناس أو بالبهايم
خلا فاظري من نومه بعد «خلوة» متى كان مني النوم ضربة لازم (٢)

ومن شعراء قرطبة العظام في هذا العصر الشاعر أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين (٣٢٤ - ٣٩٨ هـ) الذي يغلب على شعره طابع الزهد والتشاؤم ، ومن شعره في ذلك :

الموت في كل حين ينشر الكفنا ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا ويهيجتها وإن توشحت من أثوابها الحسنات
أين الأحبة والجيران؟ ما فعلوا؟ أين الذين هم كانوا لنا سلا
سقام الدهر كأساً غير صافية فصيرتهم لاطباق الثرى رهناً (٣)

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٣٦ ، ٣٧ - الحميدي ، جذرة المقتبس ، طبعة مصر ١٩٦٦ ، ص ٣٧١ .

(٢) الحميدي ، ص ٣٧١ .

(٣) جنثالث بالنشأ ، ص ٧١ .

وكانت الحياة الادبية في قرطبة في فترة الانتقال ما بين قيام الفتنة وبداية عصر دويلات الطوائف قد تأثرت بعمق بالكوارث والنكبات التي أخذت تتلاحق عليها سريعا مما دفع بكبار شعرائها إلى الهجرة عنها والتماس مجالات أخرى لنشاطاتهم الادبية في ظل ملوك الطوائف ، وانصرف خلفاء قرطبة في هذا العصر الانتقالي عن الادب والشعر وشغلتهن السياسة ، والحروب ، فضعفت دولة الادب ، وأصبح الشعر في هذه الفترة على حد قول الدكتور طه الحاجري : « إما شعر عابث هازل ، ضعيف طباش كشمر أبي العباس أحمد بن أبي حاتم وزير القاسم بن حمود ، وإما شعر يعتمد على المبالغة في التملق ، والإسفاف إلى التزلف كشمر ابن المنفلت أبي أحمد عبد العزيز بن خيرة ، وإما شعر متكلف يستمد كيانه من الفنون اللغوية والعلوم اللسانية ، كشمر أبي القاسم بن الإفيلي »^(١). ولا نقصد بهذا القول أن الشعر الاندلسي الجيد قد انقرض ناظموه ، وإنما نذكر السبات البارزة لهذه الفترة المضطربة المشحونة بالفوضى ، ومع ذلك فقد ظلت في قرطبة بقية من شعرائها المجيدين الذين آثروا البقاء فيها رغم العواصف السياسية ، نخص بالذكر منهم الشاعر القرطبي أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن شهيد (ت ٤٢٧) صاحب رسالة التوابع والزوابع ، التي صور فيها رحلة شاعر إلى الجنة ، وقد سبق في ذلك أبا العلاء المعري في رسالة النفران ودانتي في جحيمه^(٢) ، وكان ابن شهيد يمثل الرقة الحضرية والترف الذهني الذي يلقته الاندلس في عهده^(٣) ، وقد مدحه ابن حيان وابن بسام وأشادا ببلاغته^(٤) . ومن محاسن شعره قوله في وصف العاصفة :

(١) طه الحاجري ، ابن حزم صورة أندلسية ، القاهرة ، ص ١١٠ .

(٢) جنثالك بالثيا ، ص ٧٣ .

(٣) لطفي عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ، ص ٨٢ .

(٤) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، قسم ١ ، مجلد ١ ، ص ١٦١ - ١٦٣ .

وقد فطرت فاما دُجى كل زهرة إلى كل ضرع للنعامة حافل
ومرت جيوش المزن رهوا كأنها عساكر زنج مذهبات المناصل
وخلّفت الحضراء في غرّ زهرها كلجّة بحر كلّت باليعال
تخال بها زهر الكواكب نرجسا على شط نهر للمجرة سائل (١)

ومن أعظم شعراء قرطبة الذين عاصروا فترة سقوط الخلافة ، الفيلسوف
الاديب أبو محمد علي بن حزم القرطبي ، وتقع معظم أشعاره في كتابه
الموسوم بطوق الحمامة ، ويعتبر هذا الكتاب على حد قول الاستاذ غرسية
غوس « طاقة زهر أريحية من الاقاصيص ومقطعات الشعر والتحليل النفسي
الخلقي للحب ، وشعره ينم نارة عن عاطفة حارة مشبوبة ، كقوله :

وددت بأن القلب شق بمدية وأدخلت فيه، ثم يطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلّين غيره إلى مقتضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حبيت فإن أمّت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر (٢)

ونارة أخرى يخلق عند قم التجريد الذهني ، وهو أمر غير مألوف في
الشعر الأندلسي كقوله (٣) :

أمن عالم الأملاك أنت أم إنسي أبين لي فقد أزرى بتميزي العي
أرى هيئة إنسيّة غير أنت إذا أعمل التفكير فالجرم علوي
تبارك من سوى مذاهب خلقه على أنك النور الأنيق الطبيعي
ولا شك عندي أنك الروح ساقه إلينا مثال في النفوس اتصالي

(١) ابن سعيد ، المغرب في حلّ المغرب ، ص ٨٣ .

(٢) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٩٢ .

(٣) غرسية غوس ، ص ٤١ ، ٤٢ - جنثالث بالنشيا ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

عَدِمْنَا دليلاً في حدودك شاهداً نقيسُ عليه غير أنك مرئي
ولولا وقوعُ العين في الكون لم نقلُ سوى أنك العقلُ الرفيع الحقيقي^(١)

وفي عصر الطوائف ازدهت دولة الشعر بأعظم شعراء الأندلس الذين كانوا لا يعتبرون أنفسهم في مراتب أدنى من شعراء المشرق^(٢) ، وتنافس ملوك الطوائف في اجتذاب فعول شعراء الأندلس ، فتألفت مماء الشعر ، وتبارى الشعراء في نظم القصائد^(٣) ، وتحولت عواصم الأندلس إلى بغدادات كثيرة^(٤) . وحظيت قرطبة في ظل بني جهور بنوع من الاستقرار النسبي وعاد إليها بعض من كان قد هجرها من أهلها منذ أيام الفتنة ، وازدهرت الحياة الأدبية في هذه المدينة بفضل تشجيع أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور (ت ٤٣٥) وابنه أبو الوليد محمد^(٥) ، ويمثل الوزير الشاعر أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون القرطبي (٣٩٤ - ٤٦٣) هذا الازدهار الأدبي بقرطبة أصدق تمثيل ، فقد سجل بأشعاره العاطفية الرقيقة كثيراً من أحداث حياته ، في سراحه واعتقاله ، ومقامه وانتقاله ، وصور فيها منازره قرطبة وبساتينها وقصورها وأرحائها ، ومناياتها وجناتها ، وأحب الشاعر ولادة بنت المستكفي بالله حباً ملك فؤاده ، فأنشد فيها قصائد من أرق وأعذب ما وصل إلينا في فن الغزل والحب ، ضمنها كثيراً من مشاعره وأحاسيسه . وكانت ولادة قد بادلتها حباً بحب ، وهياماً بهيام^(٦) ، وتألفت روحها مع روحه ، وكانت تلتقي معه لقاءات طويلة تدوم الليل بطوله ، يتعاطيان

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٧ .

(٢) لطفی عبد البديع ، ص ٨٢ .

(٣) عبد العزيز سالم ، الشعر الأندلسي ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ص ٢٠٠ .

(٤) غرسية غومس ، ص ٤٤ .

(٥) راجع الجزء الأول ، ص ١٣٢ - ١٣٥ .

(٦) شوقي ضيف ، ابن زيدون ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٠ .

كؤوس الخمر والحب بين الحماثل ووسط الأزهار العطرة ، وحدث أن غاب
عنها فترة فكتبت إليه :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيلٌ فيشكو كل صب بما لقي
وقد كنتُ أوقات التزاور في الشتا أبيت على جمرٍ من الشوق محرق
فرد عليها :

لما الله يوماً لست فيه بملتق محيّاك من أجل النوى والتفرق
وكيف يطيب العيش دون مسرة وأي سرور للكئيب المؤرق^(١)
وكانت تغار عليه من جارية لها يقال لها عتبة ، وتظن أنه على علاقة بها ،
فأنشدت تقول :

لو كنت تُنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريقي ولم تتخير
وتركت غصناً مثمرأً يحماله وجنحت للقصن الذي لم يشمر
ولقد علمتُ بأنني بدرُ السما لكن دُهِيتُ لشقوتي بالمشتدّي

ولم يلبث حبّها له أن فتر ، وخبت جذوقه ، إذ آثرت عليه وزيراً هو
أبو عامر بن عبدوس ، ولا ندري السبب في تبديلها له ونفورها منه ، إلا إذا
كان ذلك نتيجة زهدا في حبه وهي الفتاة الفنانة^(٢) العابثة التي خرجت
على التقاليد ، وجامرت بلذاتها ، واختيار من تشاء من عشاقها ، فقد زعموا
أنها نسجت على طرف ثوبها طرازين من الكتابة يتضمنان بيتين من الشعر :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتبه تبهها
وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلي من يشتهيها^(٣)

(١) شوقي ضيف ، ابن زيدون ، ص ٢١ .

(٢) كانت تحسن الضرب بالعود .

(٣) القري ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ .

وتشتد به آلام الهجر وتباريح الهوى ، فيتضرع اليها ، ويبشها حبه ،
ويذكرها بالماضي ، ولكنها لم تستجب لتضرعاته ، وينتهي ابن زيدون إلى
السجن ليقتضي فيه خمسمائة يوم ينظم خلالها من القصائد ما يتضمن عتاباً لولادة
واستعطافاً لابن جهور ، ثم يفر من سجنه ، ولكنه لا يبتعد عن قرطبة ،
ويواصل جهوده في استعطاف ابن جهور كي يعفو عنه ، وتتكلل هذه الجهود
بالنجاح بفضل تدخل أبي الوليد بن جهور ، ويقربه أبو الوليد منه ويدنيه
إليه ويرفع منزلته . ولكن ابن زيدون - بعد أن شاهد نكبة بني ذكوان في
سنة ٤٤٠ - يخشى أن ينتهي إلى نفس المصير ، فيقصد بلنسية ويمدح أميرها ،
ثم ينتقل بين طرطوشة وبطليوس ، ويستقر به المقام في بلاط بني عباد .

ومن أروع قصائد ابن زيدون قصيدة كتبها إلى ولادة يتشوق إليها
ويستديم عهدها ، ويؤكد حبه لها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذي ألم به ،
ويعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ولا خبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر ،
ويعلق الأستاذ غرسية غومس عليها بقوله : « وذوقها قريب جداً من الذوق
الغربي وإن كانت تنقصها الألوان الباهرة التي نعرفها في الشعر العربي » (١) .

وقد استهل ابن زيدون نونيته هذه بقوله :

أضحى الثنائي بديلاً من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تحافينا
بينتسّم وبتنا فما ابتلت جوانحنا	شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا	يقضي علينا الأمي لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا ففدت	سوداً ، وكانت بكم بيضاً لبالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا	ومورد اللوصاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الوصل دانية	قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليُسق عهدهم عهد السرور فما	كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

(١) غرسية غومس ، ص ٤٩ .

ثم يبلغها أنه ما يزال على الوفاء مهما طال به الفراق ، وأنه لن يتغير ولن يتخذ بديلا عنها مهما امتد به الفراق والبعاد فيقول :

لم نعتقد بمدكم إلا الوفاء لكم رأيا ، ولم نتقصد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طال ما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا اتخذنا خليلا عنك يشغلنا ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا

إلى أن يقول :

أما هواك فلم نعدل بمنهله شربا وإن كان يروينا فيظلمينا
لم نخف أفاق جمال أنت كوكبه سالين عنه ولم نهجره قالينا
نأسي عليك إذا حثت مشعشة فينا الشمول وغنانا مغنينا

ويسألها في النهاية أن تبقى مثله على العهد والوفاء فيقول :

دومي على العهد - ما دمنا - محافظة فالحر من دان إنصافا كما دينا

ويعلق الدكتور شوقي ضيف عليها بقوله : « وهي قصيدة تفيض بالحنين والحب والولاء مع الجفاء ، وكأنما يصب فيها زفرائه ، وينثث لوعاته ، وهي لوعات محب بلغت به حمى المشق درجة عالية من الدرجات العاطفية الحادة » (١) ، في حين يعلق الدكتور الشكعة بقوله : « تعتبر من عيون الشعر العربي مشرقية ومغربية على مدى التاريخ ، إنها الينبوع الصافي ، الزلال المتفجر بالمعاني والمواطف والأساليب والألفاظ والموسيقى والإيقاع ، والنفس الطويل العذب والفوص العميق الصعب ، لقد استجمع ابن زيدون كل شاعريته ، وفجّر كوامن عواطفه ، ونثر الدر من معانيه ، واستعرض سحر قوافيه ،

(١) شوقي ضيف ، ابن زيدون ، ص ٤١ .

لتكون قصيدته عبء لكل محب ، وسلوى لكل صب ، وكزنا لكل أديب ،
ومثلاً لكل شاعر ، لقد جعل منها معرضاً للعواطف والأحاسيس في كل
حالاتها من عشق وغزل ، ويأس وأمل ، وشكوى وحنين ، وتوسل وحسرة ،
وتأس وأمي ، وصدق ووفاء ، وعتاب وتقريع ،^(١) . ويستمر تعلق ابن
زيدون بولادة فيذكرها وهو بالزهراء ، فيتشوق إليها ويناجيها بقوله :

إني ذكرتكَ بالزهراء مشتاقاً والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رقّ لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسمٌ كما شققتَ عن اللبات أطواقا
يومٌ كأيام لذات لنا انصرفت تبنا لها حين نام الدهر سُراقا
نلهو بما يستميل العينَ من زهر جال الندى فيه حق مال أعناقا
كان أعينُنه إذ عاينت أرقي بكنت لما بي فجال الدمع رقراقا^(٢)

وفي عصر الطوائف أيضاً ظهرت شاعرات قرطيبيات أهمهن ولادة التي
أشرنا إليها ومهجة بنت التبانى القرطبية . أما ولادة فقد نالت حظاً كبيراً
من الحرية وكان مجلسها بقرطبة على حد قول ابن بسام «منتدى لأحرار مصر»
وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يمشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ،
ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها
وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بملوّ نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب^(٣) .
وعندما أعجبها ابن زيدون ، وأحبته دعتة إلى لقيائها في الليل ليكون
ستاراً لحبها ، فكتبت إليه :

(١) مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي ، ص ٢٠٠ .

(٢) ديوان ابن زيدون ، نشره كامل كيلاني ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٢٥٧ - الشكعة ،

ص ١٩٣ .

(٣) ابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٣٧٩ .

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكرم السر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر^(١)

وأما مهجة بنت التّيبّاني القرطبية فكانت من أجل نساء عصرها ولكنها
ذهبت في فحش القول واستخدام الألفاظ البذيئة^(٢) ما جعلها تنتمي إلى
مصاف الشاعرات السوقيات .

وفقدت قرطبة في عصر المرابطين والموحدين مكانتها في دنيا الأدب
والشعر ، ومع ذلك فقد نبغ من شعرائها أبو الإصبع عبد العزيز بن فاتح
القرطبي ، وأبو الحسن علي بن يوسف بن خروف القرطبي ، وأبو جعفر أحمد
ابن شطرية القرطبي ، وأبو جعفر أحمد بن رفاعة القرطبي .

أما فيما يتعلق بالنثر ، فكان مرتبطاً بالشعر ارتباطاً وثيقاً ، إذ أن شعراء
الأندلس كانوا يحددون الكتابة نثراً كما يحددون النظم شعراً ، ويتمثل النثر في
الرسائل الديوانية وفي الإخوانيات ، ويتميز هذا النوع من الكتابة بالإسراف
في استعمال المحسنات اللفظية كالسجع والجناس^(٣) . ومن أشهر كتاب قرطبة
ابن شهيد وابن حزم وابن زيدون وابن حيان وابن خاقان . ومن أمثلة النثر
المسجوع قول الفتح بن خاقان في كتابه مطمح الأنفس ومسرح التأنس ،
يمدح جعفر المصحفي الحاجب : « تجرد العليا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى
بلغ المنى ، وتسوغ ذلك الجنى ، فما دون سابقة ، وارتقى إلى رتبة لم تكن
للبيئته بمطابقة ، فالتاح في أفياء الخلافة ، وارتاح إليها بمطفه كنشوان
السلافة ، واستوزره المستنصر ، وعنه قد كان يسمع وبه يبصر ، فأدرك

(١) ابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٣٧٧ .

(٢) راجع أمثلة من شعرها في نفع الطيب ، ج ٦ ص ٢٩ .

(٣) الشكمة ، الأدب الأندلسي ، ص ٤٧١ .

بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحباثل والشرك^(١). ومنه أيضاً قول المؤرخ القرطبي أبي مروان حيان بن خلف يهجو ابن باشة: «وانكدر بإثر وفاته ابن باشة هدّام القصور، ومبوّر المعمر، وكان من التبجح في اللؤم، والالتحاف للشؤم، مع دناءة الأصل والفرع وتنكب السداد، وتقبل الفساد، على ثبج عظيم، بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة، ودرست آثارهم البديعة، وحطت أعلامهم المنيرة»^(٢).

ومن أمثلة الرسائل الديوانية رسالة من إنشاء الوزير الكاتب أبي محمد بن عبد البر ردّاً على ابن شرف القيرواني: «ربّ أمانة شطط، قد أراحها قدر، ونجّية فرط، قد أراحها ظفر، وقد تقرب الأمانى، ما يظنه المرء نازعاً بعيداً، كما تُفُتّت ما يعتدّه حاضراً عتيداً. وكانت أخبارك — أبقاك الله — ترد علينا أرجة النسيم، عطرة الشميم، شهية المسموع، رفيعة المحمول والموضوع، وأشعارك تُزَفُّ إلينا عرائس الألباب، ونفائس الآداب، فنفتيك على البعد بالأنفس والأقارب، ونستدنيك بالأمانى ونحسبها من الكواذب...»^(٣).

وفي الاخوانيات كتب الأديب أبو العباس أحمد بن قاسم إلى ابن بسام رسالة منها: «يا سيدي وعمادي، طال بقاؤك ودام علاؤك، تكلفت من العناية بتنويهي ما دل على محتدك الكريم، ونصابك السليم، وعلى انتائك من المجد إلى دوحة ساقها قويم وطلعها هضم، ولولا ثققي بتمييزك، وظهورك في هذه الصناعة وتبرّزك، ما اجترأت على أن أجري بما كتبت إليك به كفا، ولا أن أخط متباهياً بها حرفاً»^(٤). وبرع الأديب أبو أحمد عبد العزيز بن

(١) الفتح بن خاقان، كتاب مطمح الأنفس، ومسرّح التأنس في ملح أهل الأندلس، قسنطينة، ١٣٠٢هـ، (١٨٨٤م) ص ٤.

(٢) ابن بسام، قسم ١، مجلد ٢، ص ١١١ - ١١٢.

(٣) ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١، ص ١٣٦.

(٤) ابن بسام، قسم ١، مجلد ٢، ص ٣٩٢.

خيرة القرطي في الوصف ، فمن رقعة له وقد بعث أترجة إلى أحد الأصدقاء :
 « وقد بعثت إليك من بنات الثار أجملها ، ومن نتائج البستان أفضلهما ، لم
 تطرفها عين أحد ، ولا باشرها بشرٌ بيّد ، قد صيرت من الأغصان خدراً
 وأرسلت من الأوراق ستراً ، فلما تكامل حسنهما ، وماد بها غصنها ، وارتوت
 من ماء الجمال ، وصارت في نصب الكمال ، هتكت سترها ، وطرقت خدرها ،
 فإذا هي في حلة الخائف ، قد اصفرّت وجلاً من يد القاطف ، فشربت على
 ودّها رطلين ، وتناولتها بالراحتين ، ثم وضعتها في هودج خيزران ، وآثرتك
 بها على جميع الإخوان ... » (١) .

ب - الموشحات والأزجال

يذهب جمهور من الدارسين للأدب الأندلسي إلى القول بأن اختلاط عرب
 الأندلس بالعجم أو المستعربة كان سبباً في شيوع لهجة أعجمية مشتقة من
 اللاتينية الدارجة المعروفة بالرومانسية كانت تستخدم في الحياة اليومية
 والأحاديث ، وكان هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في ابتكار طراز شعري
 مختلط تلتزم فيه مؤثرات غربية وشرقية (٢) ، ويخدم فن الغناء لسهولة وسلاسته
 وتحرره من قيود الشعر التقليدي وعبودية القافية الواحدة (٣) ، وقد ولد هذا

(١) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٢) جنثالث بالثيا ، ص ١٤٣ - لطفي عبد البديع ، ص ٧٩ ، وما يؤكد انتشار
 الرومانسية عند الأندلسيين ما ذكره ابن حزم عندما تعرض لذكر بني بلى فذكر أنهم لا يحسنون
 الكلام بالبطينية لكن بالعربية فقط (جهمرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٤٣) .
 (٣) جريدة الركابي ، في الأدب الأندلسي ، دمشق ١٩٥٥ ، ص ٣٠٢ . ويمتد الدكتور
 الركابي أنه قامت في المشرق الإسلامي منذ صدر الدولة العباسية محاولات للخروج على نظام
 القصيدة والتحرر من قيودها مجازاة للبيئة الحضارية الجديدة ، وقامت محاولات لابتكار بعض
 الأوزان ، كما ابتكرت مولاة للبرامية « المواليا » وهو شعر عامي ملحون تندرج تحته فنون
 كثيرة تسمى القوما (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٦٦) ، ثم ظهرت الخمسات والمسمط =

الشعر الشعبي في شبه جزيرة أيبيريا منذ نهاية القرن الثالث الهجري ، وكان ظهوره نتيجة طبيعية لخضوع الشعر العربي الفصيح لقوالب عروضية صارمة : فالقصيدة تخضع لقواعد معينة ثابتة فيما يختص ببهرها الذي لا يتغير من مطلع القصيدة إلى آخرها مهما طالت ، وكذلك فيما يختص بالقافية التي لا تتغير كذلك من البداية إلى النهاية ، على حين أن الشعر الشعبي الذي ابتكره مقدم ابن معافي وفقاً لابن خلدون أو محمد بن محمود القبري الضريز وفقاً لابن بسام ، كان يميز استخدام بحور أخرى غير بحور العروضيين ، ويخالف بين القوافي في القصيدة الواحدة ، وقد تكون لغة هذا الشعر فصيحة وهذا شأن الموشحات ، وقد تكون دارجة ملحونة وهذا شأن الأزجال^(١) . وهناك فريق ثانٍ يذهب إلى أن أصل الموشح جليقي ، وثالث إلى أنه روماني^(٢) . وهناك فريق رابع من الباحثين يذهب إلى أن الموشحة الأندلسية هي تطور طبيعي ومتدرج للشعر المشرقي سواء في الاطار العام أم في الموضوعات ، شأنها في ذلك شأن ألوان من الشعر ظهرت في المشرق ثم نمت وترعرعت في الأندلس بتأثير البيئة جغرافياً واجتماعياً^(٣) ، ويرى هذا الفريق أن استخدام خرجة أعجمية أي لاتينية لا يعتبر دليلاً على أن الموشحة إسبانية الأصل ، وإنما استخدمت من قبيل الطرافة ، كما حدث عندما اتخذ ابن سناء الملك خرجة فارسية في إحدى موشحاته .

وفي نشأة الموشحات يقول ابن بسام : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريققتها - فيما بلغني - محمد بن محمود القبري الضريز ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرها على الأعاريض

= والمزدوجات ، ولكن هذه المحاولات ووجهت في المشرق بمعارضة شديدة واعتبرت دليل ضعف وعجز (راجع جودة الركابي ، ص ٣١٢) .

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٨١ .

(٢) جنثالت بالنشيا ، ص ١٥٤ وما يليها .

(٣) الشكعة ، ص ٣٨٣ .

المهمة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والمجمل ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان . وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب « العند » أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا ، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي ، فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز ، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة . فاستمر على ذلك شعراء عصرنا كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن ، ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان ، فيضمنها ، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز ، (١) .

ويختلف ابن خلدون مع ابن بسام في اسم الوشاح الأول مبتكر هذا الفن ، فيجعله مقدم بن معافي القبري من شعراء الأمير عبد الله المرواني (٢) بدلاً من محمد بن محمود القبري الضرير . وكان الظن أنها شخص واحد ، وأن أحد الاسمين محرف عن الآخر ، لولا أن أكد الدكتور عبد العزيز الأهواني أنها شخصان مختلفان ، وإن كانا متعاصرين ، ولهما تراجم مدونة في الحلة السيرة وفي بغية الملتبس (٣) . وأياً ما كان الأمر وسواء كان مبتكر الموشحة محمد القبري أو مقدم القبري فكلاهما لم يبرع في فن التوشيح ، إذ كسدت موشحاتها ، كما كسدت موشحات ابن عبد ربه الذي أخذ عن أحدهما . وأول من برع في هذا الشأن على حد قول ابن خلدون عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح ، ولم يلبث فن التوشيح أن تطور في عصر الطوائف على يدي أبي بكر عبادة بن ماء السماء شيخ الصناعة وإمام الجماعة ، الذي «سلك إلى الشعر مسلحاً سهلاً ، فقالت له غرائبه مرحباً وأهلاً ، وكانت صنعة

(١) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٠١ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ١١٣٨ .

(٣) al - Ahwani (Abd al - Aziz) : El Kitab al - Muqtataf min Azahir al - Turaf , al - Andalus , vol. XIII, 1948, p. 29 .

التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنما لم تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته ^(١) . واستحسن أهل الأندلس شمر الموشحات واستساغوه وأقبلوا عليه ، لسهولة إنشاده والتغني به على أنغام الأوتار أو تقطيع أصوات المزمارة . وإذا كانت أغراض الموشحة قد تعددت إلا أن الغزل والحب ومجالس الطرب والسمر والشراب ووصف الطبيعة كانت الموضوعات الرئيسية للتوشيح لتناسبها مع فن الغناء ^(٢) ، ولهذا السبب اقترن فن الموشحات بالألحان والغناء ، ثم تجاوزت الموشحة هذه الأغراض إلى الدين والتصوف .

ولقد ازدهرت صناعة الموشحات في قرطبة زمن دويلات الطوائف شأنها في ذلك شأن غيرها من حواضر الأندلس في هذا العهد ، ولكنها بلغت ذروة ازدهارها في عصر دولتي المرابطين والموحدين ، فظهر من كبار الوشاحين القرطبيين : يحيى بن بقي القرطبي (ت ٥٤٠) ، ومن موشحاته في الحب قوله :

عبث الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد فلبت أدعني

أيها الناس فؤادي شغف
وهو من بني الهوى لا يُنصف
كم أداريه ودمي يكيف
أيها الشادن من علما بسهام اللحظ قتل السبع

(١) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ١
(٢) الحجري ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ص ٥٩ .

بدر تم تحت ليل أغطش
طالع في غصن بان منتشي
أهيف القد بخدّ أرقش
ساحر الطرف وكم ذا فتكا بقلوب الأسد بين الأضلع

* * *

أي ريم رمته فاجتنبنا
وانثنى يهتز من سكر الصبا
كفضيب هزّه ريح الصبا
قلت: هب لي يا حبيبي وصلكا واطرح أسباب هجري ودّع^(١)
ومن موشحات ابن بقي القرطبي في الخمر قوله :

أدر لنا أكواب يُنسى بها الوجد
واستصحب الجلائن كما اقتضى المهّد

* * *

دِنْ بالهوى شرعاً ما عشت يا صاح
ونزّه السمعها عن منطق اللاحي
والحكم أن يُدعى إليك بالراح
أنامل العناب ونقلك الورد
حفّا بصدغيّ آس يلويها الحدّ

* * *

(١) المقري ، ج ٥ ، ص ٣٦٧ - جودة الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص ٣٤٠ .

لله	أيام	دارت بها	الخمر
والروض	بسام	باكره	القطر
وَصَلَّ	وأنفام	وأوجه	زهر
فنحن	بالأصحاب	قد ضمنا	عقد
وأفرط	الإناس	مما له	حد

* * *

بيننا	أنا	شارب	للقهوة	الصرف
وبيننا	تائب	لكن	على حرف	
إذ قال لي صاحب	من جملة الظرف	غن	له واشد	
أميرنا قد تاب	عسا	يرتد	(١)	
وأعرض عليه الكاس				

ومن وشاحي قرطبة في عصر الموحدين أبو الحسين بن مسلمة القرطبي
(ت ٥٨٥) الذي عرف بموشحاته في وصف جمال الطبيعة ، ويورد ابن سعيد
له موشحة في وصف وادي ربه :

بوادي رية اخليع عذار التصابي
أما تراه مفروغ
مثل الصباح المرصع
بالروض عاد مجزع
سقاه ربه من صفو ماء السحاب

* * *

(١) ابن سناء الملك ، دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق الدكتور جودة الركابي ،
دمشق ، ١٩٤٩ ، ص ٤٧ - جودة الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص ٣٤٢ .

عليه 'حث' المدا'مة
وأنظره في شكل لامة
خاف الرياض 'حمامة'
فكم خطيئة 'مدت له كالحراب' (١)

أما الزجل فشعر غنائي يصاغ في فقرات تسمى أبياتاً (كالموشحات) ،
ويمتاز بتكرار القافية في نهاية كل بيت حتى يتيسر إنشاده مع المجموعة على
نغمات العود أو المزمار . وأول من ابتكر الأزجال أبو بكر بن قزمان
القرطبي (ت ٥٥٥ هـ) الذي يعد إمام الزجالين (٢) ، واشتهرت أزجاله في
الآفاق ، وعنى في أول أمره بالنظم المعرب ، فألفى نفسه متخلفاً عن
شعراء عصره ، فابتكر هذه الطريقة الجديدة التي لاقت هوى في نفوس
الناس ، وأصبح إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس (٣) ، ولذلك
يتم زجل ابن قزمان باستعمال ألفاظ رومانية كثيرة يمكن أن نقرأها في
هذا البيت :

وإلى هذا الجلال
منظر لسن ل' مثال
أج بحال دارة هلال
أو بحال و'ج دشول

وكلمة دشول هنا من الإسبانية de Sol أي الشمس .

وقوله أيضاً :

-
- (١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٢٤ .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٥٣ .
(٣) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٠٠ .

كَيْفَ نَرَى خُبْزَ بَنِيحْ
 أَسْوَدَ اسْوَدَ مِثْلَ بَنِيحْ
 فِي إِدِينْ تَقْطِيجْ
 وَدَقِيقْ حَصْ وَفُولْ

وكلمة بنيج اسبانية Paniza بمعنى الرغيف الصغير من الخبز ، كما أن كلمة بيج اسبانية أيضاً Pez بمعنى القار (١) .

وكثيراً ما نقرأ في أزجاله ألفاظاً أعجمية مثل : برينة Verbena ، وكريو Creo أي أعتقد ونخشل دشول Mejilla de Sol أي خد كأنه الشمس ، بل هناك أشطار نصفها عربي ونصفها عجمي مثل :

يَا مُطَرَّ بَنَ تَنْ شِلْبَاطُ تَنْ حَزِينْ يَنَاطُ تَرَا الْيَوْمَ وَشَطَاطُ
 لَمْ تَذُقْ فِيهِ غَيْرَ لُقَيْمَةِ

ومطر Madre أي أم ، وبن Vani أي تعالى ، وشلباط Salvado أي لإنجديني ، وتَنْ Tanto أي حيناً ... وحيناً ، ويناط وقد قرأها ريبيرا بناط Penato بمعنى متألم (٢) .

ومن أزجال ابن قزمان في مدح القاضي أحمد بن الحاج (٣) :

(١) جنثالث بالثيا ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٣) أسرة بني الحاج أسرة بربرية ، ينتمي إليها يوسف بن فاشفين مؤسس دولة المرابطين ، وكان أحد أفرادها وهو محمد بن الحاج قائداً من قواد المرابطين الكبار ، أمدد إليه علي بن يوسف ولاية قرطبة واستشهد في سنة ٥٠٩ في كين نصبه له القشتاليون (راجع : الفتح بن خاقان ، قلائد العقبان ، ص ٢٢٨ - ابن عذارى ، ج ٤ (المصر الرابطي) طبعة بيروت ، ص ٦١ - ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ١١٠) .

وصل المظلوم لحق وانتصف غني ومسكين
يحضر الانكار والإقرار ويقع الفصل فالحين
اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين
فيزول الحق إذا زال ويدوم الحق إذا دام

وترى طالب ومطلوب لس ترى زوار وجلاس
إلا إن كانت ضرورة كلمتين فلا بأس
مرآت يا قاضي الجماعة جزاك الله خير عن الناس
إن مذ كنت ات حاكم عرفت شروط الأحكام^(١)

وخلف ابن قزمان في صناعة الزجل أبو عبدالله بن الحاج المعروف
بمدغليس ، الذي كان يعني باللفظ دون المعنى ، ومن أجل أزجاله زجل يصف
فيه البساتين وثمارها ، والنسيم والخضرة :

ثلاث أشياء فالبساتين لس تجد في كل موضع
النسيم والخضر والطير ثم واتنزة واستمع
قم ترى النسيم يؤكلول والطير عليه تغرد
والثمار تنثر جواهر في بساط من الزمرد
وبوسط المرج الأخضر سقي كالسيف المجرّد
شبهت بالسيف لما شفت الغدير مدرع
ورذاذاً دق ينزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفَضُّض وترى الآخر يذهّيب

(١) عبد العزيز الأمازي ، الزجل في الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٠١ .

والنِّبَاتُ يَشْرَبُ وَيَسْكُرُ وَالْفُصُونُ تَرْقُصُ وَتَطْرِبُ
وَتُرِيدُ تَجِييَ إِلَيْنَا ثُمَّ تَسْتَحِييُ وَتَرْجِعُ^(١)

وقد لاقت أزجال ابن قزمان ومدغليس رواجاً في الأندلس من العامة ،
مما يدل على أنها إنما نظمت ليتغنّى بها المنشدون في الأسواق ، أو المتسولون في
الطرق ، أو أصحاب المجون «السكرى والسكران»^(٢) ، ويردد الحاضرون
إنشاد الخرجة على أنغام العود أو المزهري أو الدف ورنين الصنج^(٣) .

وفي عصر الموحدين نبغ من زجالي قرطبة يحيى بن عبدالله البجوضة ،
ومن أجل أزجاله :

من باب الجوز يُسْمَعُ صياحي
والله إنك صرف ملحلا
وسميناً بحال بخلا
وخفيفاً بخال بوللا
حن تطر لي مع الرياح
والله ذنا إني مشاكل
وحزامي مليح وكامل
حن تراني نرخی السراول
على وجه القرق الصياح^(٤)

(١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ص ٢٢٠ وما يليها - ابن خلدون ، المقدمة
ص ١١٥٥ .

(٢) Stern, les vers finaux en espagnol dans les muwassahs
hispano - hebreiques, al - Andalus, 1948, Appendice, p. 345

(٣) جنثالث بالثيا ، ص ١٦٠ .

(٤) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٧٣ .

ومنهم الزجال قاسم بن عبود الرياحي^(١) يصف أرحاء قرطبة على الوادي الكبير وبعض المواضع الهامة من قرطبة فيقول :

بالله يا حبيبي اترك ذا النفار
واعمد أن نطيب في هذا النهار
واخرج معي للوادي لشرب العقار
فتمم نهارنا في لذة وطيب
في الأرحا ولا في المرج الحصب^(٢)

وقبل أن نترك موضوع الزجل والموشحات لا بد أن نشير إشارة سريعة إلى أثر هذا الشعر الغنائي الأندلسي في الشعر الغنائي الأسباني والفرنسي في العصور الوسطى . ففي الأزجال القشتالية الواردة بديوان بايينا نفس العناصر الرئيسية للزجل الأندلسي وما يرادفها بالقشتالية : فالمطلع يسمى Estribillo ، والأسماط الثلاثة تسمى Mudanza ، والقفل يسمى La vuelta . ولا نزيد الإفاضة في الحديث عن أثر الشعر الغنائي الأندلسي في أغاني الطروبادور الأقطانية والبروفنسية سواء من حيث تركيب الأبيات أو تعاقب القوافي ، فقد بحث هذا الموضوع طويلاً وانتهى البحث فيه إلى تأكيد القول بتأثير الأزجال والموشحات الأندلسية في الشعر الغنائي الفرنسي استناداً إلى أن أول شاعر غنائي فرنسي كتب شعراً بلغة رومانسية متبعاً التركيب العروضي للزجل الأندلسي هو جيوم التاسع دوق أقطانية ، وإلى أن الطروبادور الأقطانيين والبروفنسيين والزجالين المسلمين في الأندلس يتفقون

(١) لعله ينتمي إلى بني رباح العرب الحلالية الذين عاثوا فساداً في المغرب الأدنى في عصر الدولة الصنهاجية ، ثم هاضموا بني غانية الميورقيين ضد الموحدين ، إلى أن اصطنمهم المنصور الموحد واستقدمهم إلى المغرب الأقصى ، وسير بعضهم إلى الأندلس للجهاد .

(٢) (الغري ، ج ٢ ص ٢٤ و ٢٥ .

في الموضوعات التي تناولها أغانيهم ، وكلها قدور حول الحب العذري الشريف والحب الحسي والمدح ، وأزجال ابن قزمان تتماثل على هذا النحو مع أشعار الطروبادور ماركابرو ، كما تتكرر فيها ألفاظ متماثلة مثل الرقيب Gardador ، والنم Lauzangie ، والحاسد والعاذل Enojos ، والغيور Gilos ، كذلك تشترك الأزجال الأندلسية مع أشعار الطروبادور في استخدام عبارة إن الحب لمن يحب مطيع qui amat obedit التي وردت في كتاب Disciplina Clericalis ، هذا بالإضافة إلى أن بعض الدارسين ذهب إلى القول بوجود صلة بين طروبادور وطرب على اعتبار أن الأولى مشتقة من الثانية . وبما يؤكد وجود صلة بين الطروبادور والزجالين أن جيوم التاسع أقدم شعراء الطروبادور الفرنسيين كان على اتصال وثيق بإسبانيا ، فقد ساعد الملك الفونسو المحارب ملك أرغون ضد المرابطين في معركة كتندة التي حدثت سنة ١١٢٠م ، وتزوج من بنت راميرو الراهب ملك أرغون ، وقتل في شنت ياقب سنة ١١٣٧م ، كما أن الطروبادور ماركابرو سبق أن رحل إلى قشتالة ، واشترك مع الفونسو السابع في إحدى حملاته ضد المسلمين ^(١) .

(٣)

العلوم اللغوية والدينية

اقتصرت الدراسات النحوية واللغوية في قرطبة باديء ذي بدء على قراءة

(١) راجع في هذا الموضوع : ليفي بروفنسال ، محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية ١٩٥١ - ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، مقال : الشعر العربي في إسبانيا وشعر أوروبا في العصر الوسيط ، ص ٢٨٠ - ٣٠٣ - عبد الرحمن الحجي ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، (الفصل الخاص بأثر الموسيقى الأندلسية على الموسيقى الأوروبية ، ص ١١٤ - ١٤٠) - عبد الميز سالم ، تأثير الأزجال الأندلسية في الشعر الغنائي الأوروبي ، كتاب الشعب ، عدد ٦٤ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

النصوص الأدبية شعراً ونثراً لتربية الملكات الأدبية ، فكانت الدراسات النحوية على هذا النحو ضمنية إلى أن دخلت الأندلس كتب الكسائي . ومنذ ذلك الحين أخذت تظهر بعض التواليف في النحو ؛ فكتب جودي بن عثمان النحوي العبسي (ت ١٩٨ هـ) كتاباً في النحو بعنوان « منبه الحجاره » ، وبرز من علماء اللغة زمن أمراء بني أمية أيضاً أبو عبد الملك عثمان بن المثنى القرطبي (ت ٢٧٣) الذي عاصر أربعاً من الأمراء من هشام الى الأمير محمد ابن عبد الله ، ومنهم أبو محمد عبد الله بن بكر المعروف بالندل (١) ، وكان هشام بن الوليد بن محمد بن عبد الجبار الغافقي القرطبي (ت ٣١٧ هـ) عروضياً نحوياً ، وهو الذي أدب الأمير عبدالرحمن بن محمد ، ثم أدب بعده ولي عهده الحكم (٢) . وفي عهد عبد الرحمن الناصر والحكم ظهر عدد كبير من المتخصصين في الدراسات النحوية ، نذكر منهم محمد بن اسماعيل النحوي المعروف بالحكيم القرطبي (ت ٣٣١) ، وكان عالماً بالنحو والحساب (٣) ، ويوسف بن محمد بن يوسف البلوطي النحوي (ت ٣٣٤) ، وكان عالماً بالنحو واللغة ، جيد الضبط ، إماماً في هذا الفن (٤) ، ومحمد بن عمر بن عبد العزيز ابن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية القرطبي ، (ت ٣٦٧ هـ) وكان عالماً بالنحو حافظاً للغة ، متقدماً فيها على معاصريه ، « لا يشق غباره ولا يلحق شأوه » ، وله في هذا الفن مؤلفات حسان ؛ تصاريف الأفعال ، وكتاب المقصور والمحدود .. وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه وتتؤخذ عنه ، (٥) . ومنهم أيضاً مفرج بن مالك النحوي المعروف بالبغل (توفي زمن

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ١١٣ .

(٢) ابن القرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ١٩٦٦ ، القسم الثاني ، ص ١٧٤ ترجمة

رقم ١٥٤٥ .

(٣) نفس المصدر ، قسم ٢ ، ص ٥٢ ترجمة رقم ١٢٣٢ .

(٤) نفسه ، قسم ٢ ، ص ٢٠٥ ، ترجمة رقم ١٦٢٩ .

(٥) نفسه ، قسم ٢ ، ص ٧٦ ، ترجمة ١٣١٨ .

المستنصر) وكان نحوياً لغوياً عالماً بمعاني الشعر ^(١) ، ومحمد بن يحيى المعروف بابن الخراز (ت ٣٦٩) ^(٢) ، ومحمد بن حسن بن عبد الله الزيدي (ت ٣٧٩) وكان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة ، واستأدبه الحكم لابنه هشام ^(٣) ، وأبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا القلقاط القرطبي ، وكان من كبار نخاة قرطبة المعروفين بالإقراء ^(٤) . وفي عصر الموحدين نبغ من علماء قرطبة في النحو أبو بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدي القرطبي (ت ٥٦٧) ، وقد صنف عدة كتب في النحو منها شرح الجمل ، وشرح المقامات ^(٥) .

كذلك عني أهل قرطبة بالعلوم الدينية كالحديث والقراءات وعلوم القرآن والتفسير ، وصنفوا فيها الكتب . وأول من ظهر منهم محمد بن وضاح (ت ٢٨٧) مولى عبد الرحمن بن معاوية ، وكان قد رحل إلى المشرق رحلتين في طلب الحديث ، « وكان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه ، متكلاً على علمه ، وبفضل جهوده وجهود بقي بن مخلد ، أصبحت الأندلس دار حديث ^(٦) . أما بقي بن مخلد القرطبي (ت ٢٧٦) فمن أساطين علماء الحديث بقرطبة زمن الإمارة ، رحل إلى المشرق ولقي جماعة من أئمة المحدثين وكبار المسندين بلغ عددهم ٢٨٤ رجلاً ، وهو الذي ملأ الأندلس حديثاً ورواية ، وصنف عدداً من الكتب ^(٧) . ومن كبار علماء الحديث في عهد الناصر قاسم بن إصبع البيهقي تلميذ بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح ، وكان بصيراً بالحديث والرجال ،

(١) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ص ١٤٢ ، ترجمة رقم ١٤٤٨ .

(٢) نفس المصدر ، قسم ٢ ، ص ٧٩ ، ترجمة ١٣٢٥ .

(٣) نفسه ، قسم ٢ ، ص ٩٠ ، ترجمة رقم ١٣٥٧ .

(٤) ابن سعيد ، ج ١ ص ١١١ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١١٢ .

(٦) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ص ١٦ ، ترجمة رقم ١١٣٦ .

(٧) نفس المصدر ، قسم ١ ، ص ٩٢ ، ترجمة رقم ٢٨٣ .

وصنّف على كتاب السنن لأبي داود كتاباً في الحديث سماه المجتبي^(١) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد القنتوري القرطبي (ت ٣٤٨) وكان عالماً بالحديث ، صحيح النقل ، حافظاً ، وألّف عدة مصنفات في فقه الحديث ، منها « فقه الحسن البصري » في سبعة مجلدات ، وكتاب « فقه الزهري »^(٢) . ومنهم في زمن الطوائف عثمان بن سعيد بن عمر الأموي القرطبي (ت ٤٤٤) صاحب « المقنع والتيسير » وكان أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره وفي الحديث وطرقه وأسماء رجاله^(٣) ، وأبو الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي (ت ٤٠٣) ، صاحب كتاب « تاريخ علماء الأندلس »^(٤) ، ومحمد بن عمر ابن يوسف بن الفخار (ت ٤١٧) ، وأبو عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣) صاحب المؤلفات الجليلة^(٥) . ومنهم في زمن الموحدين أبو بكر يحيى بن سعدون (ت ٥٦٧)^(٦) ، وأبو الحسن علي بن القطان القرطبي (ت ٦٢٧) صاحب المصنفات في تفسير الحديث^(٧) .

وفي علم القراءات ظهر عثمان بن سعيد القرطبي الذي بلغ الغاية في القراءات^(٨) ، ويحيى بن مجاهد بن عوانة الفزاري القرطبي (ت ٣٦٦) وكان مهتماً بالقراءات والتفسير^(٩) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٣٩٣) المعروف بالورشي نسبة لشهرته في قراءة ورش ، وكان أحد القراء المعروفين المذكورين

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٥٤ - جنتالك بالثيا ، ص ٣٩٤ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤١٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٣٥ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٥) جنتالك بالثيا ، ص ٣٩٦ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ٣١٨ .

(٧) جنتالك بالثيا ، ص ٤٠٠ - لطفي عبد البديع ، ص ٤٤ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٤٠٦ .

(٩) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ص ١٩١ ترجمة ١٥٩٥ .

بالتقدم في علم القراءات^(١) . وفي عصر الطوائف ظهر أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (ت ٤٣٧) وكان متبحراً في علوم القرآن ، مجوداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها^(٢) .

وفي تفسير القرآن تألفت شخصيات عديدة في قرطبة نخص بالذكر منهم بقي بن مخلد أكبر المفسرين للقرآن في الأندلس وصاحب التوايف التي لم يؤلف مثلها في الإسلام^(٣) ومن بينها « تفسير القرآن »^(٤) ، وأبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد القرطبي (ت ٦٠١) وله شرح على تفسير ابن عطية^(٥) ، وأبو عبد الله بن أحمد القرطبي المفسر (ت ٦٧١) الذي جمع في تفسير القرآن كتاباً من ١٥ مجلداً ، وشرح أسماء الله الحسنى في مجلدين ، وصنّف كتاباً بعنوان « التذكرة في أمور الآخرة »^(٦) في مجلدين .

وانجبت قرطبة في علم أصول الفقه علماء مشهورين بالفضل ، فظهر بها طائفة من كبار الفقهاء على المذاهب الأربعة : فمن أئمة فقهاء المذهب المالكي يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤) وأستاذه زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون أول من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس^(٧) ، وتولى يحيى بن يحيى الليثي فتياً الأندلس برأي مالك بعد عيسى بن دينار ، وذكروا أنه لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطاه يحيى بن يحيى^(٨) . ومن دعائم الفقه على المالكية بقرطبة في

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ٤١٤ .

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ رقم ١٢٧٦ .

(٣) المقرئ ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٤) ابن الفرضي ، قسم ١ ص ٩٢ .

(٥) جنثالك بالنيثيا ، ص ٤٠٩ .

(٦) المقرئ ، ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٥١ .

(٨) ابن الفرضي ، قسم ٢ ص ١٨٠ ترجمة رقم ١٥٥٦ .

عصر أمراء بني أمية يحيى بن ابراهيم بن مزين القرطبي (ت ٢٥٩) الذي صنف كتباً منها كتاب تفسير الموطأ ، وكتاب تسمية الرجال المذكورين فيه ، وكتاب المستقصية ، وكتاب في فضائل العلم ^(١) ، وقاسم بن إصبغ البياني الذي سبق أن تحدثنا عنه ، ويحيى بن مضر القيسي الذي قتل يوم الهيج في سنة ١٨٩ . ومنهم في عصر الخلافة محمد بن يحيى بن عمر لبابة المعروف بالبوجون (ت ٣٣٠) ^(٢) ، ومحمد بن يبي بن محمد زرب (ت ٣٨١) وكان أحفظ أهل عصره للمسائل علي مذهب مالك وأصحابه ^(٣) ، ويحيى ابن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي (ت ٣٦٧) ^(٤) . وبرز من فقهاء المالكية بقرطبة زمن المرابطين أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٢٠) جد الفيلسوف ابن رشد ، وكان عارفاً بالفتوى علي مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بأرائهم ^(٥) . ومن أساطين فقهاء الشافعية من أهل قرطبة قاسم بن محمد بن سيار القرطبي (ت ٢٧٧) الذي لم يكن في الأندلس مثله في حسن النظر والبصر بالحجة ^(٦) ، وفيه يقول ابن الفرضي « وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ويميل إلى المذهب الشافعي » ، وألف قاسم في الرد على يحيى بن ابراهيم بن مزين وعبد الله بن خالد والمعتبي كتاباً ضمنه الكثير من آرائه . ومنهم بقي بن مخلد (ت ٢٧٦) الذي ملأ الأندلس حديثاً ورواية ، وقد أنكر عليه أصحابه الأندلسيون عبد الله بن خالد ومحمد ابن الحارث ما أدخله من كتب الاختلاف وغرائب الحديث ، وأغروا به السلطان وأخافوه به ^(٦) . ومنهم أيضاً يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن

-
- (١) ابن الفرضي ، قسم ٢ ص ١٨١ ترجمة رقم ١٥٥٨ .
 - (٢) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ٥١ ترجمة ١٢٣١ .
 - (٣) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ٩٤ ترجمة ١٣٦٣ .
 - (٤) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ١٩٢ ترجمة ١٥٩٧ .
 - (٥) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١١٥٤ .
 - (٦) ابن الفرضي ، قسم ١ ص ٣٥٥ ترجمة ١٠٤٩ - المقرئ ، ج ٢ ص ٢٥٦ .
 - (٧) ابن الفرضي ، قسم ١ ص ٩٢ ترجمة ٢٨٣ - المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ٣٧٣ .

الخزاز (ت ٢٩٥) (١) ، وهارون بن نصر (ت ٣٠٢) الذي صحب بقي ابن مخلد نحواً من ١٤ سنة وأكثر الرواية عنه ، وكان يميل إلى كتب الشافعي فعني بها وحفظها وتفقّه فيها ، وكان من أهل النظر والحجّة (٢) ، ومنهم عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن بن يحيى التجيبي القرطبي المعروف بابن الزيات (ت ٣٩٠) (٣) . وكان ابن حزم في بداية أمره شافعيّاً ، ثم أصبح ظاهريّاً بعد ذلك ، وجاهر بالأخذ بأهل الظاهر أتباع داود بن علي بن خلف العباسي (٤) . وقد أعلن ابن حزم ظاهريته في أبيات له نصّها :

وذي عدل فيمن سباني حسنه يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له: أسرفت في اللوم، فأتشد فعندي ردي لو أشاء طويل
ألم تر أني ظاهري ، وإنني على ما أرى حتى يقوم دليل (٥)

ومن أكبر فقهاء قرطبة من أهل الظاهر أيضاً منذر بن سعيد بن الله البلوطي (ت ٣٥٥) (٦) وأبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية (ت ٦٣٣) (٧) .

-
- (١) ابن الفرسي ، قسم ٢ ص ١٨٥ ترجمة ١٥٧٠ .
(٢) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ١٦٨ ترجمة ١٥٣١ .
(٣) نفسه ، قسم ١ ص ٢٤٧ ترجمة ٧٥٧ .
(٤) ابن سعيد ، ج ١ ص ٣٥٥ - المقري ، ج ٢ ص ٢٨٣ .
(٥) الحاجري ، ابن حزم صورة أندلسية ، ص ١١٩ - عبد الكريم خليفة ، ابن حزم الأندلسي ، حياته وأدبه ، بيروت ، ص ٦٨ .
(٦) ابن الفرسي ، قسم ٢ ص ١٤٤ ترجمة ١٤٥٤ - المقري ، ج ٢ ص ٣٠١ وما يليها .
(٧) المقري ، ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٧ .

التاريخ والجغرافية

أنجبت قرطبة عدداً من كبار المؤرخين في الأندلس من أقدمهم ^(١) ثلاث يحملون اسم الرازي اشتغلوا جميعاً بالكتابة التاريخية ، أولهم محمد بن موسى الرازي (ت ٢٧٣) الذي صنف « كتاب الرايات » ، وهو كتاب تاريخي وجغرافي ^(٢) ، وثانيهم أحمد بن محمد بن موسى الرازي الملقب بالتاريخي (ت ٣٢٤) الذي ألف كتابين أحدهما في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها على نحو ما كتبه ابن أبي طاهر في أخبار بغداد ^(٣) ، والثاني في أخبار ملوك الأندلس ، بقيت منه ترجمة إسبانية لمقدمة هذا الكتاب عنوانها : « Cronica del Moro Rasis » نقلت عن ترجمة برتغالية وضعها القس خيل بيريس Jil Perez بأمر ملك البرتغال دوف ديونيس (١٢٧٩-١٣٢٥) فأتمها بمساعدة نفر من المغاربة يسمى أحدهم « المعلم محمد » Maesc Mohamad ، وقد عثر في سنة ١٩٥٢ على أصل الترجمة الإسبانية لمقدمة الرازي ، فنشر الأستاذ ليفي بروفنسال ترجمته إلى الفرنسية مع محاولة جدية لاعادة جمع النص العربي ^(٤) من واقع المقتطفات الواردة في نص فرحة

(١) سبق آل الرازي مؤرخ أندلسي هو عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨) الذي لقب بعالم الأندلس ، ألف كتاباً عن فتح الأندلس ما زال مخطوطاً في مكتبة بودليان بأكسفورد اعتمد فيه على رواية مصريين ، وقد نشر الدكتور محمود مكي القسم الخاص بفتح الأندلس ذيلاً لمقالة بعنوان *Mahmud Makki, Egipto y los origines de la historiografia arabe espanola* ، في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بدمشق ، مجلد ٥ ، عدد ١ - ٢ ، ١٩٥٧ ص ١٥٧ - ٢٤٩ من القسم الأوروبي ، والنص العربي يشمل الصفحات من ٢٢١ إلى ٢٤٣ .
(٢) المقرئ ، ج ٤ ص ١٠٨ .

(٣) المقرئ ، ج ٤ ص ١٦٦ - جنثالث بالثيا ، ١٩٦٠ .

(٤) Lévi - Provençal, La Description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi; Essai de reconstitution de l'original arabe et traduction française, al - Andalus, vol. XVIII, fasc. I, Madrid, 1953, pp. 51 - 108

الأنفس لابن غالب ، والروض المعطار للحميري ، والمقتبس لابن حبان ، ونظام المرجان في المسالك والممالك للعذري ابن الدلائي . وثالث آل الرازي المؤرخين عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي الذي ألف كتباً في تاريخ الأندلس ، منها « تاريخ الأندلس » ، و « حجاب خلفاء الأندلس » (١) ، ويبدو أن هذا الكتاب الأخير كان تكملة لكتاب أحمد الرازي السالف الذكر . وقد كانت كتب أحمد الرازي ذات أثر كبير في التاريخ الإسباني الذي كتبه بدرودل كورال (القرن ١٦) في كتابه المعروف بالتاريخ العربي La Cronica Saracina (٢) .

وإلى جانب آل الرازي ، ظهر في عصر الخلافة عدد من كبار المؤرخين نذكر منهم أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية القرطبي (ت ٣٦٧) الذي كان حافظاً لأخبار الأندلس ، ملماً برواية سير أمراءها ، وله في ذلك كتاب عن فتح الأندلس عنوانه : « تاريخ افتتاح الأندلس » ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ الأندلس زمن الولاة وفي عصر الإمارة الأموية . كذلك نبغ في هذه الفترة من مؤرخي قرطبة عريب بن سعد (ت ٣٦٩) وكان قرطيبياً من أصل مسيحي ، وكتب مختصراً لكتاب تاريخ الطبري ، فيما يتعلق بأخبار المشرق من سنة ٢٨٩ الى ٣١٩ ضمنه أخبار المغرب والأندلس (٣) .

وأعظم من أنجبتهم قرطبة (في عصري الخلافة والطوائف) من المؤرخين بلا منازع الكاتب الكبير أبو مروان حبان بن خلف بن حبان المعروف

(١) جنثالث بالنشيا ، ص ١٩٨ .

(٢) جمال الدين الشيال ، التاريخ الاسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر

النهضة ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٣٨ .

(٣) جنثالث بالنشيا ، ص ٢٠٦ .

بابن حيان (ت ٤٦٩) ويمتبر أعظم مؤرخي الأندلس ، وشيخهم وإمامهم ، ويمتقد دكتور محمود مكي أن اتجاه ابن حيان إلى كتابة التاريخ إنما تولد من دقة إحساسه ، ونفاذ نظرته ، وقدرته الطبيعية على الاستيعاب ، وملكته النقدية المتأملة ^(١) ، وأهم ما صنّفه من كتب التاريخ أربعة هي : المقتبس ، والمتين ، وأخبار الدولة العامرية ، والبطشة الكبرى ، وكلها تؤلف ما يعرف باسم التاريخ الكبير لابن حيان الذي كان موضع اعتزاز ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس ^(٢) . ولم يتبق اليوم من كتبه إلا قطع من المقتبس ، نشر بعضها والبعض الآخر ما زال مخطوطاً ^(٣) . ومن كبار مؤرخي قرطبة في نفس الفترة الأديب الفيلسوف المؤرخ أبو محمد علي بن حزم القرطبي (ت ٤٥٤) الذي صنّف في التاريخ عدة مصنفات أهمها : كتاب جهرة أنساب العرب ^(٤) ، وكتاب نقط العروس ^(٥) .

واتجه عدد من مؤرخي قرطبة إلى التراجع في علماء الأندلس ، وأشهرهم أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣) الذي وضع كتاباً عن فقهاء قرطبة ^(٦) ، وأبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد الحشني (ت ٣٦١) مؤلف كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » الذي يعتبر من أهم مصادر دراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح حتى عصر الحكم ، وأخباره على حد قول ريبيرا مصوغة في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها

(١) محمود علي مكي ، تمهيد : للمقتبس من أنباء أهل الأندلس ، القاهرة ١٩٧١ ص ٢١ .

(٢) اللقري ، ج ٤ ص ١٦٧ .

(٣) راجع الدراسة العميقة التي أعدها الدكتور محمود علي مكي عن ابن حيان في مقدمة القطعة التي نشرها من عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط من ص ٧ إلى ١٢٨ ، وما ورد عنه في : Pons Boigues, Historiadores y Geograficos arabigo - espanoles, Madrid, 1926, p. 152

(٤) نشره الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، وطبعة ١٩٦٢ .

(٥) نشره الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥١ .

(٦) جنثالك بالنشيا ، ص ٢٦٧ .

كتاب غيره من كتب التاريخ أو الأدب^(١) ، ومنهم محمد بن عبد الله بن عبد البر المعروف بالكشكيتاني القرطبي (ت ٣٤١) الذي صنف كتاباً في الفقهاء والقضاة بقرطبة والأندلس ، ومنهم أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣) مؤلف كتاب تاريخ علماء الأندلس أقدم معجم لعلماء الأندلس وصل إلينا ، وعلى نسقه ألف أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود القرطبي المعروف بابن بشكوال (ت ٥٧٨) كتاب الصلة الذي أكمل به تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي .

أما في الجغرافية فإن قرطبة تزهى بأنها أنجبت عدداً من كبار الجغرافيين الأندلسيين ، منهم أحمد بن محمد الرازي الذي سبق أن تحدثنا عنه مؤرخاً ، وتلمذ الرازي على قاسم بن إصبع البياني (ت ٣٤٠) الذي قيل أنه اشترك مع الوليد بن خيزران في ترجمة كتاب تاريخ هروسيوس عن اللاتينية . وقد أفاد أحمد الرازي من هذه الترجمة وحذا حذوها في كتابه أخبار ملوك الأندلس ، إذ بدأه بمقدمة جغرافية هامة أتبعها بدراسة لتاريخ الأندلس ، وفي هذه المقدمة الجغرافية تأثر بهروسيوس في وصفه لجزيرة الأندلس كما تأثر ببطليموس في تصويره العام لشكل البلاد المثلث ، وأضاف إلى ذلك ما استطاع جمعه من مادة عن طريق السماع والمشاهدة^(٢) ، وقد اعتمد كثير من جغرافيين الأندلس على هذه الدراسة ، نذكر منهم البكري والادريسي وابن غالب .

ومن جغرافيين قرطبة المشهورين زمن الخلافة ، أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام ، وأبو عبيد الله البكري . والبكري هذا

(١) جنثالث بالثيا ، ص ٢٧٠ .

(٢) حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ص ٣٩ - عبد العزيز سالم ، التأريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ (راجع الفصل الخامس بالجغرافية في الأندلس) .

(ت ٤٨٧) هو أكبر جغرافي أنجبته الأندلس ، فقد ألف كتابين جليلين في الجغرافية أولهما « معجم ما استعجم » الذي يعد أول معجم جغرافي عربي وصل إلينا أورد فيه « جملة مما ورد في الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والأمصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة متعددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة »^(١) . أما كتابه الثاني الموسوم بالمسالك والممالك ، فقد وصلت إلينا منه قطعة كبيرة نشرها البارون دي سلان بعنوان « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب »^(٢) ، كما قام الدكتور عبد الرحمن الحجي بنشر النص المتعلق بالأندلس وأوروبا^(٣) . وعلى الرغم من أن البكري لم يبرح قط أرض الأندلس ، إلا أنه اعتمد على مصادر جغرافية عربية وإسبانية منها كتاب مسالك إفريقية وممالكها لأبي عبد الله محمد بن يوسف الوراق (٢٩١ - ٣٦٢) بينما يظن سيمونيت أنه اعتمد في وصف بعض النواحي على إيزودور الإشبيلي في كتابه أصول الكلمات ، إذ أن وصفه لجزائر فرطناطش *islas Fortunatas* المعروفة بالسعادات أو جزر كنارياس يبدو وكأنه مأخوذ عن إيزودور^(٤) .

(٥)

الرياضيات والطب والصيدلة

يرتبط علم الطب والصيدلة ارتباطاً وثيقاً في العصور الوسطى بالرياضيات

-
- (١) البكري ، معجم ما استعجم ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، ج ١ القاهرة ١٩٤٥ ، ص ١٠٣ .
 (٢) نشر في الجزائر سنة ١٩١١ .
 (٣) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨ .
 (٤) جنثال بالثيا ، ص ٣١١ .

والفلسفة والفلك والهندسة ، ولذلك ما يجمع كثيراً العلماء بين هذه العلوم ويصعب علينا أن نفرق الرياضي منهم من الطبيب أو الصيدلاني. ولقد أنجبت قرطبة عدداً كبيراً من العلماء في كافة العلوم العقلية ، وكانت مركزاً لدراسات الطب والهندسة في سائر الأندلس ؛ ففيها ظهرت أعظم مجموعة من الأطباء والصيدلة الذين كانوا يؤلفون مدرسة في علم الطب والعقاقير . وكان أهل الأندلس منذ الفتح حتى عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية في الأندلس يعولون في الطب ، على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له الإبريشم ومعناه المجموع أو الجامع ، وكان قوم من النصارى يتطربون ، ولم تكن لهم بصارة بصناعة الطب والفلسفة والهندسة في أيام عبد الرحمن ابن الحكم^(١). ثم تقدم الطب في أيام الأمير محمد ، ومع ذلك فلم تكن هناك حركة تأليف في الطب والرياضيات إلى أن كانت دولة عبد الرحمن الناصر ، « فتتايعت الخيرات في أيامه » ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم . وقامت الهمة ، وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين^(٢) . ويعتبر عصر الناصر أزهي عصور قرطبة في العلوم الرياضية وخاصة الطب . ويعبر ابن أبي أصيبعة عن هذا الازدهار ، عندما يشير نقلاً عن ابن جليل إلى وصول الراهب نقولا إلى قرطبة من قبل الامبراطور البيزنطي رومانوس في سنة ٣٤٠ هـ وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية ، وكان أبجثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب إلى الملك عبد الرحمن الناصر ، حسداي ابن بشرط الاسرائيلي ، ... وكان في ذلك الوقت من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب وتعيين أشخاصه محمد المعروف بالشجار (عالم النبات) ، ورجل كان يعرف بالبسباسي

(١) سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جليل ، طبقات الأطباء والمحكماء ، تحقيق الأستاذ فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٩٢ .
(٢) ابن جليل ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

وأبو عثمان الجزار الملقب باليابسة ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبد الرحمن ابن إسحق بن هيثم ، وأبو عبد الله الصقلي ، وكان يتكلم باليونانية ويعرف أشخاص الأدوية .

قال ابن جليل : وكان هؤلاء النفر كلهم في زمان واحد مع نقولا الراهب أدركته ، وأدركت نقولا الراهب في أيام المستنصر ، وصحبته في أيام المستنصر الحكم . وفي صدر دولته مات نقولا الراهب ، فصح ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ، ما أزال الشك فيها عن القلوب ، وأرجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها ، وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذي لا بال به ، ولا خطر له ، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية ، (١) .

وهكذا ازدهر الطب والصيدلة بقرطبة ازدهاراً دعا الحكم المستنصر إلى إنشاء ديوان الأطباء ، يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ويزاولها ، فإذا ما ارتكب خطأ يتوجب العقاب أسقط اسمه من الديوان ، كما حدث بالنسبة للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون الذي لازم الحاجب جعفر الصقلي ، فلما سجن جعفر وسقطت منزلته ثم مات ، أسقط صاحبه الطبيب « من ديوان الأطباء ، وبقي نمولاً إلى أن توفي » ، (٢) .

وفتحت قرطبة أبوابها للدارسين والباحثين والعلماء في الطب والرياضيات ، من جميع أنحاء الأندلس أمثال ابن البغونش الطليطلي الذي قدم الى قرطبة لطلب العلم بها ، « فأخذ عن مسلمة بن أحمد علم العدد والهندسة » ، وعن محمد ابن عبدون الجبلي ، وسليمان ابن جليل ، وابن الشناعة ونظرائهم علم الطب ،

(١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٩٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٩٢ .

ثم عاد إلى طليطلة ،^(١) . وفي عصر الحكم تولى أحمد بن أحمد الحرائي الطبيب إقامة خزانة بالقصر للطب لم يكن قط مثلها ، رتب لها ١٢ صبياً من الصقالبة لتجهيز الأدوية المركبة والممجنونات^(٢) .

ومن أقدم العلماء في الحساب والنجوم بقرطبة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي القرطبي المعروف بصاحب القبلة (ت ٢٩٥)^(٣) ، ويحيى بن يحيى المعروف بابن السميني القرطبي (ت ٣١٥) ، وكان بصيراً بالحساب والنجوم والطب متصرفاً في العلوم^(٤) ، ومسلمة بن القاسم القرطبي (ت ٣٥٣) ومحمد بن عبدون الجبلي العدوي العذري الذي اشتغل بالحساب والهندسة في أيام الحكم المستنصر^(٥) ، وقد رحل إلى البصرة في سنة ٣٤٧ وأقام حيناً بالفسطاط ودبر بيارستانها^(٦) ، ثم عاد إلى الأندلس في سنة ٣٦٠ ، وخدم الحكم المستنصر والمؤيد بعلمه في الطب . وبرع أبو القاسم إصبنغ بن محمد بن السمح المهندس (ت ٤٢٦) في علم النجوم والهندسة والعدد ، وألف في ذلك عدداً من الكتب منها كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس ، ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بالمعاملات ، ومنها كتاب طبيعة العدد ، وكتابه الكبير في الهندسة ، وكتابان في الأسطرلاب أحدهما في التعريف بصورة صنعتها والآخر في العمل بها والتعريف بجوامع ثمرتها^(٧) .

ومن أعظم علماء الرياضة بقرطبة في عصر الخلافة الأموية أبو القاسم مسلمة

(١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٩٥ .

(٢) ابن جلجل ، ص ١١٣ .

(٣) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ترجمة رقم ١٤٢٠ ص ١٢٦ .

(٤) نفسه ، ترجمة ١٥٨٠ قسم ٢ ص ١٨٨ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٢ .

(٥) ابن جلجل ، ص ١١٥ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٢ - المقرئ ، ج ٢ ص ٣٥١ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٢ - المقرئ ، ج ٢ ص ٣٥١ .

(٧) ابن أبي أصيبعة ص ٤٨٣ .

ابن أحمد المرجيطي القرطبي (ت ٣٩٨) وكان « إمام الرياضيين » بالأندلس في زمن الحكم، وأعلم من سبقه في علم الأفلاك وحركات النجوم ، واهتم بإرصاد الكواكب ، وشغف بدراسة كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي . وقد صنف عدداً من الكتب منها كتاب في علم العدد المعروف في الأندلس بالمعاملات ، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيغ البتاني ، وعن زيغ محمد بن موسى الخوارزمي ، وحمل تاريخه من الفارسي إلى العربي ، ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة ، وزاد فيه جداول^(١) . وقد تعلم عليه عدد كبير من التلاميذ في الأندلس من أشهرهم ابن السمح المهندس (ت ٤٢٦) ، وابن الصفار المهندس المنجم ، والزهرابي القرطبي المهندس الطبيب ، والكرماني المهندس ، وابن خلدون الأشبيلي المهندس الطبيب ، وابن الحياط ، وابن البغونش ، وجميعهم درسوا عليه الهندسة والعدد . أما ابن السمح فقد تحدثنا عنه ، وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله ابن همر ، وكان عالماً بالعدد والهندسة والنجوم ، وأقام بقرطبة حيناً ليتعلم ذلك على يد أستاذه ، ثم خرج من قرطبة عندما اجتاحتها الفتنة واستقر بدانية بشرق الأندلس . وقد ألف كتاباً في العمل بالاسطرلاب^(٢) . ومن تلامذته أخوه محمد بن الصفار الذي عمل اسطرلاباً رائعاً . وأما أبو الحسن علي بن سليمان الزهرابي فقد كان عالماً بالعدد والهندسة والطب ، وألف كتاباً في المعاملات على طريق البرهان ، وهو الكتاب المسمى بكتاب الأركان^(٣) . أما الكرماني ، فهو أبو الحكم عمرو بن أحمد بن علي الكرماني القرطبي (ت ٤٥٨) وكان أحد الراسخين في علم العدد والهندسة ، وقد ذكر تلميذه محمد بن الحسن بن يحيى المهندس المنجم أنه « ما لقي أحداً يجاربه في

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٣ - القفطي ، تاريخ الحكماء ، تحقيق جوليوس ليبيرت ، لينزج

١٩٠٣ ، ص ٣٢٦ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٤ .

(٣) نفسه ، ص ٤٨٤ .

علم الهندسة ، ولا يشق غباره في فك غامضها وتبين مشكلها واستيفاء أجزائها . وقد رحل إلى المشرق وطاف في أقطاره ثم عاد إلى الأندلس ، واستقر بسر قسطة ^(١) . وأما ابن الحياط ، فهو أبو بكر يحيى بن أحمد (ت ٤٤٧) ، برع في النجوم واشتهر بعلمها ، وخدم بها سليمان بن حكم بن الناصر زمن الفتنة ^(٢) . وابن البغونش هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش الطليطلي ، رحل إلى قرطبة وأخذ عن مسلمة علم العدد والهندسة ، ثم عاد إلى بلده ، واتصل بأمرها الظاهر إسماعيل بن ذي النون ^(٣) .

وأول من اشتغل بالطب في الأندلس جماعة من المعاهدة المتطبيين منهم : خالد بن يزيد بن رومان النصراني ، وكان بارعاً في الطب في زمن الأمير محمد ، كما كان يصنع بيده الأدوية الشجارية ^(٤) ، وجواد النصراني ، وكان في أيام الأمير محمد ، وينسب إليه اللعوق ودواء الراهب والبسوقات المنسوبة إليه . وإلى حمد بن أبا ^(٥) ، وحمد بن أبا هذا كان طبيباً حاذقاً مجرباً ، نبغ في أيام الأمير محمد ، وإليه تنسب بعض السفوفات ^(٦) ، ومنهم ابن ملوكة النصراني الذي اشتهر في أيام الأمير عبد الله وأول دولة الناصر ، وكان يصنع الأدوية بنفسه ، ويفصد العروق ^(٧) . ومنهم اسحق الطبيب ، وكان مسيحي النحلة ، أقام بقرطبة في عهد الأمير عبد الله ، وكان يصنع الأدوية بنفسه ^(٨) .

وأول من اشتهر بالطب في الأندلس من المسلمين في عهد الأمير محمد أحمد

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٤ .

(٢) نفسه ، ص ٤٩٧ - جنتالك بالنبيا ، ص ٤٥٠ .

(٣) نفسه ، ص ٤٩٥ .

(٤) ابن جلجل ، ص ٩٦ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٥ .

(٥) ابن جلجل ، ص ٩٣ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٥ .

(٦) نفسه ، ص ٩٣ .

(٧) نفسه ، ص ٩٧ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٦ .

(٨) ابن جلجل ، ص ٩٨ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٨ .

ابن إياس القرطبي ونبغ بعده كثيرون من أهل قرطبة ، منهم محمد بن فتح طملون الذي برع في الطب براعة علا بها عن أسلافه ، واختص بعمل المراهم لعلاج القروح^(١) . وفي عصر عبد الرحمن الناصر تألفت شخصيات عديدة في علم الطب والصيدلة اشتغل معظمهم في خدمة الخليفة ومعالجة كرائمه وحرمه ، نذكر منهم : يحيى بن اسحق النصراني^(٢) طبيب عبد الرحمن الناصر الخاص ، وكان ذكياً بصيراً بالعلاج ، يصنع الأدوية بنفسه ، وقد حظى بثقة الناصر بحيث استوزره وجعله طبيبه وطبيب حرمه وكرائمه . وقد ألف كتاباً في الطب يشتمل على ٥ أسفار يسمى الأبريشم^(٣) ، ومنهم عمران بن أبي عمر ، وكان من أطباء عبد الرحمن الناصر ، وألف له حب الأنيسون^(٤) ، ومنهم أبو بكر سليمان بن تاج ، وكان من أطباء الناصر ، عالج من رمد عرض له من يومه بشياف (مرهم) كما عالج صاحب البرد من ضيق التنفس بلعوق لمقه فبراً من يومه بعد أن أعيا علاجه الأطباء ، وكان يعالج آلام الحضر بحب من حبه فيبراً المريض على الأثر^(٥) ، ومنهم ابن أم البنين القرطبي الذي خدم الناصر بصناعة الطب ، وكان ينادمه^(٦) ، ومنهم الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد مصنف الأدوية المفردة ، وكان على حد قول المقرئ آية الله تعالى في الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع ما في كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها . وكان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن ، بل بالأغذية أو ما يقرب منها ، وإذا اضطر إلى الأدوية فلا يرى التداوي بالمركبة ما وجد سبيلاً إلى المفردة ، وإذا اضطر إلى المركب لم

(١) ابن جلجل ، ص ٩٩ - ابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦ .

(٢) أسلم فيما بعد .

(٣) ابن جلجل ، ص ١٠١ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٨ .

(٤) نفسه ص ٩٨ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٦ .

(٥) نفسه ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٩ .

(٦) ابن جلجل ص ١٠٣ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٩ .

يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة في الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه ، ، ومنهم أبو عثمان سعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه ، وكان طبيباً مجيداً ، وله في الطب أرجوزة كما كان له بصر بحركات الكواكب وطبائعها ومهاب الرياح ، وكتب في الصيدلية كتاباً بعنوان « الاقرباديين » (١) . ومن أطباء الناصر أيضاً أبو حفص عمر بن حفص بن برتق (٢) ، وإصبنغ بن يحيى (٣) وحسداي ابن شبروط اليهودي الذي أرسله الخليفة الناصر إلى شاذلي السمين ليعالجه من سمته المفرطة (٤) . ومن أطباء قرطبة الذين دخلوا في خدمة كل من الناصر والمستنصر ، أبو الوليد محمد بن الحسين بن الكتاني ، ونبغ من بعده ابن أخيه أبو عبد الله محمد الكتاني الذي خدم المنصور وابنه المظفر (٥) ، ومنهم أبو موسي هارون الأشوني ، وكان من شيوخ الأطباء (٦) ، ومحمد بن تليخ الذي خدم الناصر وأدرك فترة من عصر الحكم ، وكان حظياً عند الحكم فولاه النظر في زيادته يجمع قرطبة ، وله من الكتب كتاب في الطب وكتاب الأشكال (٧) .

وفي عصر الحكم برز أحمد بن أحمد بن يونس الحراني ، وكان أبوه قد وفد من الشرق أيام الأمير محمد . ورحل أحمد وأخوه عمر إلى المشرق زمن الناصر ثم عادا إلى الأندلس في سنة ٣٥١ ، فألحقها الحكم بخدمته بالطب وأسكنها مدينة الزهراء ، واستخلصها دون غيرها من الأطباء . ولما توفي عمر قرَّب المستنصر أحمد منه وأدناه إليه ، ورفع منزلته ، وأسكنه في قصره بالزهراء

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٩ .

(٢) ابن جليل ، ص ١٠٧ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٠ .

(٣) ابن جليل ، ص ١٠٨ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩١ .

(٤) المقري ، ج ١ ص ٣٤٢ .

(٥) ابن جليل ص ١٠٩ - ابن أبي أصيبعة ص ٤٩١ .

(٦) ابن جليل ، ص ١١٢ .

(٧) نفسه ، ص ١٠٨ - ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩١ .

واتخذ طيبه الخاص وطبيب أسرته لثقتة فيه. وكان المستنصر نها في الأكل، كثيراً ما يصاب بالتخمة، فكان أحمد يصنع له الجوارشات الحارة العجيبة. وكان أحمد هذا بصيراً بالأدوية المفردة وصانعاً للأشربة والمعجونات^(١). ومن أطباء الحكم حسداي بن اسحق اليهودي^(٢)، واحمد بن حكيم بن حفصون^(٣). وفي عصر الحكم ذاعت شهرة الطبيب العالم الجراح أبو القاسم الزهراوي^(٤) الذي اتخذ الحكم أيضاً طبيباً خاصاً له، وكان يعرف عند اللاتين باسم ابولكاسيس Abulcasis تحريفاً من أبي القاسم، و Alsaharavius تحريفاً من الزهراوي (ت ٤٠٣)، وكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، وله تصانيف في صناعة الطب أفضلها كتابه المعروف بالزهراوي، وله كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وقد ترجمه جيراردو دي كريمونا الى اللاتينية بعنوان Liber Servitoris، كما ترجم جيدو دي كاولياك كتاب الزهراوي في الجراحة إلى اللاتينية سنة ١٤٧٩ بعنوان Chirurgia Parva^(٥).

وفي عصر هشام المؤيد ظهر عالمان في الطب، أحدهما أبو بكر أحمد بن جابر الذي خدم المستنصر بالطب وأدرك صدرأ من دولة المؤيد^(٦)، والثاني أبو داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل (ت بعد ٣٨٤) وقد عاصر كل من الناصر والمستنصر وصدرأ من المؤيد، واشتهر في عهد المؤيد، فاتخذ طيبه الخاص، وألف في عهده أثر كتبه، وكان خبيراً بالأدوية المفردة، وكان قد فسر لها من كتاب ديسقوريدس وأفصح عن مكنونها، وأوضح مستغلق مضمونها،

(١) ابن جلجل، ص ١١٢، ١١٣ - ابن أبي أصيبعة ص ٤٨١.

(٢) ابن أبي أصيبعة، ص ٤٩٨.

(٣) نفسه، ص ٤٩٢.

(٤) ذكره ابن أبي أصيبعة باسم خلف بن عباس الزهراوي (ص ٥٠١).

(٥) A. Gonzalez Palencia, Moros y Cristianos en Espana Medieval, Madrid. 1945

(٦) ابن جلجل، ص ١١٠ - ابن أبي أصيبعة، ص ٤٩٢.

ويعبر عن ذلك بقوله : « وكانت لي معرفة في تصحيح هيولي الطب الذي هو أصل الأدوية المركبة حرص شديد وبحث ، حتى وهبني الله من ذلك بفضل به قدر ما اطلع من نيتي في إحياء ما خفت يدرس وتذهب منفعتي » (١) .

وله من الكتب :

١ - كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس (ألفه سنة ٣٧٢ بمدينة قرطبة في دولة هشام المؤيد) (٢) .

٢ - مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به وما لا يستعمل لكيلا يغفل ذكره .

٣ - رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين .

٤ - كتاب يتضمن ذكر شيء من أخبار الأطباء والفلاسفة .

ومن مشاهير الأطباء القرطبيين والصيدادلة في عصر الطوائف أبو عبيد الله البكري الجفرافي الذي كانت له معرفة بالأدوية المفردة وقواها ومنافعها وأسمائها ونعوتها ، وقد ألف في الحشائش كتاب « أعيان النبات والشجريات الأندلسية » (٣) ، وعبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم القرطبي الصيدلاني ، وينسب له من الكتب : كتاب الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة - كتاب الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد ، وكتاب الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء ، وكتاب السمائم . ومنهم الكرماني الطبيب المهندس

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٤ .

(٢) وصلت إلينا ترجمة لكتاب ديسقوريدس بعنوان كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس ترجمة مهران بن منصور بن مهران ، نشره دكتور صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٦٥ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ، ص ٥٠٠ .

الذي كان جراحاً ، اشتهر في القطع والشق والبطن وغير ذلك من أعمال الصناعة الطبية (١) .

وفي عصر الموحدين بلغ الطب في الأندلس ذروة تقدمه ، وساهمت قرطبة التي فقدت مكانتها العلمية في عهد الفتنة في هذه الحركة ، فظهر من أبنائها الطبيب الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي (ت ٥٥٩) ، وكان متميزاً بالطب وله فيه كتاب الكليات ، الذي أجساد في تأليفه ، وكان ابن رشد يؤمن بالتشريح ، ويقول : « من اشتغل بالتشريح ازداد إيماناً بالله » (٢) ، ومن تلاميذه أبو عبد الله محمد بن سحنون القرطبي ، وأبو جعفر أحمد بن سابق القرطبي وأبو محمد عبد الله بن أبي الوليد محمد ابن رشد .

(٦)

الفلسفة

لم يكن للأندلسيين في العصر الأموي حظ كبير من الفلسفة ، فقد كان جل اهتمامهم منصرفاً إلى العلوم الدينية واللغوية من جهة ، والطب والهندسة والفلك من جهة ثانية . وكانت الفلسفة موضع اضطهاد ونفور ، لأنها تبيح التفكير في الوجود والعدم ، وتدعو إلى اصطناع عبارات من منازل الملحين . ويذكر المقرئ أن كل العلوم كان لها عند الأندلسيين حظ كبير واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، « فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهرون بهما خوف

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٣١ .

العامّة ... فإنه كلما قبل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلق عليه اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فإن زل في شبهة رجوه بالحجارة وأحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامّة ، وكثيراً ما كان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ،^(١) .

وأول من عرف بالاشتغال بالفلسفة في الأندلس أبو عبدالله محمد بن عبدالله ابن مسرة القرطبي الباطني (ت ٣١٩) ، وهو أول مفكر أصيل أنجبته قرطبة ، وكان يستر آراءه وراء ستار من آراء المعتزلة والباطنية ، وتنمكس في مذهبه الحقيقي آراء الأفلاطونية الحديثة^(٢) ، وقوامها الأفكار التي قال بها فيلون الاسكندري وأفلوطين وقرفوروس الصوري وبروقلس ونسبت إلى انبذوقليس ، وتعتمد على وجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية ، واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية^(٣) . واتهم ابن مسرة بالزندقة ، فخرج فاراً من الأندلس وتروّد بالمشرق فترة اشتغل خلالها بملافاة أهل الجدل وأصحاب الكلام ، ثم انصرف عائداً إلى الأندلس ، فأظهر نسكاً وورعاً ، واغتر الناس بظاهره فاختلفوا إليه وسمعوا منه ، ثم اتضح لهم سوء معتقده^(٤) ، فأمر عبد الرحمن الناصر بإحراق كتبه ، خارج باب قرطبة . وخلف ابن مسرة تلاميذ حملوا لواء آرائه من بعده من بينهم رشيد بن فتح الدجاج القرطبي الذي اتهم بمذهب ابن مسرة (ت ٣٧٦)^(٥) ، والياس بن يوسف

(١) المقري ، ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢) جنثالث بالنبيا ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ص ٤٠ ، ترجمة رقم ١٢٠٤ .

(٥) نفس المصدر ، قسم ١ ، ص ١٤٧ ، ترجمة رقم ٤٣٩ .

الطليطلي، و خليل بن عبد الملك^(١)، ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي. ولكن الحملة ضد أصحاب ابن مسرة ازدادت شدة في عهد المنصور بن أبي عامر الذي كان يتظاهر بالدين في سبيل دعم سلطانه ، فأحرق في بداية توليه الحجابة كثيراً من كتب الفلسفة^(٢) ، فتفرق أصحاب المدرسة المسرية في أقطار الأندلس .

ومع ذلك فقد اشتغل بعض المفكرين والعلماء بالفلسفة في زمن الحكم المستنصر بجانب اشتغالهم بالطب ، ومنهم أحمد بن حكيم بن حفصون ، وأبو بكر أحمد بن جابر ، وأبو عبد الله محمد بن الحسين الكتاني الذي اهتم بالمنطق والفلسفة .

ثم ازدهرت الفلسفة في عصر الموحدين ، وعلى الأخص في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ازدهاراً منقطع النظير، وبرز في قرطبة فيلسوف عظيم هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الحفيد ، الذي عرف عند الأوربيين باسم Averroes . وكان أبو يعقوب يوسف محباً للفلسفة مقبلاً عليها، فجمع كثيراً من مؤلفاتها ، واحتضن من الفلاسفة ابن رشد وابن طفيل^(٣) . وكان أبو يوسف يعقوب المنصور يعظمه ويقربه إليه ، فكان مكيناً عنده وعند ولده الناصر ، ثم تقم عليه ونالت ابن رشد على يديه محنة شديدة : فقد أبعده الخليفة من حضرته ، ونفاه في اليسانة ، ومنعه أن يخرج منها ، وأحرق جميع كتبه في الفلسفة ، ثم عفا عنه في سنة ٥٩٥ هـ ، واستدعاه إلى حضرته

(١) احسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٥٢ - ٥٨ .

(٢) القرني ، ج ١ ص ٢٠٥ . وكذلك أحرق أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي كتب الفلسفة جميعها باستثناء الطب والحساب (المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٨٥) .

(٣) المراكشي ، المعجب ، طبعة القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣١٤ .

بمراكش حيث توفي في نفس العام . ويعمل المؤرخون سبب غضبه عليه بأنه ألّف كتاباً في الحيوان ذكر فيه الزرافة ، وقال : « وقد رأيت الزرافة عند ملك البربر » يعني المنصور الموحيدي ، فلما بلغ ذلك الخليفة ، نقم عليه . وذكروا أن ابن رشد اعتذر عن ذلك بأنه كان يقصد ملك البربر^(١) . ويعتبر ابن رشد من أجلّ فلاسفة الإسلام وأعظم ملخصي فلسفة أرسطوطاليس وشارحيها^(٢) ، فقد كانت شروحه لفلسفة أرسطو في المنطق وما وراء الطبيعة الأساس الذي قامت عليه الأفكار الفلسفية الأوربية . في عصر النهضة^(٣) . وكان لابن رشد من المؤلفات ما يقرب من ٧٨ كتاباً في الفقه والفلسفة والطب ، منها : شروح مؤلفات أرسطو ، وقد ترجمت إلى اللاتينية ، ولم يبق منها سوى كتاب الكليات الذي ما يزال مخطوطاً بالمكتبة الأهلية بمديريد ، ويضم عدة رسائل ترجم منها الأب كارلوس كيروس رسالة ما وراء الطبيعة إلى الاسبانية في سنة ١٩١٩ . أما كتابه تهافت التهافت الذي كان يعرف في العصور الوسطى باسم Destructio Destructionis فقد ألّفه رداً على تهافت الفلاسفة للغزالي ، وله كتاب المقدمات في الفلسفة محفوظ اليوم بمكتبة الاسكوريال ، وكتاب اتصال العقل الفعال بالإنسان نشره الأب

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٥٣١ - ابن عبد الواحد المراكشي ص ٣٨٤ . وراجع أيضاً في أسباب نكبة ابن رشد : ارنت رينان ، ابن رشد والرشدية ، تعريب الأستاذ عادل زعيرة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٩ - ٤١ .

(٢) عبر ابن رشد عن إعجابه بأرسطوطاليس بقوله في مقدمة كتاب الطبيعيات : « إن مؤلف هذا الكتاب هو أعقسل اليونان أرسطوطاليس بن نيقوماخس الذي وضع علوم المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة ، وأكملها » . وقال في كتاب آخر : « نحمد حمداً لا حد له ذاك الذي اختار هذا الرجل للكمال فوضعه في أعلى درجات الفضل البشري التي لم يستطع أن يبلغها أي رجل في أي عصر كان » . وقال ابن رشد أيضاً في كتابه تهافت التهافت : « إن مذهب أرسطو هو الحقيقة المطلقة ، وذلك لبلوغ عقله أقصى حدود العقل البشري ، ولذا فإن من الحق أن يقال عنه إن العناية الإلهية أنعمت به علينا لتعليمنا ما يمكن أن نتعلم ... » (راجع ابن رشد والرشدية ، ص ١٠ ، ٧٢ .

(٣) جودة الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص ٧٢ .

مورافا مع ترجمة له بالاسبانية في سنة ١٩٢٣^(١) . وقد تناولت فلسفة ابن رشد عدة مسائل تتدرج من أصل الكائنات إلى اتصال الكون بالخالق وعلاقة الإنسان به ، ثم المادة وخلق العالم^(٢) . ولقد اصطدمت آراء ابن رشد بمعارضة شديدة من رجال الاكليروس ، وكان من أشد خصومها القديس توما الأكويني^(٣) ، وريمون مرتيني^(٤) ، ودانتي^(٥) ، وريموندو لوليو^(٦) ، بينما تقبل آراؤه أتباع المدرسة الفرنسيسكية أمثال اسكندر الهالسي ، وروجر بيكون ، وسيجردي برفانتي في جامعة باريس .

تم بعون الله

(١) جنثالث بالثيا ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٢) نفس المرجع - لطفي عبد البديع ص ٥٤ .

(٣) ارنت رينان ، ص ٢٤٨ - ٢٥٧ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٥٨ .

(٥) ارنت رينان ، ص ٢٦٠ .

(٦) يقول رينان : « يعتبر ريمون لول بطل هذه الحرب الصليبية ضد الرشدية ، فالرشدية عنده هي الإسلام في حقل الفلسفة ، ومن المعلوم أن هدم الإسلام كان حلم جميع حياته » (رينان ، ص ٢٦٧) .

قائمة المراجع

مراجع الكتاب

أولاً - مصادر يونانية

- ١ - سديسقوريدس: كتاب الحشائش والأدوية ، ترجمة مهران بن منصور بن مهران ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٦٥ .

ثانياً - مصادر عربية

- ٢ - ابن الأبار : (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله القضاعي) كتاب التكملة لكتاب الصلاة ، تحقيق فرنسكو كوديرة ، مدريد ، ١٨٨٦ .
- ٣ - الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٤ - كتاب التكملة لكتاب الصلاة ، ملحق نشره جنثال بالنيشيا ، في كتابه Miscelanea de estudios y textos arabes, Madrid 1915
- ٥ - ابن الأثير : (علي بن أحمد بن أبي الكرم) : كتاب الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، وطبعة ليدن ١٨٦٧ .

- ٦ - الإدريسي : (الشريف محمد بن عبد العزيز) : صفة المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره دوزي ودي غوية ، ليدن ١٧٦٦ ووصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، نشره الفريد ديسيه لآمار مع الترجمة الفرنسية ، الجزائر ، ١٩٤٩ .
- ٧ - ابن أبي أصيبعة : (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، نشره الدكتور تزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- ٨ - الاصفهاني : (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي) : الأغاني ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ .
- ٩ - الأعشي : ديوان الأعشي الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتحقيق الدكتور محمد محمد حسين ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ١٠ - ابن بسام : (أبو الحسن علي الشنتري) : كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول من المجلد الأول ، القاهرة ١٩٣٩ ، والقسم الأول من المجلد الثاني ، القاهرة ١٩٤٢ ، والقسم الرابع من المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
- ١١ - ابن بشكوال : (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس نشره فرثنسكو كوديرة ، في جزأين ، مدريد ، ١٨٨٣ وطبعة القاهرة ١٩٦٦ (مجموعة تراثنا) .
- ١٢ - ابن بطوطة : (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي) : رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ .

- ١٣ - البكري : (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) : كتاب المغرب
في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، من كتاب
الممالك والممالك ، نشره دي سلان ، الجزائر ١٩١١ .
- ١٤ - : : جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك
والممالك ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ،
بيروت ، ١٩٦٨ .
- ١٥ - : : معجم ما استمعهم ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ،
القاهرة ، ١٩٤٥ .
- ١٦ - ابن تغري بردي : (جمال الدين أبي المحسن يوسف الأتابكي) :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،
القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ١٧ - ابن جبير : (أبو الحسين محمد بن أحمد) : رحلة ابن جبير ،
تحقيق وليم رايت ، لندن ، ١٩٠٧ .
- ١٨ - الجزائري : (أبو الحسن علي) : كتاب زهرة الآس في بناء
مدينة فاس ، نشره الفريد بل ، الجزائر ، ١٩٢٢ .
- ١٩ - ابن جليل : (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي) : طبقات
الأطباء والحكام ، تحقيق الأستاذ فؤاد السيد ،
القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ٢٠ - ابن حزم : (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) : جمهرة
أنساب العرب ، نشره الأستاذ ليفي بروفنسال ،
القاهرة ١٩٤٨ ، وطبعة ١٩٦٢ .
- ٢١ - : : كتاب طوق الحمامة في الألفة والآلاف ، نشره
مع الترجمة الفرنسية الأستاذ ليون برشيه ،
الجزائر ، ١٩٤٩ ، وطبعة بيروت (دار الحياة) .

- ٢٢ - ابن حزم : نقط العروس ، نشره الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥١ .
- ٢٣ - الحميدي : (أبو عبد الله محمد بن فتوح) : جذوة المقتبس في ذكر رجال الأندلس ، تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧١ هـ ، وطبعة القاهرة ١٩٦٦ .
- ٢٤ - الحميري : (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .
- ٢٥ - ابن حوقل النصيبى : (أبو القاسم محمد بن علي) كتاب صورة الأرض ، نشر دار الحياة بيروت ، ١٩٦٣ .
- ٢٦ - ابن حيان : (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي) : كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس : أربع قطع ، قطعة خاصة بمهد الأمير عبد الله نشرها الأب ملشور أنطونيا ، باريس ١٩٣٧ - وقطعة خاصة بالمستنصر بالله نشرها الدكتور عبد الرحمن الحجي ، بيروت ، ١٩٦٥ - وقطعة خاصة بالسنين الأخيرة من عصر عبد الرحمن الأوسط ، نشرها الدكتور محمود علي مكي ، القاهرة ١٩٧١ - وقطعة خاصة بالأمير محمد بن عبد الرحمن (تحت الطبع) ونصوص خاصة بزيادة عبد الرحمن الأوسط في جامع قرطبة نشرها الأستاذ ليفي بروفنسال مجلة Arabica ، مجلد ١ ، قسم ١ ، لندن ١٩٥٤ .

- ٢٧ - ابن خاقان : (الفتح) : مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح
أهل الأندلس ، قسنطينة ، ١٣٠٢ هـ .
- ٢٨ - » : : قلائد العقيان في محاسن الاعيان ، طبعة القاهرة ،
١٣٢٠ هـ .
- ٢٩ - الحشني : (أبو عبد الله محمد) : تاريخ قضاة قرطبة ،
نشره خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩١٤ .
- ٣٠ - الخطيب : (زين الدين بن تقي الدين) : محاسن المساعي في
مناقب الإمام أبي عمرو الاوزاعي نشرها الأمير
شكيب أرسلان ، بيروت ١٩٦٧ .
- ٢١ - ابن الخطيب : (لسان الدين أبو عبد الله محمد) : كتاب أعمال
الاعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ .
- ٣٢ - ابن الخطيب : نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب ، تحقيق الدكتور
أحمد مختار العبادي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٣٣ - ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان
المبتدأ والخبر ، الجزء الأول ، (المقدمة) طبعة
بيروت ١٩٦١ وبقية الأجزاء طبعة بيروت ، وطبعة
بولاق ١٢٨٤ هـ .
- ٣٤ - ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم) :
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمسان ، طبعة
محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ٣٥ - ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب ، تحقيق الأستاذ
مصطفى عوض الكريم ، الخرطوم ، ١٩٥٤ .
- ٣٦ - ابن دراج القسطلي : ديوان ابن دراج القسطلي ، نشر وتحقيق الدكتور
عمود علي مكي ، دمشق ، ١٩٦١ .

- ٣٧ - ابن أبي زرع : (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) : كتاب
روض القرطاس ، نشره تورنبرج ، أبسال ، ١٨٣٩ .
- ٣٨ - ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ، نشره الأستاذ كامل كيلاني ،
القاهرة ١٩٣٢ .
- ٣٩ - الزيري : (الأمير عبد الله بن بلكين) : مذكرات الأمير
عبد الله المسماة بكتاب التبيان ، نشره ليفي
بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ٤٠ - ابن سعيد المغربي : (علي بن موسى) : المغرب في حلى المغرب ،
تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، خزآن ، القاهرة ،
١٩٥٣ .
- ٤١ - السموودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، القاهرة ،
١٣٢٦ هـ .
- ٤٢ - ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق الدكتور
جودة الركابي ، دمشق ١٩٤٩ .
- ٤٣ - ابن الشباط : (محمد بن علي بن محمد المصري التوزري) :
صلة السمط وسمة المرط ، تحقيق الدكتور أحمد
مختار العبادي ، مدريد ١٩٧١ .
- ٤٤ - الشقندي : (أبو الوليد اسماعيل بن محمد) : فضائل
الأندلس ، نص من المقرئ ترجمه إلى الإسبانية
الأستاذ غرسية غومس تحت عنوان :
Elogio del Islam espanol, Madrid, 1943.
- ٤٥ - ابن شهيد : (أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك) :
ديوان ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق الأستاذ
يعقوب زكي ، القاهرة .

٤٦ - ابن صاحب الصلاة : (عبد الملك بن محمد بن أحمد) : تاريخ المن
بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة
وجعلهم الوارثين ، تحقيق الأستاذ عبد الهادي
التازي ، بيروت ١٩٦٤ . والقسم الخاص بملشآت
الموحدين في إشبيلية نشرها الأب ملشور انطونية
يعنوان :

Sevilla y sus monumentos arabes,
el Escorial. 1930.

٤٧ - الطبري : (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة

مصر ١٣٩٩ ، وطبعة ليدن بعنوان Annales
quos Scripsit نشره دي غوية ، ليدن ١٨٩٣ .

٤٨ - ابن عبد ربه : (أبو عمر أحمد بن محمد) : العقد الفريد ، ج ٦ ،
القاهرة ، ١٩٤٩ .

٤٩ - ابن عذاري : (أبو عبد الله محمد المراكشي) : البيان المغرب

في أخبار الأندلس المغرب ، نشره الأستاذان
ليفي بروفنسال وكولان ، ليدن ، ١٩٤٨ -
١٩٥١ ، وطبعة بيروت عن دوزي ، بيروت
١٩٥٠ في جزأين - والجزء الثالث ، نشره ليفي
بروفنسال ، باريس ١٩٣٠ .

٥٠ - العذري : (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي) :

ترصيع الأخبار وقنويغ الآثار ، والبستان في
غرائب البلدان ، والمسالك إلى الممالك ، تحقيق
الدكتور عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥ .

٥١ - العمري : (شهاب الدين أحمد بن فضل الله) : مسالك

الأبصار في بمالك الأمصار ، ج ١ ، نشره
الأستاذ أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

- ٥٢ - ابن غالب : (محمد بن أيوب الاندلسي) : قطعة من كتاب
فرحة الأنفس بعد الأربعمائة ، نشرها الدكتور
أحمد لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات
العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٥٣ - الفرناطلي : (أبو حامد) : عجائب المخلوقات ، مخطوطة
محفوطة بمكتبة أكسفورد تحت رقم
Hunt 565 .
- ٥٤ - الغساني : (الوزير محمد بن عبد الوهاب) : رحلة الوزير
في افتكاك الأسير ، نشرها سوفيير Sauvair ،
مع الترجمة الفرنسية ، باريس ١٨٨٤ .
- ٥٥ - أبو القداء : (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : كتاب
المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ،
١٩٥٦ - ١٩٥٩ .
- ٥٦ - ابن الفرضي : (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف) :
كتاب تاريخ علماء الاندلس ، تحقيق فرنشكو
كوديرة ، مدريد ، ١٨٩١ (جزآن) -
وطبعة القاهرة ١٩٦٦ .
- ٥٧ - ابن القطان : (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي
القاسمي) جزء من كتاب نظم الجمان تحقيق
الدكتور محمود علي مكي ، منشورات كلية
الآداب جامعة محمد الخامس بالرباط ، تطوان
(بدون تاريخ) .
- ٥٨ - القفطي : (جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف) :
تاريخ الحكماء ، نشره يوليوس ليبيرت
Julius Lippert ، لينزج ، ١٩٠٣ .

٥٩ - ابن القوطية : (أبو بكر محمد القرطبي) تاريخ افتتاح
الأندلس ، نشره دون خليان ريبيرا بعنوان
Historia de la conquista de Espana ، مدريد
١٩٢٦ ، ومعه الرسالة الشريفة في الاقطار
الأندلسية .

٦٠ - ابن الكردبوس : (أبو مروان عبد الملك التوزري) : تاريخ
الأندلس ، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في
أخبار الخلفاء ، تحقيق الدكتور أحمد مختار
المبادي ، مدريد ، ١٩٧١ .

٦١ - المراكشي : (عبد الواحد بن علي) : المعجب في تلخيص
أخبار المغرب ، نشره الأستاذان محمد سعيد
المریان ، ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ ،
وطبعة القاهرة ١٩٦٣ .

٦٢ - المسمودي : (أبو الحسن علي) : مروج الذهب ومعادن
الجواهر ، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ،
القاهرة ، ١٩٥٨ (في أربع أجزاء) .

٦٣ - المقدسي : (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري) :
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق
دي غوية ، لندن ، ١٩٠٦ .

٦٤ - المقري : (أحمد بن محمد) : نفع الطيب من غصن
أندلس الرطيب ، تحقيق الأستاذ محيي الدين
عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ (الأجزاء الست
الأولى) .

- ٦٥ - ابن المهدي : (أبو العباس) : نتيجة الاجتهاد، نشره الأستاذ
الفريد بستاني ، العرائش ، ١٩٤١ .
- ٦٦ - مجهول : أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، نشره دون
لافونتي القنطرة ، في مجموعة «Obras arabigas» ،
مدريد ، ١٨٦٧ .
- ٦٧ - » : فتح الاندلس ، نشره دون خواكين جنتالك ،
الجزائر ، ١٨٨٩ .
- ٦٨ - » : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، طبعة
تونس ، ١٣٢٩ هـ .
- ٦٩ - » : مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين
الله ، نشرها وقام بدراساتها وترجمتها إلى الإسبانية
الاستاذان ليفي بروفنسال وغرسية غومس بعنوان
Una cronica anonima de Abd al-Rahman
III al - Nasir, Madrid — Granada, 1950.
- ٧٠ - ابن منظور : (جمال الدين محمد) : لسان العرب ، طبعة
دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ .
- ٧١ - الهمداني : (أبو بكر أحمد بن ابراهيم) مختصر كتاب
البلدان ، نشره دي غوية ، لندن ١٨٨٥ .
- ٧٢ - الونشريشي : (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني) :
أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه
النصارى ولم يهاجر ، نشره الدكتور حسين
مؤنس ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ، المجلد
الخامس ، ١٩٥٧ .
- ٧٣ - ياقوت الحموي : (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان ،
طبعة بيروت ، ١٩٥٧ .

ثالثاً - المراجع العربية الحديثة والأوروبية المعربة

- ٧٤ - الأسد : (دكتور ناصر الدين) : القيان والغناء في العصر
الجاهلي ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- ٧٥ - أشباخ : (يوسف) : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين
والموحدين ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الله غنان ،
القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ٧٦ - أمين : (الأستاذ أحمد) : فجر الإسلام ،
القاهرة ، ١٩٤٥ .
- ٧٧ - الأهواني : (دكتور عبد العزيز) : سفارة سياسية من
غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري ،
مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ،
مجلد ١٦ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٤ .
- ٧٨ - د : (الزجل في الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٧٩ - بصمه جي : (الأستاذ فرج) : نبذة تاريخية عن طيسفون ،
بغداد ، ١٩٦٤ .
- ٨٠ - بلا : (الأستاذ شارل) : ديوان ابن شهيد الأندلسي ،
بيروت ، ١٩٦٣ .
- ٨١ - جنثالث بالنشيا : (الأستاذ آنخل) : تاريخ الفكر الأندلسي ،
ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ٨٢ - الحاجري : (دكتور طه) : ابن حزم ، صورة أندلسية ،
القاهرة .
- ٨٣ - الحجري : (دكتور عبد الرحمن علي) : تاريخ الموسيقى
الأندلسية ؛ أصولها تطورها ، أثرها على الموسيقى
الأوروبية ، بيروت ، ١٩٦٩ .

- ٨٤ - حسن : (دكتور زكي محمد) : القصور الأموية في شرق الأردن ، مقال بمجلة الكتاب ، القاهرة ، ديسمبر ، ١٩٤٥ .
- ٨٥ - حسن : (دكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الاسلام السيامي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ٢ القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٨٦ - حسني عبدالوهاب : (الاستاذ حسن) : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ، قسم ٢ ، تونس ، ١٩٦٦ .
- ٨٧ - الحفني : (الدكتور محمود أحمد) : زرياب موسيقار الأندلس ، أعلام العرب ، رقم ٥٤ ، القاهرة .
- ٨٨ - د : اسحق الموصلي الموسيقار النديم ، أعلام العرب رقم ٥٤ ، القاهرة .
- ٨٩ - خليفة : (دكتور عبد الكريم) : ابن حزم : حياته وأدبه ، بيروت .
- ٩٠ - دوزي : (رينهارت) : ملوك الطوائف ، ترجمة الأستاذ كامل كيلاني ، القاهرة ، ١٩٣٣ .
- ٩١ - الرزقي : (الأستاذ الصادق) : الأغاني التونسية ، تونس ، ١٩٦٧ .
- ٩٢ - رستم : (دكتور أسد) : الروم وصلاتهم بالعرب ، مجلدان ، بيروت ، ١٩٥٥ .
- ٩٣ - الركابي : (دكتور جودة) : في الأدب الاندلسي ، دمشق ، ١٩٥٥ .
- ٩٤ - رينان : (الاستاذ إرنست) : ابن رشد والرشدية ، ترجمة الاستاذ عادل زعير ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

- ٩٥ - سالم : (دكتور السيد عبد العزيز) : بعض التأثيرات
الاندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة ،
عدد ١٢ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ٩٦ - د : أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة المسيحية
بإسبانيا وفرنسا ، المجلة ، عدد ١٤ ، القاهرة ،
١٩٥٨ .
- ٩٧ - د : مسجد المسلمين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب ،
جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ .
- ٩٨ - د : المساجد والقصور بالاندلس ، سلسلة إقرأ ، عدد
١٩١ ، ١٩٥٨ .
- ٩٩ - د : التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية
الوسطى ، المجلة ، عدد ٩ ، ١٩٥٧ .
- ١٠٠ - د : مقالات عديدة في كتاب الشعب رقم ٦١ ، ٦٤ ،
٦٧ بعنوان :
اشبيلية ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦١ ،
القاهرة ، ١٩٥٩ .
- فن الغناء والموسيقى ، عدد ٦١ ، القاهرة ، ١٩٥٩
- العمارة الدينية بالاندلس ، د د د د
- العمارة المدنية بالاندلس ، عدد ٦٤ ، د د
- الصناعات والفنون بالاندلس عدد ٦٤ د د
- الحياة العلمية والادبية بالاندلس د د د
- الحكم المستنصر ، عدد ٦٧ د د
- ١٠١ - د : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها
القاهرة ، ١٩٥٩ .

- ١٠٢ - سالم : بيوت الله مساجد ومعاهد ، كتاب الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ١٠٣ - د : القيم الجمالية في فن المماره الاسلاميه ، بيروت ، ١٩٦٢ .
- ١٠٤ - د : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦١ والطبعة الثانية ، ١٩٦٩ .
- ١٠٥ - د : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢ .
- ١٠٦ - د : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٣ .
- ١٠٧ - د : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامي ، بيروت ، ١٩٦٤ .
- ١٠٨ - د : التأريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .
- ١٠٩ - د : المغرب الكبير ، الجزء الثاني : العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ .
- ١١٠ - د : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .
- ١١١ - د : ما لا يعرفه المسلمون عن حواضر الاندلس : طليطلة ، مجلة الفكر الاسلامي ، السنة الأولى ، عدد ٥ ، بيروت ١٩٧٠ .
- ١١٢ - د : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٧٠ .
- ١١٣ - د : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، بيروت ١٩٦٩ .
- ١١٤ - د : تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .

- ١١٥ - سالم والعبادي : (دكتور مختار) تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ١١٦ - سالم : أضواء على مشكلة تاريخ بنيان المسجد الجامع بقرطبة ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، ١٩٦٩ .
- ١١٧ - الشكمة : (دكتور مصطفى) : الأدب الأندلسي : موضوعاته ومقاصده ، بيروت ١٩٧٢ .
- ١١٨ - شلومبرجه : (دانيال) : قصر الخير الغربي ، ترجمة الياس أبو شبكة ، بيروت ، ١٩٤٥ .
- ١١٩ - الشيال : (دكتور جمال الدين) : التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة ، بيروت ١٩٦٩ .
- ١٢٠ - شيخاني : (الأستاذ سمير) : أشهر المغنين عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢ .
- ١٢١ - الصوفي : (الدكتور خالد) : تاريخ العرب في إسبانيا في نهاية الخلافة الأموية ، حلب ، ١٩٦٣ .
- ١٢٢ - ضيف : (الدكتور شوقي) : ابن زيدون ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ١٢٣ - » : الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، بيروت ، ١٩٦٧ .
- ١٢٤ - طباره : (الأستاذ شفيق) : الإمام الأوزاعي ، بيروت ، ١٩٦٥ .

- ١٢٥ - طرخان : (دكتور ابراهيم) : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٢٦ - عاقل : (دكتور نبيه) : الغناء والمفنون في الجاهلية وصدر الاسلام ، مجلة العربي ، عدد ٥٠ ، ١٩٦٢ .
- ١٢٧ - العبادي : (الأستاذ عبد الحميد) : صور وبحوث من التاريخ الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
- ١٢٨ - » : المجلد في تاريخ الأندلس ، المكتبة التاريخية عدد ١ ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ١٢٩ - » : (الدكتور أحمد مختار) : الأعياد في مملكة غرناطة ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمديرة ، ١٩٧٠ .
- ١٣٠ - عباس : (دكتور إحسان) : تاريخ الأدب الاندلسي ، المكتبة الأندلسية ، عدد ٢ ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- ١٣١ - عبد البديع : (دكتور أحمد لطفي) : الاسلام في إسبانيا ، المكتبة التاريخية ، عدد ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٣٢ - عبد الحميد : (دكتور سعد زغلول) : تاريخ الاسكندرية منذ الفتح العربي حتى العصر الفاطمي ، مقال في كتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .
- ١٣٣ - عبد الحميد : (دكتور حسين أمين) : المسجد المعهد الأول للتعليم عند المسلمين ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

- ١٣٤ - عتيق : (دكتور عبد العزيز) : ابن أبي عتيق ، ناقد الحجاز : أخباره ونقده ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- ١٣٥ - غنية : (الأستاذ يوسف رزق) : الحيرة المدينة والمملكة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦ .
- ١٣٦ - غومس : (الأستاذ إميليو غرسيه) : الشعر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ١٣٧ - فارمر : (هنري جورج) تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ١٣٨ - فكري : (دكتور أحمد) : المسجد الجامع بالقديوان ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ١٣٩ - : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١ .
- ١٤٠ - ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ١٤١ - : محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية ، ١٩٥١ .
- ١٤٢ - محمود : (دكتور حسن) وكاشف (دكتورة سيدة) : مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين ، القاهرة ، ١٩٦١ .

- ١٤٣ - محمود : (دكتور حسن) : قيام دولة المرابطين ،
القاهرة ، ١٩٥٧ .
- ١٤٤ - مرزوق : (دكتور محمد عبد العزيز) : الفنون الزخرفية
الاسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ١٩٧٢ .
- ١٤٥ - مؤنس : (دكتور حسين) : فجر الأندلس ، القاهرة ،
١٩٥٩ .
- ١٤٦ - : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،
مدريد ، ١٩٦٧ .
- ١٤٧ - مورينو : (الاستاذ مانويل غومس) : الفن الاسلامي في
إسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع ،
والدكتور السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٤٨ - الناضوري : (دكتور رشيد) : المدخل في التطور التاريخي
للفكر الديني ، بيروت ، ١٩٦٩ .

رابعاً - المراجع الأوروبية الحديثة

A

- 1 — al-Ahwani (Abdal-Aziz) : el Kitab al-Maqtataf min Azahir al-Turaf, de Ibn S'aid, al-Andalus, vol. XIII, 1948.
- 2 — Alarcon (M.) & de Linares : Documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940.
- 3 — Antuna (P. Melchor) : La corte Literaria de Alhaquém II en Cordoba, el-Escorial, 1929.
- 4 — Arellano (R. Ramirez de) : Historia de Cordoba, Ciudad Real, 1915 - 1919.

B

- 5 — Beylié (général de) : La Kala'a de Beni Hammad, Paris, 1909.
- 6 — Boigues (Francisco Pons) : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geógrafos arabigo espanoles, Madrid, 1926.
- 7 — Bosco (Ricardo Velasquez) : Medina Azzahra y Alamiriya, Madrid, 1912.
- 8 — ——— : Excavaciones en Medina Azzahra, Madrid, 1923.
- 9 — Brisch (Klaus) : Las celosias de las fachadas de la gran mezquita de Cordoba, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.

C

- 10 — Cagigas (Isidro de las) : Andalucia musulmana, Madrid, 1950.
- 11 — Valvert (Albert) & Gallichan (W.) : Cordova a city of the Moors, London, 1907.
- 12 — Calzada : Historia de la arquitectura espanola, Madrid.
- 13 — Camon Aznar (José) : La boveda gotica-morisca, de la capilla de Talavera en la Catedral Vieja de Salamanca, al-Andalus, vol. V, 1940.
- 14 — Camps y Cazorla (E) : Arquitectura califal y Mozarabe, Cartillas de la arquitectura espanola, t. IV, Madrid, 1929.
- 15 — ——— : Modulos, proporciones y composicion, en la arquitectura califal cordobesa, Madrid, 1953.
- 16 — Castejon (Rafael) : Guia de Cordoba, Madrid, 1930.
- 17 — ——— : Cordoba Califal, Boletin de la Real Academia de ciencias, Bellas Letras y Nobles Artes de Cordoba, ano VIII, No. 25, 1929.

- 18 — Castejon : La Portada de Mohammad I, en Boletín de la Real Academia de Bellas Letras y Nobles Artes de Córdoba, No. 51, 1944.
- 19 — ——— : Nuevas excavaciones en Medina al-Zahra, el Salón de Abd er Rahman III, al-Andalus, 1945.
- 20 — ——— : El Pavimento de la mezquita de Córdoba, Boletín de la Real Academia de B.L. y N.A. de Córdoba, No. 54, 1945.
- 21 — ——— : Mas sobre el pavimento de la mezquita de Córdoba, Boletín de la Real Academia de B.L. y N.A. de Córdoba, No. 56, 1946.
- 22 — ——— : Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara, (Córdoba), Campana 1943, Madrid 1945.
- 23 — Creswell (K.A.C.) : Early Muslim Architecture; Umayyads, Early Abbassids and Tulunids, vol. II, Oxford, 1938.
- 24 — ——— : A short account of Early muslim architecture, Penguin Series, 1958.

D

- 25 — Diehl (Charles) & Marçais (Georges) : Histoire du Moyen âge, t. III, Paris, 1936.
- 26 — Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, nouvelle édition, Leiden, 1932.
- 27 — ——— : Supplément aux dictionnaires arabes, 2 vols. Beyrouth, 1968, d'après l'édition de Leyden 1881.
- 28 — ——— & Engelmann; Glossaire des mots espagnols et Portugais, Leiden.

E

- 29 — Enciclopedia Espasa Calpe, art. Córdoba.
- 30 — Ettinghausen (Richard) : Arab Painting, collection Skira.

F

- 31 — Ferrandis (José) : Marfiles arabes de Occidente, 2 tomos, Madrid, 1935.
- 32 — Fikry (Ahmad) : La mosquée az-Zaytoûna à Tunis, Recherches archéologiques, dans Egyptian Society of historical studies, vol. II, Cairo, 1952.
- 33 — ——— : L'art Roman du Puy et les influences islamiques, Paris, 1935.

G

- 34 — Garcia Gomez (Emilio) : Algunas precisiones sobre la ruina de Cordoba omeya, al-Andalus, vol. XII, 1947.
- 35 — ——— : Al-Hakam II y los Berberes, al-Andalus, vol. XIII, 1948.
- 36 — ——— : Una descripcion desconocida del Alminar de la Mezquita de Cordoba, al-Andalus, vol. XVII, 1952.
- 37 — Guichot (Joaquín) : Historia general de Andalucia, t. I, Madrid, 1869.

I

- 38 — Jimenez (Felix Hernandez) : El Alminbar movil del siglo X de la Mezquita de Cordoba, al-Andalus, vol. XXIV, 1959.
- 39 — ——— : La techumbre de la gran Mezquita de Cordoba, en Archivo espanol de arte y arqueologia, t. XII, 1928.
- 40 — Jimenez (Manuel Ocana) : Capiteles epigrafiados del Alcazar de Cordoba, al-Andalus, vol. III, 1935.
- 41 — ——— : Las puertas de la Medina de Cordoba, al-Andalus, vol. III, 1935.
- 42 — ——— : Capiteles epigrafiados de Madinat al-Zahra y capiteles epigrafiados del bano del Albaicin en Granada, al-Andalus, vol. IV, 1936.
- 43 — ——— : Capiteles fechados del siglo X, al-Andalus, vol. V, 1940.
- 44 — ——— : La Basilica de San Vicente y la gran Mezquita de Cordoba, al-Andalus, 1942.
- 45 — ——— : Inscripciones arabes descubiertos en Madinat al-Zahra, en 1944, al-Andalus, vol. X, 1945.
- 46 — ——— : Nuevas inscripciones arabes de Cordoba, al-Andalus, vol. XVII, 1952.

L

- 47 — Lambert (Elie) : L'architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède, Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925.
- 48 — ——— : Les voûtes nervées hispano musulmanes du XIe siècle et leur influence possible sur l'art chrétien, Hespéris, 1928.
- 49 — ——— : De quelques incertitudes dans l'histoire de la grande mosquée de Cordoue, Annales de l'Institut des Etudes Orientales de l'Université d'Alger, t. I, 1934-1935.
- 50 — ——— : Las tres etapas constructivas de la Mezquita de Cordoba, al-Andalus, 1935.

- 51 — Lambert : L'histoire de la grande mosquée de Cordoue au VIIIe et IXe siècles, Annales de l'Institut des études orientales de l'Université d'Alger, vol. II, 1936.
- 52 — ——— : Précisions nouvelles sur l'œuvre d'al-Hakam II dans la grande mosquée de Cordoue, Annales de l'Institut des études orientales de l'Université d'Alger, 1936.
- 53 — ——— : Les coupôles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne au IXe et Xe siècles, Hespéris, t. XXII, fasc. 2, 1936.
- 54 — ——— : Les origines de la croisée d'ogives, dans : Office des Instituts d'archéologie et d'histoire d'art, 1937.
- 55 — ——— : L'hôpital Saint Blaise et son église hispanomauresque, al-Andalus, 1940.
- 56 — ——— : La mosquée de Cordoue et l'art byzantin, Actes du VIe congrès international d'études byzantines, Paris, 1948-1951.
- 57 — ——— : Les Mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, vol. XIV, 1949.
- 58 — ——— : L'art de l'Islam occidental, Annales de l'Université de Paris, 1953.
- 59 — Lévi-Provençal : Inscriptions arabes d'Espagne, 2 tomes, Paris, 1931.
- 60 — ——— : L'Espagne musulmane au Xe siècle, Paris, 1932.
- 61 — ——— : La política africana de Abd al-Rahman III, al-Andalus, vol. XI, 1946.
- 62 — ——— : En relisant le Collier de Colombe, al-Andalus, vol. XV, 1950.
- 63 — ——— : Las ciudades y las instituciones urbanas, Tetuan, 1950.
- 64 — ——— : La description de l'Espagne de Razi, al-Andalus, vol. XVIII, 1953.
- 65 — ——— : Histoire de l'Espagne musulmane, 3 tomes, Leiden, 1950-1954.

M

- 66 — Mâle (Emile) : Art et Artistes du Moyen âge, Paris, 1947.
- 67 — Makki (Mahmud) : Egipto y los origines de la historiografia arabe espanola, Revista del Instituto de Estudios islamicos de Madrid, vol. V, No. 1, 2, 1957.
- 68 — Marçais (G.) : Manuel d'art musulman, t. I, Paris 1926.
- 69 — ——— : Echanges artistiques entre l'Egypte et l'Islam

- occidental, *Hespéris*, t. XIX, fasc 2, 1934.
- 70 — Marçais : *La Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge*, Paris, 1946.
- 71 — — : *L'architecture musulmane d'Occident*, Paris 1954.
- 72 — Maslow (Boris) : *La Qubba Barudiyyin à Marrakech, al-Andalus*, 1948.
- 73 — Moreno (Manuel Gomez) : *Excursion à travers del arco de herradura*, *Revista de Cultura espanola*, Madrid, 1906.
- 74 — — : *La civilizacion arabe y sus monumentos en Espana*, *Revista de Arquitectura*, Madrid, 1919.
- 75 — — : *Iglesias Mozarabes*, Madrid, 1919.
- 76 — — : *el Arte en Espana y el Mogreb*, *Coleccion de Arte del Islam*, Labor.
- 77 — — : *el Entrecruzamiento de arcadas en la arquitectura arabe*, Cordoba, 1930.
- 78 — — : *el arte romanico espanol*, Madrid 1934.
- 79 — — : *Ars Hispaniae*, t. III : *arte arabe espanol hasta los Almohades*, Madrid, 1951.

P

- 80 — Palencia (A. Gonzlez) : *Moros y Cristianos en Espana Medieval*, Madrid, 1945.
- 81 — Pérès (Henri) : *La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle*, Paris, 1937.
- 82 — Pijouan (José) : *Summa Artis*, historia general del arte, t. XII, Madrid, 1949.
- 83 — Prangey (Girault de) : *Essai sur l'architecture des Arabes et des Mores en Espagne, en Sicile et en Berberie*, Paris, 1841.
- 84 — Priego (Rafael Aguilar) : *Datos inéditos sobre la restauracion del mihrab de la Mezquita de Cordoba*, *Boletin de la Real Academia de Cordoba*, No. 53, 1945.
- 85 — Prieto y Vives (Antonio) : *Los Reyes de Taïfas*, estudio historico numismatico de los Musulmanes espanoles, en el siglo V de la hegira, Madrid 1926.

R

- 36 — Remiro (Mariano Gaspar) : *Historia de Murcia musulmana*, Zaragoza, 1905.
- 87 — *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe*, t. V, le Caire, 1934.

- 88 — Ricard : Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne, Paris 1924.
 89 — Rios (Amador de los) : Inscripciones arabes de Cordoba, Madrid, 1892.
 90 — Rios (Francisco Abad) : Zaragoza, coleccion de guias artisticas de Espana, Barcelona, 1952.

S

- 91 — Saavedra (Eduardo) : Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892.
 92 — Salem (al-Sayyid) : Cronologia de la Mezquita mayor de Cordoba levantada por Abd al-Rahman I, al-Andalus, vol. XIX, 1954.
 93 — Sanchez - Albornoz : Historia de la Espana musulmana, Buenos-Aires, 1946.
 94 — Sauvaget (Jean) : Les monuments historiques de Damas, Beyrouth, 1932.
 95 — ——— : La mosquée omeyyade de Médine, étude sur les origines architecturales de la mosquée et la basilique, Van Oest, 1947.
 96 — Schmidt : Cordoue et Grenade, collection « villes d'art célèbres », Paris, 1906.
 97 — Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897.
 98 — Stern : Les vers finaux en espagnol dans les Muwassahs hispano hebrériques, al-Andalus, 1948.

T

- 99 — Terrasse (Henri) : L'art hispano mauresque dès origines au XIIIe siècle, Paris, 1932.
 100 — ——— : La mosquée des Andalous à Fès, Publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, t. 38, Paris.
 101 — ——— : Histoire du Maroc, t. I, Casablanca, 1949.
 102 — Térès (Elias) : Abbas ibn Nasih, poète y Qadi de Algeciras, en : Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, Paris, 1962.
 103 — Torres Balbas (Leopoldo) : La Progenie hispano musulmana de las primeras bovedas nervadas francesas, al-Andalus, vol. III, 1935.
 104 — ——— : Intercambios artisticos entre Egipto y el Occidente musulman, al-Andalus, vol. III, 1935.
 105 — ——— : Las norias fluviales en Espana, al-Andalus, vol. V, 1940.
 106 — ——— : Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba, al-Andalus, vol. VI, 1941.

- 107 — ——— : La primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946.
- 108 — ——— : Arquitectos andaluces de las épocas almoravide y almohade, al-Andalus, 1946.
- 109 — ——— : la Portada de San Esteban, al-Andalus, vol. XII, 1947.
- 110 — ——— : Ars Hispaniae, t. IV : arte almohade, arte Nasari, arte Mudejar, Madrid, 1949.
- 111 — ——— : Nuevos datos sobre la mezquita de Córdoba Cristianizada, al-Andalus, vol. XIV, 1949.
- 112 — ——— : el arte de al-Andalus bajo los Almoravides, al-Andalus, vol. XVII, 1952.
- 113 — ——— : La mezquita de Córdoba y Madinat al-Zahra, Madrid 1952.
- 114 — ——— : La Medina, los arrabales y los barrios, al-Andalus, 1952.
- 115 — ——— : La mezquita de al-Qanatir y el Santuario de Alfonso el Sabio en el puerto de Santa María, al-Andalus, vol. VII, 1952.
- 116 — ——— : La mezquita mayor de Almería, al-Andalus, vol. XVIII, 1953.
- 117 — ——— : Extension y demografía de las ciudades hispano musulmanas, Studia Islamica, vol. III, 1955.
- 118 — ——— : Medina al-Zahira, la ciudad de Almanzor, al-Andalus, vol. XXI, 1956.
- 119 — ——— : Cementerios hispano-musulmanes, al-Andalus, vol. XXII, 1957.
- 120 — ——— : Arte hispanomusulman hasta la caída del califato de Córdoba, en Historia de España, dirigida por Don Ramon Menendez-Pidal, t. V, Madrid, 1957.
- 121 — ——— : La vía Augusta y el arrecife musulman, al-Andalus, vol. XXIV, 1959.
- 122 — Torres (E. Romero de) : Restauraciones desconocidas en la Mezquita Aljama de Córdoba, Boletín de la Real Academia de ciencias, B.L. y N.A. de Córdoba, No. 62.
- V
- 123 — Van Berchem (Max) : Voyage en Syrie, dans Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t. 37, le Caire, 1914.
- W
- 124 — Wiet (Gaston) & Hauteœur : Les mosquées du Caire, Paris, 1932.
- Z
- 125 — Zuniga (Diego Ortiz de) : Anales Eclesiasticas y Seculares, 3 tomos, Madrid 1796.

فهرس موضوعات الكتاب
بجزأيه الأول والثاني

فهرس موضوعات الجزء الاول

صفحة

٧

مقدمة

القسم الاول

التاريخ الاسلامي لمدينة قرطبة

الفصل الاول

قرطبة منذ الفتح الاسلامي حتى قيام دولة بني أمية

(١) الفتح الاسلامي

- | | |
|----|---|
| ١٥ | أ - قرطبة قبل الفتح |
| ٢٠ | ب - سقوط قرطبة في أيدي المسلمين |
| ٢٧ | ج - تحصن القوط في كنيسة شنت أجلع خارج الأسوار |
| | (٢) تاريخ قرطبة في عصر الولاة |
| ٢٩ | أ - قرطبة حاضرة الأندلس |
| ٣١ | ب - منشآت الولاة في قرطبة |
| ٣٥ | ج - موجة الشاميين |
| ٣٨ | د - قرطبة مركز الصراع بين اليمانية والمضرية |

الفصل الثاني

قرطبة في عصرها الذهبي : عصر دولة بني أمية

- (١) قرطبة في ظل أمراء بني أمية
- أ - مظاهر الملك في دولة عبد الرحمن الداخل ٤٥
- ب - الطابع السوري في منشآت عبد الرحمن بقرطبة ٤٨
- ج - تدفق التأثيرات المشرقية على قرطبة منذ عصر عبد الرحمن الأوسط ٥٤
- (٢) قرطبة في عصر خلفاء بني أمية العظام
- أ - تقدم الحركة العمرانية والعلمية في قرطبة الخلافية - ٦٠
- ب - وصف كتاب العرب لقرطبة في عصر الخلافة ٦٢
- ج - السفارات السياسية الأجنبية إلى قرطبة في عصر الدولة الأموية ٦٥

الفصل الثالث

سقوط الخلافة الأموية وأثره في انتمحلال قرطبة

- (١) الفتنة البربرية
- أ - التفوق العددي للعنصر البربري على العنصر العربي في الأندلس ٧٩
- ب - غلبة العنصر البربري في عهد سليمان المستعين ونتائجه ٨٥
- ج - نهاية عهد سليمان المستعين ٨٨
- (٢) سقوط الخلافة الأموية بقرطبة
- أ - انهيار حزب المروانية ٩٢
- ب - الصراع بين بني حمود للظفر بالخلافة ٩٧
- ج - السنوات الثانية الأخيرة للخلافة الأموية ١٠٠

صفحة

١٠٩	(٣) دثور قرطبة
١٠٩	أ - المرحلة الأولى
١١٢	ب - المرحلة الثانية
١١٤	ج - المرحلة الثالثة
١١٦	د - المرحلة الرابعة
١١٨	هـ - المرحلة الخامسة
١١٩	(٤) المسؤولون عن نكبة قرطبة

الفصل الرابع

عصر التخلّف : من قيام دولة بني جهور حتى سقوط قرطبة
في أيدي القشتاليين

١٢٥	(١) طبيعة الصراع بين العصبيتين الأندلسية والبربرية في عصر دويلات الطوائف
١٣٢	(٢) قرطبة في عصر الطوائف
١٣٢	أ - في ظل بني جهور
١٣٨	ب - قرطبة في ظل المعتمد بن عباد
١٤١	ج - وصف القصور الدارسة بقرطبة والزهاء في عصر الطوائف
١٤٢	(٣) قرطبة في عصر المرابطين
	(٤) نهاية قرطبة الاسلامية
١٤٩	أ - قرطبة منذ عهد الموحدين حتى سقوطها في أيدي القشتاليين
١٥٤	ب - ما بعد سقوط قرطبة

* * *

القسم الثاني

التخطيط والعمران

الفصل الخامس

التطور العمراني والتخطيط منذ الفتح الاسلامي حتى انتهاء
قرطبة في التوسع

صفحة

- (١) اتساع العمران في قرطبة في عصر الامارة
أ - المدينة المتينة والفيض السكاني خارج الأسوار ١٦٣
ب - تخطيط المدينة في العصر الاسلامي وأسوارها المحدث ١٦٩
(٢) التطور العمراني في عصر الخلافة وقيام الأرباض
أ - المدينة الوسطى وجوانبها الأربعة ١٧٥
ب - أرباض قرطبة والحوامات ١٧٧
ج - الأسواق القرطبية في المصادر العربية والوثائق القشتالية ١٨١
د - إحصائيات المؤرخين بالدور والخوانيت والمساجد والحمامات ١٨٢

الفصل السادس

معالم قرطبة ومبانيها في العصر الاسلامي

- (١) في عصر الدولة الأموية والطوائف ١٨٧
١ - القصر الخلافي ١٨٧
٢ - المسجد الجامع بقرطبة ١٩٥

صفحة

١٩٧	٣ - قنطرة قرطبة
٢٠١	٤ - الرصيف والسد والمنبر
٢٠٤	٥ - منية الناعورة
٢٠٦	٦ - سوق قرطبة
٢٠٦	٧ - مصليا الربض والمصاراة
٢٠٨	٨ - منية ابن عبد العزيز
٢٠٨	٩ - منية نصر في الربض
٢٠٩	١٠ - منيتا عجب وابن أبي الحكم بن القرشية
٢١٠	١١ - فحص السرادق
٢١١	١٢ - حير الزجاجي
٢١٢	١٣ - المنية المصحفية
٢١٣	١٤ - القصر الفارسي
٢١٣	١٥ - المنية العامرية
٢١٥	١٦ - دور السكن والطراز والصناعة
٢١٧	١٧ - برج الشرقية
٢١٨	١٨ - سجن قرطبة
٢١٩	١٩ - أسماء بعض الدور الخاصة والأمراء والدور الرسمية بقرطبة
٢٢٢	٢٠ - مواضع أخرى من قرطبة الاسلامية
٢٢٦	٢١ - مقابر قرطبة
٢٢٧	(٢) في عصر دولتي المرابطين والموحدين
	(٣) قرطبا قرطبة : الزهراء والزهرة
٢٢٩	أولاً - مدينة الزهراء
٢٢٩	شغف الناصر بالبنيان

صفحة

٢٣٣	سبب إنشاء الزهراء وتسميتها بهذا الاسم
٢٣٧	إحصائيات بعدد العمال ومواد البناء
٢٣٩	مجالس قصر الخلافة
٢٤٣	بساتين القصر
٢٤٥	قيام الدور والمسجد والأسواق
٢٤٧	تاريخ المدينة
٢٥٨	ثانياً - مدينة الزاهرة

* * *

القسم الثالث

آثار قرطبة الباقية

الفصل السابع

جامع قرطبة (الدراسة التاريخية)

٢٦٩	(١) عرض عام لمشكلات تأريخ جامع قرطبة منذ إنشائه
٢٧٢	أ - مشكلة المدة التي استغرقها البناء
٢٧٧	ب - موضع الجامع بالنسبة للكنيسة
٢٨٨	ج - مشكلة عدد بلاطات المسجد الذي أقامه عبد الرحمن الداخل
٣١٥	(٢) دراسة بانيان المسجد الجامع بقرطبة في عصر الإمارة

صفحة

٣١٦	أ - مسجد قرطبة في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل
٣١٦	الوصف العام
٣١٩	تحليل عناصر البناء
٣٢٠	مظاهر الأصالة
٣٢٣	ب - المسجد الجامع في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل
٣٢٣	أعمال الأمير هشام
٣٢٤	أعمال الأمير عبد الرحمن الأوسط
٣٢٧	باب الوزراء
٣٣٠	أعمال أمراء بني أمية بعد عبد الرحمن الأوسط
٣٣٣	(٣) تأريخ جامع قرطبة في عصر الخلافة
٣٣٣	أ - أعمال الخليفة عبد الرحمن الناصر
٣٣٨	ب - زيادة الحكم المستنصر
٣٤٦	ج - زيادة المنصور بن أبي عامر
٣٤٩	(٤) تأريخ الجامع بعد سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين

الفصل الثامن

جامع قرطبة (الدراسة الفنية)

٣٥٩	(١) تخطيط المسجد الجامع بقرطبة بعد زيادتي المستنصر والمنصور
٣٦٤	(٢) الدعائم الداخلية
٣٦٤	أ - الأعمدة والأرجل (الدعائم)
٣٦٦	ب - المقود

صفحة

- ١ - المقعد المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة والمقعد نصف الدائري ٣٦٦
- ٢ - العقود ثلاثية الفصوص ومتعددة الفصوص ٣٦٨
- ٣ - المقعد المنكسر أو المدبب ٣٧١
- (٣) الكتلي ٣٧٢
- أ - الركائز الخارجية ٣٧٢
- ب - المئذنة ٣٧٣
- (٤) أسقف الجامع وقبابه ٣٧٩
- أ - الأسقف الخشبية ٣٧٩
- ب - القبوات والقباب ٣٨٤
- (٥) الأبواب والنوافذ ٣٩٣
- (٦) واجهة المحراب ٣٩٧
- واجهة عقد المحراب وعقدي البابين المجاورين شرقاً وغرباً ٣٩٧
- قائمة بالاصطلاحات الفنية الواردة في الجزء الأول وتفسيرها ٤٠٥

فهرس موضوعات الجزء الثاني

صفحة

مقدمة

٥

الفصل التاسع

آثار قرطبة الاسلامية

٩	(١) آثار مدينة الزهراء
٩	أ - حفائر مدينة الزهراء
١٣	ب - قصر الخلافة (أو قصر عبد الرحمن الناصر)
١٦	ج - قصور الحكم المستنصر
١٩	(٢) آثار قرطبة الأخرى
١٩	أ - منية العامرية
٢٠	ب - المآذن الباقية
٢٤	ج - الحمامات
٢٦	د - القناطر في الطريق ما بين قرطبة والزهراء
٢٧	هـ - الأسوار

الفصل العاشر

تأثير العمارة الخلافية بقرطبة في فنون العمارة المسيحية والاسلامية

- (١) تغلغل التأثيرات القرطبية في الغرب المسيحي والشرق الاسلامي ٣٥
(٢) مظاهر التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية المسيحية ٣٩
أ - التأثيرات القرطبية في الكنائس المستعربة الإسبانية ٣٩
ب - أثر القباب والقباب القرطبية في نظام التقبيب في إسبانيا وفرنسا ٤٢
ج - أثر الزخارف المعمارية القرطبية في فن الزخرفة المعمارية الفرنسية ٤٧
(٣) مدى التأثيرات القرطبية في العمارة الاسلامية ٤٩
أ - في المغرب الأقصى ٤٩
ب - في تونس ٥٥
ج - في الجزائر ٥٩
د - في مصر ٦١

* * *

القسم الرابع

التراث الفني والعلمي

الفصل الحادي عشر

فن الغناء والموسيقى

- (١) تطور فن الغناء والموسيقى من الجاهلية حتى عصر الدولة العباسية ٦٩
(٢) قرطبة المركز الرئيسي لفن الغناء والموسيقى في الأندلس في عصر الدولة الأموية ٧٨

صفحة

- (٣) مراكز الغناء والموسيقى في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ١٠٠
- ١ - إشبيلية ١٠١
- ٢ - قرطبة ١٠٤
- ٣ - طليطلة ١٠٤
- ٤ - المرية ١٠٦
- ٥ - سرقسطة ١٠٧
- ٦ - بلنسية ١٠٩
- (٤) الموسيقى والغناء في الأندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين
- ١١١ ودولة بني نصر بغرناطة
- ملحق (١) :
- احتفال المأمون بن ذي النون بإعذار حفيده يحيى بقصر الناعورة
- ١٢١ بطليطلة
- ملحق (٢) :
- وصف مجلس الأنس الذي أقامه المأمون بن ذي النون في قصره
- ١٢٥ المعروف بالناعورة

الفصل الثاني عشر

الفنون الصناعية

- (١) فن صناعة التحف العاجية ١٣٢
- (٢) فن صناعة التحف المعدنية ١٣٤
- أ - صناعة الآلات الحديدية ١٣٥
- ب - التحف المصنوعة من النحاس والصفرة والبرنز ١٣٦
- ج - التحف الفضية ١٤١
- د - الحلي ١٤٤

صفحة

- ١٤٦ (٣) فن الحفر في الخشب
١٤٨ (٤) فن صناعة التحف البلورية والزجاجية والخزفية
١٥١ (٥) فن الحفر في الرخام والحجر
١٥٤ (٦) صناعة المنسوجات

الفصل الثالث عشر

التراث العلمي

- ١٥٩ (١) تقدم الحركة العلمية بقرطبة في العصر الاسلامي
١٦٧ (٢) الحركة الأدبية
١٦٧ أ - الشعر والنثر
١٨٤ ب - الموشحات والأزجال
١٩٥ (٣) العلوم اللغوية والدينية
٢٠٢ (٤) التاريخ والجغرافية
٢٠٦ (٥) الرياضيات والطب والصيدنة
٢١٦ (٦) الفلسفة

* * *

٢٢٣

قائمة المراجع

